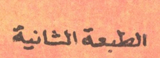
محمود عوض

الحرب الرابعة

سرى جدا



الطبعة الثانية

المكتب المصرى الحديث

محمود عوض



المكتب المصري الحديث
للطباعة والنشر
تليفون ٢٦٦٠٢
الإسكندرية

الطبعـــة الثانيـــة

ديسمبر ١٩٧٤

الحرب الرابعة

سرى جـــدا

مقـــــدمة

يقولون دائما أن كل أمة تحتاج الى صدمة كبرى لـكى تفيق من سباتها .. وتفهم ما حولها .

فى هذه الحدود فقط ، يصح لنا أن نرى هزيمة يونيو سـنة ١٩٦٧ باعتبارها فجرا وانذارا وصدمة وكابوسـا وهزيمة وليلا ونهاية وبداية وموتا وولادة .. فى وقت واحد . موتا لأشـياء كثيرة عفنة ، وولادة لطاقات كثيرة دفينة .

وأقول الحق ؟ ان صدمة سنة ١٩٦٧ كانت أشد تأثيرا على جيلنا نحن ـ الجيل الجديد فى هذه الأمة ـ منها على أى قطاع آخر فى مجتمعنـا . طوال تاريخنا الحديث .. لم يحدث أبدا ـ الا فى حالتنا هذه ـ أن سقط جيل من مثل تلك القمة المرتفعة .. الى مثل هذا القاع المخيف .. فى مثل ذلك الوقت القصير ـ ستة أيام . فى تلك الأيام الستة تعلمنا عن وطننا أكثر جدا مما تعلمناه فى الجامعة ، أو على صفحات الصحف . تعلمنـا أن الثقة ليست بديلا عن المراجعة ، والأحـلام ليسـت بديلا عن الواقع .. والخبز ليس بديلا عن الحرية . تعلمنا أن السـلطة المطلقة هى الطريق الى الانحراف المطلق . (درس أعطته لنـا مراكز القوى) . تعلمنـا أن أحد مقاييس المجتمع العصرى هو قدرة بعض مواطنيه دائمـا على الاعتراض على ما يقوله جميع مواطنيه أحيانا . تعلمنا كلمات « سقراط » : اننى أحبكم يارجال

اثينا .. ولكننى أحب الحقيقة أكثر . تعلمنا ان علينا أن ندرس شيئا جديدا هو : القدرة على ان تكون حرا . تعلمنا أننا نعيش فى بلد النور القوى .. والظل الحاد ، القوة الكامنة .. والضـــعف الطارىء ، وأن علينا ألا نسمح للثانى بأن يطمس الأول . تعلمنا اننا يجب أن نكون أولا أقوياء كأفراد .. قبـــل أن نكون أقوياء كدولة . تعلمنا أن الهزيمة لم تكن أبدا سببا فى المرض .. ولكنها كانت واحدا من أعراضه .

تعلمنا .. وتعلمنا .. وتعلمنا ..

كانت الدروس كثيرة .. وكان الثمن فادحا . وحتى الآن ، مازال السؤال الغامض هو : هل كان من المحتم أن ندفع ذلك الثمن الفادح .. لكى نتعلم تلك الدروس ؟

اننى لا اطرح هذا السؤال الآن لكى أرش الملح على جراح أحد .. ولكننى أريد فقط أن أفسر لماذا أصبح طعم المرارة جزءا من لسان جيلنا . جيل كانت الحرية ، بالنسبة له هى دائمـــا شيئا مؤجلا . شيئا سوف يتحقق غدا . ان « غدا » لم يأت أبدا .. وبدلا منه جاءت هزيمة كبرى . ان نصف موارد هـــذه الأمة ضاع فى تلك الهزيمة .. والنصف الآخر ضاع فى تصحيحها .

وعندما صدر لى الكتاب الأول فى سلسلة « ممنوع من التداول » كان الجدل ساخنا حول اختيار الطريق الأمثل الى تصحيح تلك الهزيمة . ومن الناحية الاعلامية ، فان تلك كانت أول فرصـــة حقيقية لتطبيق شعار « اعرف عدوك » .. الذى ظل مرفوعـــا لسنوات طويلة دون أى تطبيق جاد . ان الاتجاه الذى كان يمثله ذلك الكتاب تعرض وقتها لمعارضة قوية هنـــا .. وبيننا ، ولكيلا يكون البديل هو افتراض ســـوء النية فى أصـــحاب ذلك الرأى

.. فاننى أفترض أنهم أيدوا دائما منع الكتب الإسرائيلية من التداول .. بناء على افتراض من جانبهم أساسه حسن النية . افتراض يقول ان منع الكتب المعادية من التداول هو اجراء ضرورى لحماية القارىء العربى ضد الأكاذيب التى تروجها اسرائيل داخل اطار ماهر وذكى من الحرب النفسية . وان نكسة ١٩٦٧ قد ترتب عليها بالضرورة انعدام ثقتنا بأنفسنا .. بحيث أن السماح بالكتب المعادية سوف يضيف انعداما الى انعدام .

ومع ذلك فاننى كنت أرى العكس تماما .. وربما لنفس الأسباب التى يرتكن اليها أصحاب الرأى السابق .

ان من الصحيح أننا واجهنا هزيمة كبرى فى سنة ١٩٦٧ . ومن الصحيح أن العدو استغلها فى شن حرب نفسية ضارية ضدنا .. مستخدما فيها كل مهاراته وذكائه وأجهزته .

ولكن .. من الصحيح أيضا أن أحد الأسباب الرئيسية فى تلك الهزيمة هو الوصاية التى مارستها أجهزة الأمن على عقول الرأى العام . وعندما وقعت الهزيمة فعلا .. فان احدى نتائجها الرئيسية كانت وجود فجوة ثقة كبرى بين الحكومة والشعب .. نتيجة لأن النكسة لم تحدث فى ميدان القتال فقط .. بل انها كانت نكسة اعلامية بدرجة متساوية . لقد اكتشف المواطن فجأة أن الاعلام العربى لم يكن يقول الصدق .. ولم يكن يلتزم بالموضوعية .. باعتبار أن هذا هو الطريق السهل لكسب حماس القارىء والمستمع .. وللحصول على شعبية تعطى الجميع شعورا كاذبا ــ ولكن مريحا ــ من الرضاء على النفس .. ولتحقيق الأمن ، الذى كان يصبح فى النهاية .. أمن أفراد على مناصبهم .. وليس أمن أمة على مستقبلها .

ولكن .. عندما نشبت الحرب فى صـــباح الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ كانت تلك السياسة هى القتيل الأول فى الحرب .

وعندما بدأ التصحيح المشهور فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ .. كان لابد أن يكون أيضا تصحيحا اعلاميا .. بقدر ما كان فى البداية تصحيحا سياسيا .

ولقد جاءت التجربة لكى تثبت صحة كل الأسس التى اعتمدت عليها هذه السياسة الجديدة العاقلة . فعندما رفع الحظر عن الكتب الاسرائيلية التى ظلت لسنوات طويلة ممنوعة من التداول .. لم يؤد هذا الى مزيد من انعــدام الثقة بالنفس .. بل انه أدى الى مزيد من الاصرار على تصحيح نكسة سنة ١٩٦٧ .. ومزيد من الجدية فى تطبيق شـــعار « اعرف عدوك » .. ومزيد من الجدية فى احساس كل مواطن بالثمن الفكرى والمادى الذي يجب أن يساهم به — ويدفعه هو شخصيا — فى الصراع ضــد اسرائيل .. وكانت النتيجة هى أن حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ جاءت لتشهد مقاتلا جديدا فى ساحة الحرب .. ومواطنا جديدا أيضا فى الجبهة الداخلية . مواطنا فاهما لعدوه عارفا بعقله .. دارسا لأساليبه .. ومتابعا لأفكاره .

واذا كانت هذه السلسلة قد قدمت للقـــارىء من قبل أقـــوال اسرائيل عن حرب ١٩٦٧ وأسبابها .. وهى أكثر النقط انخفاضا فى الترمومتر العربى .. فان هذا الجزء يقدم للقارىء تحليل العالم لحرب ١٩٧٣ وأســـبابها .. وهى أكثر النقط انخفاضـــــا فى الترمومتر الاسرائيلى .

ان الترمومتر الاسرائيلى لن يظل منخفضا بصفة مستمرة .. الا اذا كنا نحن سنواصل دراســـة العقل الاسرائيلى فى حجمـــه

الحقيقى بصفة مستمرة .. دراسة أساسها الانفتاح وليس الأمن .. الحرية وليس الكبت . وكما قال أحد سياسيى القرن الثامن عشر لرئيس وزراء بريطانيا : « سـيدى .. تستطيع أن تعطى هذا البلد اى شىء .. تعطيه برلمانـا فاسـدا .. تعطيه حكومة جشعة .. تعطيه أميرا طاغيـا .. تعطيه قضـاء عاجزا .. ولكن ، اعطنى أنا صـحافة حرة . بهذه الصحافة .. سـوف أصحح لك كل هذا ، وأكثر » .

عزيزى القارىء ...

الآن بدأت حرية الصـحافة .. دعنا نأمل فى ما هو أكثـر .

محمود عوض

خفايا حرب الشرق الأوسط

◇ أندريه دويتش

هـذا الكتاب ..

وهـذا المؤلف

● هذا هو أول كتاب أجنبى يصدر عن حرب أكتوبرسنة ١٩٧٣ .

الكتاب انجليزى ، أصدره « أندريه دويتش » فى لندن . .مستعينا فيه بأقوال وشهادات وتقديرات مئات العسكريين فى مصرواسرائيل .. خلال رحلات عديدة الى جبهتى القتال أثناء الحرب . .بالاضافة الى تحليلات خبراء الاستراتيجية والحرب فى لندن ، وباريس . وواشنطن . رحلات وتحليلات وصلت بحجم الكتاب الى تسعين الف كلمة فى لغته الانجليزية .

هـذا عن الشـكل ..

أما عن مضمون الكتاب نفسه .. فإن أشياء أخرى كثيرة ، لابد أن نلاحظها لأول وهلة .

فمن الناحية المبدئية يسلط هذا الكتاب الضوء على نقطة جوهرية للغاية ، تضيف رصيدا ضخما الى ما حققته العسكرية المصرية فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ . هذه النقطة هى : ان مصر واجهت معركة أخرى أساسية قبل أن يبدأ القتال الفعلى على رمال سيناء . ففى التحضير للحرب .. لم تكن عيون اسرائيل هى وحدها التى ترصد كل استعداد وتسجل كل تحرك فى الجانب الغربى .. بل ان عيون

وأجهزة ومخابرات الولايات المتحدة نفسها كانت تعمل هى الأخرى فى نفس الاتجاه — ولحساب اسرائيل . لقد كانت مخابرات اسرائيل تتجسس .. ومخابرات أمريكا تتجسس ... ثم يتبادل الاثنان معلوماتهما .. ثم يعيدان جمع وفحص وتحليل المعلومات أولا بأول بهدف رصد أول بادرة عربية توحى بالاتجاه الى الحرب .

وفى الجانب المقابل.. فان مصر أو سوريا لم تتمتعا بميزة مساوية على الاطلاق . لقد كان على كل منهما أن يعتمد على نفسه تماما .. فى مواجهة هذا التحالف الباتر بين جهازى المخابرات لاسرائيل وأمريكا .

لقد كانت تلك معركة أخرى .. وكان لابد أن ننتصر فيها أولا — كشرط جوهرى يسبق الذهاب الفعلى الى ميدان القتال . وتلك هى أول نقطة يسجلها لنا هذا الكتاب .

نقطة أخرى : انه لأول مرة نجد مؤلفين عسكريين غربيين لايأخذون بآراء اسرائيل على علاتها . لقد تطلب اعداد هذا الكتاب رحلات عديدة الى جبهات القتال ، وأحاديث كثيرة مع المسئولين — مصريين واسرائيليين . وطوال صفحات الكتاب ، فان المؤلف لم يناقض فى حرف واحد ما قاله المصريون .. ان أقوال المصريين هنا تتساوى مع ما حدث فعلا فى ميدان القتال حتى فيما يتعلق بمسألة «الثغرة» التى فتحتها اسرائيل على الضفة الغربية لقناة السويس . وربما لاتكون مصر قد شرحت بالتفصيل أسباب ما حدث .. ولكنها — وهذا هو المهم — لم تقل أى شىء يناقض ما حدث .

وفى نفس الوقت يسجل هـذا الكتاب أن هذا لم يحـدث على الجانب الاسرائيلى . ان الكتاب يسجل متناقضات كثيرة ... منها مثلا ما يتعلق بمدى مناعة خط بارليف .. ومنها ما يتعلق بالسلاح السرى الأخير الذى كانت اسرائيل تحتفظ به فى هذا الخط .

نقطة ثالثة : ان الكتاب فى تحليله لمسألة « الثغرة » الاسرائيلية .. يقرر حتى النهاية أنها كان لابد ان تفشل عسكريا . واذا كنا نحن قد قبلنا بعد حرب ١٩٦٧ المهينة أن نستمع من العالم الى انتقاداته اللاذعة لعجزنا .. فلا أقل من أن نستمع من العالم فى هذه المرة ـــ والاختلاف ضخم فى هذه المرة ـــ الى تفسيراته لنواحى قصورنا . فى حرب ١٩٦٧ كنا عاجزين .. وفى حرب ١٩٧٣ ، كنا مقـــاتلين .

هنا بالضبط نصل الى الملاحظة الاساسية على هذا الكتاب : كفاءة المقاتلين .

لقد هيأت السياسة فى هذه المرة فرصة متساوية ـــ أمام المقاتل العربى لكى يخوض حربا متعادلة . حربا .. دخلها بغير يد مغلولة وعقل مشلول . وكانت النتيجة هى أنه قاتل ـــ بشرف، وبشجاعة، وبموهبة ، وبعلم ، وفى كل الحالات : بفدائية .

وتلك نقطة خطيرة يسجلها هذا الكتاب . ففى هذه المرة يتحدث العالم عن سلاح ضد سلاح .. وارادة ضـــد ارادة .. ومقاتل ضد مقاتل . فى هذه المرة يسجل الكتاب ان هناك قتيلا مصريا سقط .. ولكنه قبل ذلك يكون قد سجل أن هناك عشرة اسرائيليين من القتلى قد سقطوا امامه .

وتلك هى الحرب .

بل انه ، حتى فى حديث هذا الكتاب عن « الثغرة » الاسرائيلية .. فأنه يسجل أن المقاتل المصرى استـــطاع ـــ حتى الدقيقـــة الأخيرة ـــ أن يلقن الجيش الاسرائيلى درسا لن ينساه . ربمـــا

فاتته أشياء .. ولكنها فاتته وهو مقاتل بضراوة .. ومناطح بعناد .. ومتقدم بجسارة .

ان مثل هذا المقاتل لا يعيبه أن يخسر نقطة .. ويكسب نقطتين .

و .. نحن خسرنا نقطة ..

ولكننا كسبنا مئات النقط . كسبنا — على الأقل — احترام العالم لنا ، وكسبنا — وهذا هو الأهم — احترامنا لأنفسنا .

بعدها أتركك — عزيزى القارىء — مع أول كتاب عن حرب اكتوبر . كتاب « نظرة على حرب الشرق الأوسط » .. لأندريه دويتش ●

ان مركز العمليات المصرى مدفون بعمق على حدود القاهرة . ان صحفيا مصريا كان قد زاره أثناء الحرب سجل له هذا الوصف فى دفتر مذكراته : « سيارة جيب عسكرية ... واقفة أمام تل من الرمال ، وفتحة فى تل الرمال . فى النهاية باب حديدى كأنه باب خزانة ضخمة ، ثم ممر طويل ، ثم سلالم تنزل فى الأرض وتنزل ، ثم باب حديدى آخر وممر طويل .. فى نهايته باب حديدى ثالث ، ثم ينفسح المكان فجأة : قاعات اجتماع غرف عمليات ، مراكز اتصالات ، صالات خرائط ، مكاتب ... » .

ان مكتب الرجل الذى خطط ووجه حرب أكتوبر كان صغيرا ، على بابه لافتة تقول : « وزير الحربية والقائد العام » الفريق ذو الخمسة والخمسين سنة ... أحمد اسماعيل . انه جندى « غرفة الدراسة » اللامع .. الذى أعطاه الرئيس أنور السادات أمرا فى شهر نوفمبر سنة ١٩٧٢ ، وهو : التحضير لاستئناف الاشتباكات .

فى الممر المواجه تماما لمكتب أحمد اسماعيل ، يوجد باب يؤدى مباشرة الى غرفة العمليات الرئيسية : « كانت قاعة كبيرة .. بأضواء باهرة .. ألوانها بالخرائط حية ، والخرائط ليست ألوانا فقط ، ولكنها حركة متدفقة ... حول القاعة مجموعات تمثل قيادات أفرع القوات المسلحة كلها ، كل مجموعة وراءها خرائطها وأمامها أدوات اتصالها بكل الجبهات . فى المكان الرئيسى من الصالة توجد منصة لهيئة القيادة العامة : وزير الحربية والقائد العام

احمد اسماعيل ، رئيس اركان الحرب سعد الدين الشـــاذلى ، ومدير العمليات عبد الغنى الجمسى . فى مواجهة المنصـــة ، على الحائط المواجه ، توجد مجموعة الخرائط الرئيسية التى تبين الموقف العام . انها مرسومة على مسطحات من الزجاج بعرض الصالة كلها .. وهى توضح الموقف فى البر .. والموقف فى الجو .. والموقف فى البحر .. والموقف على الجبهة السورية . ان لمســات ملونة جديدة سوف تضاف الى الخرائط مع تغير الموقف دقيقة بدقيقة . وطوال الوقت ، فان اجهزة الاتصال تدق ، والمشاورات تجــرى بسرعة .... » .

لقد كان هذا مركزا لادارة المعركة . وأثناء عبور القناة ــ الذى سبقه تخطيطه لكل شىء حتى أدق التفاصيل ــ فان هذا المركز كان يعمل بشكل مهيب .. ولم يحدث سوى فى المراحل التالية المائعة من الحرب فقط .. أن ظهرت عيوب هذا البناء القيادى المركزى المتعدد الدرجات .

لقد قال الفريق أحمد اسماعيل : « كان يجب أن ترى هذه القاعة فى يوم « ى » ــ يوم ٦ أكتوبر . كنا جميعا فى مقاعدنا . ان كل مسرح العمليات التى خططناها كان واضحا فى مواجهتنا : مهمة كذا وكذا بدأت .. مهمة كذا وكذا تمت .. أن العمل كان يسير بدقة أكثر مما يستطيع أن يتخيلها اى شخص ــ بكفاءة وجرأة . وكانت هناك لحظات تهز المشاعر الى الأعماق .... » .

ان الرئيس أنور السادات كان ايضا فى مركز قيادة العمليات . لقد قال فيما بعد : « خلال الساعات الثلاث الأولى كان يغمرنى توتر فظيع ، بل اننى كنت متجمدا تقريبا .. لم نكن نعرف ما الذى يملكه الاسرائيليون فى مخازنهم .. وأى اسلحة جديدة يملكونها؟ ولكن .. بعد ثلاث ساعات .. كان واضحا ان الاسرائيليين لم

تتم تعبئتهم ، وأنهم فوجئوا تماما .. وان جنودنا قدعبروا الجوانب الوعرة للقنــاة » .

ان خط بارليف كان يتكون من ثلاثين نقطة اسرائيلية قوية تحرس النقط المحتملة للعبور على قناة السويس . ان اسرائيل تصورت أنه منيع تماما . ان الشاذلى ، رئيس أركان الحرب المصرى ، شرح السبب فيما بعد قائلا : « ان قناة السويس هى مانع مائى فريد بسبب الانحدار الشديد لشواطئها وبسبب أعوجاجها الذى يمنع المركبات البرمائية من النزول الى — أو الصعود من — القناة .. بغير طريق مجهز .. وهذه ظاهرة لا توجد فى أى مكان آخر سوى قناة بناما . وبالاضافة الى ذلك فان العدو قد كوم سدا رمليا يتراوح ارتفاعه بين ثلاثين وستين قدما .. وهذا كله بخلاف دفاعاته فى خط بارليف ... » .

من هذه الدفاعات كان سلاح اسرائيل السرى : كل نقطة قوية تستطيع ان تضخ مائتى طن من البترول والمواد الملتهبة على سطح المياه ، وتشعلها بالنيران .. فتتحول القناة فورا الى خندق من النيران .

وفى مواجهة هذه العقبــات .. فان موشى ديان وزير الدفاع الاسرائيلى تنبأ بأن اى هجوم مصرى عبر قنـــاة السويس سوف يتم القضاء عليه خلال أربع وعشرين ساعة . ان الشـــاذلى قال فيما بعد : « اننى أعتقد أن ديان قد أدلى بهذا التصريح على أساس حسابات بأن مهندسينا سوف يحتاجون الى أربع وعشرين ساعة من أجل اقامة الكبارى والمعـــدات .. وأن المعدات الثقيلة (مثل قوة دبابات مصرية فعلية) لا يمكن أن تعبر القناة قبل ٤٨ ساعة .. مما يسمح بوقت كاف لوصول الاحتياطى الاسرائيلى المدرع من العمق الى الجبهة » .

وفى يوم السبت ٦ أكتوبر — وخلال عشر ساعات فقط — أظهرت مصر كيف أن استراتيجية اسرائيل الدفاعية المنيعة يمكن تحطيمها بأسلحة مبتكرة وعصرية .

ففى منتصف ليلة السبت ، بعد عشر ساعات من الحرب ، كانت مصر قد حطمت خط بارليف .. ودمرت أكثر من مائة دبابة اسرائيلية .. وحشدت على الشاطىء الشرقى خمسمائة دبابة . وشبكة صواريخ كاملة . ان هذا الانجاز العسكرى الهائل وغير المتوقع .. أعطته مصر اسما رمزيا هو « عملية بدر » .

ان فشل اسرائيل المريع فى التنبؤ بحرب أكتوبر له ثلاثة أسباب رئيسية . السبب الأول .. عملى . فطوال السنوات الأربع الماضية .. ركزت أجهزة المخابرات الاسرائيلية على مقاتلة الفدائيين الفلسطينيين و — بالتحديد — عملياتهم بالخارج . ولكن الطاقات البشرية الاسرائيلية نادرة . وللقيام بهذه المهمة .. كان على اسرائيل أن تسحب — من مصر وسوريا أساسا — جزءا كبيرا من عملائها الذين يقومون بأعمال المخابرات السياسية . أن القحط الناتج عن ذلك فى المخابرات السياسية أدى باسرائيل الى ما أسماه دبلوماسى بريطانى فيما بعد بأنه « حالة كلاسيكية » من فهم المخابرات لقدرات عدو .. ولكن عدم فهم لنواياه » .

ان هذا التسلط — والكلمة هنا ليست شديدة القوة — من الفلسطينيين على التفكير الاسرائيلى . أدى أيضا الى السبب الثانى والأعمق للعجز الاسرائيلى . انه عبارة عن عجز كامل عن ادراك أن العرب قد يستخدمون كلا من حرب الارهاب والحرب التقليدية . ان موشى دايان وزير الدفاع الاسرائيلى .. وكذلك رؤساء أركان الحرب المتتابعين .. كلهم كرروا اقتناعهم الاحتقارى

من أن العرب قد تم تخفيضهم الى مستوى الارهاب العشوائى لأنهم ـ بالضبط ـ لا يجرؤون على مواجهة اسرائيل فى ميدان القتال .. وحتى غاراتهم التى كانوا يقومون بها عبر الحدود .. قد انتهت .

ان الفلسطينيين أصبحوا ـ حتى ـ هم المسئولين عن السبب الثالث والأكثر اثارة للسخرية فى فشل اسرائيل . ان المخابرات الاسرائيلية قد تنبأت بنشوب حرب فى سنة ١٩٧٣ ، ولكنها قدرت انها على وشك أن تنشب فى شهر مايو ـ كنتيجة لأعمال الفلسطينيين . وهكذا .. بعد أن أصابها شبح الفلسطينيين بالعمى .. فان اسرائيل تجاهلت الخطوات السريعة للاستعدادات العربية .

ان الرئيس أنور السادات أقر دائما ضرورة الحرب . وكما شرح هو مؤخرا ـ فى نطاق محدود وبقدر كبير من الصراحة ـ فانه قال : « من يوم أن تسلمت الرئاسة بعد وفاة الرئيس جمال عبد الناصر (٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠) فاننى كنت أعرف اننى يجب أن أحارب . أنها تركتى .. » .

ان السادات كان راغبا فى اعطاء فرصة للعمل الدبلوماسى . وهو يقول فى هذه النقطة : « كانت لدى آمال ضئيلة فى وزير الخارجية (الأمريكى) روجرز خلال سنتى ١٩٧٠ و ١٩٧١ (كانت خطة روجرز هى محاولة أمريكية لتسوية النزاع) . ولكن كل ما فعله هو أنه كان يستخلص منى مزيدا من التنازلات ، بغير أى استجابة واحدة من الاسرائيليين » ان تزايد ونمو العلاقات الأمريكية مع روسيا أزاح واحدا آخر من أسلحة السادات . لهذا يقول هو : « كان واضحا ان الهدنة ـ حالة لا سلام ولا حرب ـ تناسب القوتين الاعظم . لقد كان هناك نوع من الاتفاق

بينهما على مستوى امدادات السلاح » . وفى النهاية .. كان ادراك السادات الأخير .. هو أنه حتى قدرته على استغلال المنافسة والتناقض بين القوتين الأعظم .. هو عامل مساعد يتضاءل بسرعة . مما أقنعه بأنه ليس أمامه من اختيار سوى الحرب .

ويقول السادات : « اننى ذهبت الى موسكو فى ربيع سنة ١٩٧٢ (٢٧ — ٢٩ ابريل) .. وأخبرت مستر بريجنيف أنه من الضرورى بالنسبة لنا أن نحارب يوما ما . لم يكن هناك بديل لذلك ، ان برجنيف قال لى انه لا يريد مواجهة بين القوتين الأعظم » .. وهكذا .. اصبح السادات يفكر فى أسس محددة لحرب جديدة . وعلى حد تعبيره : « ان الروس كانوا يراوغون طوال صيف وخريف سنة ١٩٧٢ . لقد قالوا انهم ينتظرون الانتخابات الأمريكية فى شهر نوفمبر » . انهم لن يعطوا للسادات أسلحتهم المتطورة ، ولكنهم يرغبون فى البقاء بمصر : « ان الروس شعروا بأن لهم وجودا على ارضنا ، حتى لو ابتعدوا عن الطريق » . وفى ٢٧ يوليو سنة ١٩٧٢ طردهم السادات : « اننى طردت الروس لكى أعطى لنفسى حرية كاملة فى المناورة . ولكن بعضهم عاد من أجل مهمة — تتم فى الصحراء بعيدا عن قناة السويس بمسافة كبيرة — تعليمنا كيف نستخدم الصواريخ الجديدة ، خصوصا صواريخ سام ، ضد الطائرات » .

ولكن ، وهذا هو الأمر المثير للسخرية ، كان الحذر المستمر من جانب الروس هو ، طبقا لما قاله ، الذى عجل بحرب أكتوبر . ان الرئيس السادات يقول : « بعد انتخابات نوفمبر ، عادنا مستر نيكسون .. وتلقيت خطابا من مستر بريجنيف يقول فيه أنهم يرغبون فى تدعيم سياسة من الوفاق .. وهم ينصحوننى بأن أقبل هذا الموقف . لقد قالوا انهم لا يستطيعون أن يقوموا بزيادة

امدادات السلاح المعتادة . لقد عقدنا اجتماعا لمجلسنا الأعلى هنا فى القاهرة ــ ورفضنا هذا . (فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٧٢ تحدث السادات فى اجتماع مغلق للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى) . ومن تلك اللحظة .. بدأنا التخطيط لهجوم ٦ اكتوبر ».

ولكن .. أى نوع من الحرب ؟

ان الفريق أحمد اسماعيل قرر فى نهاية سنة ١٩٧٢ ان مجرد استئناف ضرب المدفعية والمبارزة الجوية ، التى ميزت حرب الاستنزاف فى سنتى ١٩٦٩ و ١٩٧٠ سوف يكون أمرا فادح الاضرار . انه كان يرى أن « أى محاولة من جانبنا لأن نفعل ذلك سوف يقابلها رد فعل أكثر عنفا من جانب اسرائيل .. أكبر من الأهمية السياسية والعسكرية لأى عمل نقوم به » . وهكذا .. فانه وافق على الآراء التى تمسكت بها هيئة أركان الحرب طويلا : أن الوسيلة لضرب اسرائيل لا تكون بتقليد تكتيكاتهم التى تعتمد على الضربات الخاطفة ، وكن بشطرهم فيما أسماه الشاذلى بحرب على أسلوب « مفرمة اللحم » .

مع نهاية يناير سنة ١٩٧٣ ، وبعد أسابيع من المفاوضات،بدت سوريا مستعدة للاشتراك فى المشروع . وهنا يقول الفريق أحمد اسماعيل : « كانت فكرتى الثابتة هى أننا يجب أن نقوم بضربتنا من جبهتين » . ان مقر أحمد اسماعيل فى وقت السلم هو مجمع صغير من المكاتب المتواضعة .. يحيط بها سور يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام ، فى شارع ٢٣ يوليو بضاحية العباسية بالقاهرة . وفى وقت ما من مطلع شهر فبراير ، بدأ الأربعون مصريا فى هيئة التخطيط العسكرية .. فى الاستعداد .

ان المبادرة الدبلوماسية الأخيرة ، والموازية ، وصلت الى قمتها أيضا فى شهر فبراير سنة ١٩٧٣ . ان حافظ اسماعيل مستشار

السادات للامن القومى — وهو أقرب معادل مصرى لهنرى كيسنجر .. بالرغم من أنه لا يمكن الذهاب بالمقارنة بعيداً — طار فى رحلة شملت موسكو ولندن والأمم المتحدة وبون .. وبالاضافة الى ذلك ، ذهب محمد الزيات وزير خارجية مصر الى نيودلهى وبكين .

وفى ٢٣ فبراير ، اجتمع حافظ اسماعيل بالرئيس نيكسون فى البيت الأبيض . ان نيكسون تحدث عن رغبة أمريكا فى أن تبدأ المفاوضات . أن حافظ اسماعيل وصف تلك المفاوضات فيما بعد بأنها كانت « حارة ومثمرة » . ولكن ، فى أول مارس تحدثت جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل بدورها مع نيكسون . ان زيارتها لأمريكا تلاها خلال أسبوعين صدور بيان بأن الولايات المتحدة سوف تمد اسرائيل بمزيد من طائرات الفانتوم — ٤٨ طائرة هذه المرة . لقد كان هذا تأكيداً نهائياً بأن نيكسون — بعد اعادة انتخابه — لن يغير سياسته .

وفى شهر مارس ١٩٧٣ بدأ السادات فى بناء استراتيجية سياسة مشتركة مع سوريا . لقد كانت المشكلة هى أن سوريا مازالت تتحدى مفهوم وجود دولة يهودية ، ومن ثم فان القرار الأساسى والأكثر اهمية الذى يجب أن تتفق عليه مصر وسوريا هو : حول أى شىء تكون الحرب — وجود اسرائيل .. أم مجرد استعادة الأراضى المحتلة ؟ (لأن سوريا والاردن — طبعا — فقدتا أيضا أراضى فى حرب ١٩٦٧) . وكانت هناك مشكلة اخرى .. هى أن مصر وسوريا ليست لهما علاقات دبلوماسية مع الاردن .. بينما تمثل اعادة الاردن الى الصف العربى مهمة أساسية ..

وفى يومى ٢١ و ٢٢ ابريل اجتمع رؤساء أركان حرب الجيوش العربية فى القاهرة لدراسة موقف اسرائيل العسكرى . ان الفريق

أحمد اسماعيل صاغ مؤخرا النتائج التى توصل اليها بقوله : « أن تقديرى كان هو ان اسرائيل تملك أربع ميزات اساسية : تفوقها الجوى .. مقدرتها التكنولوجية ... تدريبها الكفء والدقيق .. ثم اعتمادها على المعاونة السريعة من الولايات المتحدة ، مما يضمن لها ... تدفقا مستمرا من الامدادات . ولكن هذا العدو له ايضا عيوب اساسية : ان خطوط مواصلاته طويلة وممتدة الى جبهات عديدة .. مما يجعل الدفاع عنها صعبا . ان موارده البشرية لا تسمح له بتحمل خسائر كبيرة فى الأرواح . ان ظروفه الاقتصادية تمنعه من قبول حرب طويلة . أنه ــ فوق ذلك ــ عدو يعانى من مساوىء الغرور الفاحش » .

ولكى « نستغل نقط الضعف هذه » ، فلابد من ارغام العدو ــ هكذا يقول أحمد اسماعيل ــ على أن يوزع هجماته على مساحات عريضة . ولكن هذا يقوم أيضا على أساس افتراض وجود استراتيجية عربية مشتركة تسمح بالضغط على جبهات عديدة . وفى اجتماع شهر ابريل ، كان تحقيق الوحدة .. مازال بعيدا عن الضمان . وكما أعلن اللواء الشاذلى رئيس الأركان المصرى عند مغادرته المؤتمر : « ان وجود بعض المشاكل السياسية والعسكرية يمنع العمل المشترك » . وسرعان ما أكدت احدى المشاكل نفسها بقوة . ففى الثانى من شهر مايو انفجر قتال عنيف بين الجيش اللبنانى وبين المقاومة الفلسطينية .

ان الذى أشعل ذلك القتال كان عملا اسرائيليا . ففى العاشر من ابريل ، قامت قوة كوماندوز اسرائيلية ، يرتدى أفرادها الملابس المدنية ، باغتيال ثلاثة من الزعماء البارزين للمقاومة الفلسطينية. ان الحكومة اللبنانية سرعان ما سقطت . وفى ٢ مايو ــ أساسا بسبب القدر الكبير من تراخى الجيش أثناء الغارة ــ انفجرت حرب اهلية مصغرة فى لبنان . لقد استمرت تسعة أيام . وقد تصورت

المخابرات الاسرائيلية انهـــا سوف تمتد الى خـــارج لبنان . ان اسرائيل ، يدفعها شعور عصبى بسبب أحاديث السادات التى يتنبأ فيها بالحرب ، خشيت من أن تكون سوريا على وشك التدخل الى جانب المقاومة فى لبنـــان . ان هـــذا ـــ كشىء على الطراز البلقانى ـــ يمكن أن يجذب فى الواجهـــة دولا عربية أخرى حـــول اسرائيل . مواجهة سوف تنسكب حتما فى داخل اسرائيل نفسها . ان السوريين استعدوا .. هذا مؤكد . ولكن القوات الاسرائيلية وضعت فى حالة تأهب .. ثم قامت بمناورات واضحة على مرتفعات الجولان .

لقد كان هذا انذارا مزيفا .. ولكنه يضىء المشاكل التى سوف تضلل اسرائيل بعدها بأربعة شهور فقط . فطبقا لأقوال « دافيد اليعازر » رئيس أركان الحرب الاسرائيلى . فان انذار شهر مايو قام على أساس وجود اشارات لاستعدادات الحرب العربية أكثر اقناعا من الاشارات التى قامت مؤخرا فى الصيف . ان اعلان حالة التأهب كلف اسرائيل أربعةملايين ونصف مليونجنيه استرلينى .. وهو مبلغ تستطيع تحمله بصعوبة .. كما أن هذا يمكن اعتباره عاملا وراء تبرم اسرائيل من تدمير الاقتصاد بتعبئة الاحتياطى خلال الموجة التالية من اشارات الخطر .

وبالنسبة لأمريكا ، الضامن النهائى لاسرائيل ، كان شهر مايو شهرا حرجا بالنسبة لاستعدادات الحرب . ان جهاز المخابرات الأمريكى يضم وكالات عديدة مستقلة ومتداخلة وغالبا متنافسة .. ومن بينهـــا وكالة المخابرات المركزية الأمريـــكية .. التى هى أكثر الوكالات لفتا للانظار . ان أصغر هذه الوكالات هو مكتب وزارة الخارجية للمخابرات والبحوث .. الذى يقترب من عمل الوكالات الأخرى .. ولكن بغير عملاء خاصين به . ان عمل المكتب هو التحليل .

وبعد أزمة شهر مايو ، وتقدم استراتيجية السادات ، أعد محللوا المكاتب تقريرا وضعوا فيه تقديراتهم البعيدة المدى عن الشرق الأوسط . لقد تنبأوا بالحرب فى الخريف . ان وكالة المخابرت المركزية الأمريكية وافقته على ذلك ، بالرغم من أن تقديرها للتاريخ كان أكثر غموضا .

ويبدو أن أحد العوامل خلف هذه التقديرات .. كان الثقل الاجمالى للتسليح الذى أصبح العرب ــ خصوصا سوريا ــ يحصلون عليه من روسيا . ان الشحنات الروسية من دبابات « ت ــ ٦٢ » الى مصر وسوريا فى الربيع لم تكن تدعو للقلق . ولكن فى ٣ مايو قام الرئيس السورى حافظ الأسد برحلة الى موسكو استغرقت أربعا وعشرين ساعة . انه عاد بوعد روسى لامداده بنظام كامل للدفاع الجوى يعتمد على صواريخ سام ... بالاضافة الى أربعين طائرة « ميج ٢١ » أخرى . وبصفة عامة .. فطبقا للتقديرات الامريكية .. فان روسيا أمدت سوريا خلال النصف الأول من سنة ١٩٧٣ بأسلحة تبلغ قيمتها ١٨٥ مليون دولار ــ أى أكثر من قيمة الأسلحة التى حصلت عليها سوريا خلال سنة ١٩٧٢ بمبلغ خمسة وثلاثين مليون دولار .

وبينما كان يتم اعادة تسليح سوريا .. استمرت المفاوضات السياسية مع مصر حول الوصول أى استراتيجية مشتركة . وأخيرا ، فى ١٢ يونيو .. وأثناء اجتماع تم فى دمشق ، استطاع انور السادات أن يقنع حافظ الأسد بقبول هدفه وتحديد أهداف سوريا من الحرب .

وفى النهاية ، حدد ضباط التخطيط فى القاهرة موعدا للحرب . ان الساعة المحددة للهجوم كانت محل جدل مع سوريا حتى اليوم الثانى من شهر أكتوبر . (حينما طار أحمد اسماعيل بنفسه الى

سوريا لكى يحل المسألة) . ان الفريق أحمد اسماعيل يشرح فيما بعد قائلا : « لأسباب عديدة ، أكثرها أهمية هو أن تكون الشمس فى مواجهة العدو .. فان السوريين فضلوا أن تبدأ الحرب مع أول ضوء للفجر .. ولكن لأسباب عديدة أيضـــا ، ليس فقط اتجاه الشمس .. ولكن الحـــاجة الى اقامة الكبارى وتحريك الدبابات عبر القناة فى ظلمة الليل ـــ فاننا فضلنا أن نعمل عند الغروب » . ان أحمد اسماعيل ـــ باعتباره القائد العام للجبهتين ـــ قدم الموعد الى وقت وسط ومشترك .. هو الثانية بعد الظهر .

ان تاريخ السادس من أكتوبر الذى تم تفضيله كان ـــ من ناحية اخرى ـــ قد تقرر بواســـطة المصريين فى وقت مبكر من مراحل التخطيط . ويقول الفريق أحمد اسماعيل : « قبل أن تبدأ الحرب بشهور كان هناك الاعتبار العام .. من أنه لابد أن يتحرك الموقف من وجهة نظر التقدير السياسى سنة ١٩٧٣ بعد وصول التأييد العربى والعالمى لنـــا فى كل المجالات الى الذروة العالية . وبتحديد أكثر ، فاننا كنا نحتاج الى ما يلى : أولا ـــ ليلة قمرية يتصـــاعد فيها القمر معنا فى الساعة الحاسمة . ثانيا ـــ ليلة يكون فيها تيار المياه بالقناة مناسبا لعمليات العبور من نحية السرعة . ثالثا ـــ ليلة يكون عملنا فيها بعيدا عن توقعـــات العدو . رابعـــا ـــ ليلة لا يكون فيها العدو نفسه مستعدا للعمل . ان هذه الاعتبارات المحددة هى التى جعلتنا نختار يوم ٦ اكتوبر . ففى هذا اليوم ـــ كما دلتنا الحسابات الفلكية ـــ سوف يكون هناك ظهور مبكر لضوء القمر واختفاء مبكرا له . ان علماءنا فى القوات المســـلحة درسوا تقارير هيئة قناة السويس لسنوات طويلة سبقت لكى يحسبوا سرعة التيارات فى كل يوم من أيام السنة ، وكان ٦ أكتوبر أكثرها مناســـبة . وبالاضافة اى ذلك فان الاسرائيليين لن يتوقعوا أى عمل من جانبنا خلال شهر رمضان . ومن جانبهم ، سوف يكونون

هم مشغولين بعدد من الأحداث .. من بينها الانتخابات العامة القادمة » . (ان أحمد اسماعيل لم يسلم ابدا بهذه الحقيقة .. ولكن من الواضح أنه اختار يوم كيبور — اقدس يوم فى السنة اليهودية — وهو أفضل اختيار يخدم فرصته) .

وكانت هناك جاذبية تاريخية اخرى ليوم ٦ اكتوبر بالنسبة للعرب . انه فى سنة ١٩٧٣ سوف يكون اليوم العاشر من شهر رمضان . ولكن فى ذلك اليوم سنة ٦٢٣ ميلادية ... بدا النبى محمد استعداداته لمعركة بدر ، التى ادت بعدها بعشرة أعوام الى دخوله مكة مظفرا .. وبدئه فى نشر الاسلام . ومن هنا كان اختيار اسم « بدر » كاسم رمزى للعملية .

مع ذلك فانه بينما كان التخطيط العسكرى يتقدم — فان السادات كان مايزال عليه أن ينجح فى الهدف الآخر لاستراتيجيته السياسية وهو : التودد الى الملك حسين . ان هذا لم يكن سهلا . ان هناك بعض الأدلة على وجود محاولة مبكرة لمفاتحة حسين ، عن طريق فيصل ملك السعودية .. الذى كان هو الوسيط الرئيسى والسرى طوال كل المراحل — ولكن حسين رفضها . وفى يوم ١٣ مايو أرسل حسين بمذكرة سرية الى ضباط جيشه ، قال فيها : « من الواضح اليوم أن الدول العربية تستعد لحرب جديدة .. ان المعركة سوف تكون قبل أوانها » .

ولكن السادات اتخذ الحيطة : ان القيمة الاستراتيجية لحرب يتم شنها ضد اسرائيل من ثلاث جبهات تستحق ان يجرب . لقد كانت الأردن مستعدة لاستئناف العلاقات الدبلوماسية . ومرة أخرى ، كان موقف الملك فيصل دقيقا .. ففى ٢٨ يوليو ، ذهب رئيس الوزراء الأردنى للتحدث معه لمدة ١٢ ساعة . ثم حدث فى ٦ اغسطس بينما كان الشاذلى رئيس أركان الحرب المصرى فى دمشق يهذب تكتيكات الحرب مع سوريا — أن وصل مبعوث من

السادات الى العاصمة الأردنية وغادرها بعدها بأربعة أيام .. فى صحبة عبد المنعم الرفاعى مبعوث الملك حسين .. لرؤية الرئيس السورى حافظ الأسد فى دمشق .

ان الطريق أصبح ممهدا الآن للوصــــول الى اجتماع قمة . والآن ايضا ، أصبح ممكنا أن تبدأ محادثات عسكرية مع الأردن . وهكذا ، وصل وزير الدفاع السورى مصطفى طلاس الى عمان فى ٢٩ أغسطس .

وحينما طار الملك حسين والرئيس حافظ الأسد الى القاهرة فى العاشر من سبتمبر لعقد اجتماع قمة مع الرئيس الســــادات .. امكن التغلب على معظم الاختلافات الدبلوماسية والعسكرية . لقد اعيدت الأردن الى التحالف .. ووافقت سوريا على أهداف محددة للحرب . وفى مقابل ذلك ، وعد الســــادات بالاسراع فى الاعداد للحرب . انه كان يستطيع اعطاء هذا الوعد فقط لأنه قام بترميم العلاقات مع روسيا . فاعتبــــارا من شهر ابريل ، كان القـــــادة المصريون يقرون مرة اخرى بأن روسيا استأنفت بنــــاء القوات المسلحة المصرية . ان مصر ، مثل سوريا ، بدأت تحصل على الدبابات والصواريخ والطائرات ومعدات روسية للعبور ، ومن سبعين الى ثمانين فنيا لقواتها ..

ان الهدف الأساسى للحرب ، بعد التصديق عليه من اجتماع قمة القاهرة ، كان حلا نهائيا للمواجهة مع اسرائيل التى استمرت خمسا وعشرين سنة ، ان هذا يمكن تحقيقه باثارة أزمة تجـــد القوتان الأعظم نفسيهما خلالها مضطرتين الى التورط ـــ وبعدها التمكن من جعلهما تمارسان الضغط على اسرائيل للحصول على تنازلات منها . (لهذا السبب ، فبينما العملية العسكرية سميت بدر ، فان السادات أعطى لاستراتيجيته السياسية الأكثر شمولا .. اسما رمزيا هو « عملية الشرارة » ..) .

ومن الناحية العسكرية ، كانت الأهداف هى استعادة الأراضى المصرية والسورية والأردنية التى تحتلها اسرائيل . مع ذلك ، فحتى هذا يجب أن يتم تحقيقه على مرحلتين ، فبينما يمكن أن تكون سوريا قادرة على استعادة خسارتها المحدودة فى الجولان ..لم تكن لدى السادات نية ترك جيشه يتفكك من الخلف فى سيناء . أن مهمة حسين هى أن يفرض مجرد تهديد بفتح جبهة ثالثة مع اسرائيل .. ومن ثم يضطر بعض القوات الاسرائيلية الى المرابطة على حدوده .. وايضا يمنع اى احتمال لشن هجوم جانبى اسرائيلى فى جنوب سوريا عبر الأردن . ان باقى سيناء والضفة الغربية للأردن سوف تأتى كتنازلات من اسرائيل .. وهكذا .. اذا نجحت « عملية الشرارة » .. يتم حل المشكلة .

ان الاستراتيجية العسكرية التى تمت الموافقة عليها كانت بسيطة للغاية .. ان اسرائيل سوف تتعرض الى حرب استنزاف باسلوب « مفرمة اللحم » . واذا فشلت القوتان الأعظم ، فان العرب سوف يستمرون لأسابيع ، بل ولشهور ، الى أن تضطر اسرائيل الى التسوية .. عن طريق انهاكها بالخسائر فى الامداد والأرواح .

ومع ذلك فبقدر معلوماتنا ، فقد انتهى اجتماع القمة فى ١٢ سبتمبر .. تاركا القرار النهائى الخاص بالذهاب الى الحرب .. للرئيس السادات .. ومن المؤكد انه فى هذه المرحلة لم يتم اخبار الأسد وحسين بالتاريخ المحدد لبدء الهجوم .. وطبقا لتصريحات احمد اسماعيل وزير الحربية المصرى ، فان معرفة هذا السر كانت محصورة فى السادات وضباط أركان حربه . وكان السادات مايزال يريد أن يترك اختياراته النهائية مفتوحة .

وفى اليوم التالى .. قامت اسرائيل بتسوية المسألة .

ان مسألة ما اذا كانت اسرائيل قد قصدت أن تدخل فى حرب مع سوريا .. هى شىء غير واضح . ان رئيس هيئة أركان الحرب

الاسرائيلى أصر فيما بعد على أن المعركة « لم نكن نحن البادئين بهـــا » . وربما يكون هذا صحيحا . ولكن .. ماذا كانت تفعل أربع طائرات اسرائيلية مقاتلة ، وهى تســتطيع عبر البحر الأبيض بالقرب من ـــ أن لم يكن فى داخل ـــ المجال الجوى السورى ؟ ان اسرائيل قالت انها كانت دورية روتينية . ومن ناحية أخرى ، كانت هذه حيلة لجأ اليها السلاح الجوى الاسرائيلى من قبل كثيرا.

ان ما حدث هو أن قوة من طائرات الميـــج السورية هبت لكى تعترض الطائرات الاسرائيلية . ان ما حـــدث بعد ذلك هو محل للجدل مرة اخرى لقد ادعت اسرائيل انه كان عليها ان ترســـل تعزيزات . ولكن تقارير اخرى تؤكد بأن التعزيزات كانت تنتظر فعلا ـــ فى كمين جوى ـــ مختبئة فوق السحب . ان كل ما هو مؤكد .. هو أنه فى الاشتباك الجوى الناتج عن ذلك ، أسقطت ثمانى طائرات سورية ، ومن المحتمل انها ١٣ ، مقابل طائرة اسرائيلية واحدة .

واذا كانت تلك « لحظة أنس » اسرائيلية .. أو لحظة فراغ يتسلى فيها الاسرائيليون ـــ لمجرد تذكير العرب بالقوة الاسرائيلية فى أعقاب اجتماع القاهرة .. فان دويها كان مخيفا .. لأن مصادر ممتازة فى القاهرة تدعى أنه بعد هذه المعركة طلب الرئيس حافظ الأسد الرئيس السادات تليفونيا لكى يحثه على أن الوقت قد حان للعمل . ان السادات وافق على ذلك .. وأعطى الأمر بتنشـــيط « عملية بدر » .

من تلك اللحظة . بدأ العد التنازلى نحو الحرب .

وحينما بدأ حشد المعدات والأسلحة المصرية فى الأسبوع الأخير من شهر سبتمبر .. لم ينزعج من الاسرائيليين سوى عدد قليل. فلمدة عشر سنوات سابقة ـــ فيما عدا سنة ١٩٦٧ .. حيث كان

القتال دائرا ــ كان الجيش المصرى يقوم بمناوراته السنوية كل صيف . ومن الصحيح والثابت أنه خلال السنتين أو السنوات الثلاث السابقة . . كانت المناورات والتدريبات الأخرى يبدو عليها التركيز على القناة . ولكن القادة الاسرائيليين رفضوا ادراك معنى التدريبات والتحصينات والمتاريس الجديدة ، التى أقامها المصريون طوال الأشهر التسعة السابقة . أنها جميعا لمجرد تضييع وقت الجنود المصريين وشغلهم ــ هكذا قال الاسرائيليون .

ولكن ، فى حوالى ٢٤ سبتمبر ، قدرت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أن هذه هى أول تدريبات يقوم فيهـا الجيش المصرى بالمناورة فى تشكيلات كبيرة بحجم فرقة كاملة ــ أنهم أيضـا ــ المصريون ــ يختزنون ذخيرة أكثر من ذى قبل ، ويجمعون أكبر وأطول خطوط امداد تموين تمت رؤيتها . والأكثر اثارة للقلق بين هذا كله . . هو انهم يقيمون جهاز مواصلات ميدانية أكثر تعقيدا مما تحتاجه أو تبرره مجرد تدريبات . (ان اختبار هذه الشبكة من الاتصالات قد تم التقـاطه بواسطة جهـاز التجسس الالكترونى الأمريكى : وكالة الامن القومى . . الذى يتصنت من قاعدة سرية للغاية فى جنوب ايران على اتصالات الراديو السياسية والعسكرية فى منطقة الشرق الأوسط) .

وبمجرد أن علمت أمريكا بذلك . .تم تحذير اسرائيل . وبالتحديد ــ كما تدعى مصادر المخابرات الأمريكية فى واشنطن الان ــ فان الامريكيين سألوا الاسرائيليين « على مستوى عال جدا » عما اذا لم تكن هذه علامة علىاستعدادات عربية هجومية متوقعة ــ عن طريق رجال مخابرات على الاقل ــ منذ الربيع ؟

ان اسرائيل رفضت هذه المخاوف .

وبالضبط ، كمـا حسب مخططو الحـرب المصريون ، فان الاسرائيليين أصيبوا بالحيرة . أن الجندى (الاسرائيلى) العادى

كان أقل اهتماما بالحرب .. منه ببداية موسم مباريات الكرة فى شهر أكتوبر . وبالنسبة للسـياسيين فى القـدس ، فى مواجهتهم للانتخابات فى شهر أكتوبر ، فان المعارك الأكثر الحاحا كانت تلك المتعلقة بالمنشورات المنافسة . وفوق هذا كله .. واجهت الحكومة مشاكل خطيرة محليا ودوليا .. ففى نيويورك بدأت لتوها دورة جديدة للجمعية العامة فى الأمم المتحدة . ولقد كانت اسرائيل متنبهة بالفعل الى أن وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسـنجر قد اقترح استخدام هذه الدورة من أجل تحقيق تقدم نحو تسوية فى الشرق الأوسـط .

وكان الأشد أثرا من هذا .. هو أن جاذبية اسرائيل بدأت تتراجع .. حتى بين يهود العالم . أن هجرة اليهود الغربيين كانت لا شىء تقريبا . وأصبحت اسرائيل معتمدة — فيما يتعلق بالمهـاجرين البيض — على تدفق يهود روسيا . وفى نفس الوقت .. فأنه حتى المساعدات المالية من اليهود الغربيين كانت تحقق ايرادا أقل وأقل من الأرقام المستهدفة شهريا . لقد كان هذا وقتا سيئا . وحتى مع وجود كل هذا فى الحسبان .. فان حماقة اسرائيل فيما يأتى من أحداث .. كان شيئا يصعب تفسيره .

ويبدو أن التحركات السورية الأولى بدأت فى حوالى ٢٤ سبتمبر، أيضا . لم يكن هناك اندفاع درامى الى الجبهة .. بل تحرك يتم بثبات ونظام . أن الدبابات والمدفعية بدأت فى التجمع حول الخطوط المثلثة للدفاع السورى التى تمت أقامتها فى السهول المحصورة بين الجولان ودمشق . أن أحد العناصر الكامنة وراء ذلك التنبيه الأمريكى الاول لاسرائيل .. كان هو الاهتمام باقتران مناورات السويس مع ماتدعى مصادر واشنطن انها قد رأته باعتباره : « شيئا ما .. يثير الشك بدرجة خطيرة .. حول طبيعة اعادة انتشار القوات السورية » .

بعدها بيومين ، كان موشى دايان وزير الدفاع الاسرائيلى ، هو أول من أقر بأن فى الأمر ما ثير الاهتمام . ففى ٢٦ سبتمبر قام موشى دايان بتفقد القوات الاسرائيلية فى الجولان ضمن جولته السنوية فى اليوم السابق على بداية السنة اليهودية الجديدة . أنه أخبرهم بأن : « على طول الحدود السورية ترابط مئات من الدبابات والمدافع السورية داخل نطاق فعال .. وأيضا شبكة مضادة للطائرات .. بكثافة مشابهة لما فعله المصريون على امتداد قناة السويس » .

أن دايان قد أصبح الآن ، وبشكل سرى غالبا ، قلقا بما يكفى لأن يفعل شيئين .

ففى نفس ذلك اليوم ، قام بوضع الجيش فى حالة تأهب على كلتا الجبهتين . وفى وقت ما خلال أيام العطلة الثلاثة .. فانه قام بتعزيز اللواء المدرع فى الجولان بقوات أخرى .. على رأسها واحد من أحسن الوية الجيش الاسرائيلى .. وهو اللواء السابع المدرع . وبالنسبة للقرارات الاسرائيلية المتعلقة بالحرب .. فربما يكون هذا أكثر التحركات الاسرائيلية حسما ودقة . فبغير الأعمال البارعة للواء السابع .. كان من المؤكد أن تخسر اسرائيل المعركة فى الجولان . ومع ذلك فان هذا العمل تم بغير اعلان عنه على الاطلاق.

ولقد كانت المسألة تبدو وكأن اسرائيل تدفع بعيدا بأنباء لا ترغب فيها . أن تحذير دايان من الحشود السورية لم يحظ باهتمام اخبارى كاف . (لم تكن هناك صحف فى الأيام الثلاثة ٢٧ و ٢٨ و٢٩ سبتمبر) . وحينما تدفقت أنباء الطوارىء بعد العطلة .. فانها عولجت بلطف باعتبارها « تمرينا قياسيا خلال موسم الأعياد الاسرائيلية » .. مع تأكيدات اضافية بأن السماح للسياح ما زال مستمرا فى الجولان .

وفى هذه النقطة ، لم يذكر أحد أنه فى اليوم التالى لزيارة دايان للجولان — ٢٧ سبتمبر — أطلق الأمريكيون من قاعدتهم الجوية فى

« فاندنبرج » بكاليفورنيا قمرا صناعيا لجمع المعومات والاستكشاف من طراز « ساموس » .. فى مدار يقع فوق الشرق الأوسط . أن هذا يوضح أن المخابرات الأمريكية قد رأت فى الامر كله ما يستدعى المراقبـــة .

وفى اليوم التالى ــ كان السادات هو نفسه من الطيبة بحيث أنه حــذر اسرائيل . ان ٢٨ سبتمبر كان هو الذكرى الثـــالثة لوفاة عبد الناصر . أن حديث السادات فى هذه الذكرى انتهى بفقرة غريبة ومنذرة . أنه قال : « أيها الاخوة والأخوات .. هناك موضوع ربما تلاحظون أننى لم أتكلم فيه .. وهو موضوع المعركة . ولقد قصدت ذلك قصدا . قد شبعنا كلاما . أريد أن أقول شيئا واحدا . نحن نعرف هدفنا ، ونحن مصممون على بلوغه . وليست هناك جهود لا نبذلها أو تضحيات لا نقدمها لتحقيق هدفنا . لن أعد بشىء ولن أدخل فى تفاصيل أى شىء .. ولكننى أقول فقط أن تحرير الأرض كما قلت لحضراتكم هو المهمة الأولى الرئيسية أمامنا ــ وبعون الله سوف ننجزها وسوف نحققها وسوف نصل اليها ــ هذه ارادة شعبنا وهذه ارادة أمتنا .. بل هى ارادة الله » .

ان ما حدث بعد ذلك كان ــ ربما ــ ضربة من سوء الحظ . ففى نفس هذا اليوم ــ قام رجـــلان عربيان مسلحان عرفـــا نفسيهما باعتبارهما مجرد « نسور الثورة الفلسطينية » .. بالاستيلاء عند الحدود النمساوية على قطار يحمل يهودا روسا من موسكو الى فيينا . لقد أخذا خمسة يهود وموظف جوازات نمساوى كرهائن .. وطلبا أن تقوم النمسا باغلاق مركز ترانزيت فى فيينا يسمى « قلعة شونو » .. كان يستخدمه اليهود الروس فى طريقهم الى اسرائيل . أن مستشار النمسا « برونو كيرسكى » .. وهو نفسه يهودى .. وافق على الطلب .. وترك العربيين أحرارا . أن اسرائيل شعرت بالحنق الشديد من هذا العمل .

هل كان هذا ــ كما يشك بعض الاسرائيليين الآن ــ هو ضربة ماكرة للتمويه ؟ ان الرجلين المسلحين كانا ينتميان الى منظمة فلسطينية تسمى « الصاعقة » .. قاعدتها فى سوريا .. وتشرف عليها السلطات السورية ، الى درجة أنه حتى ضباط الجيش السورى أعضاء فيها . وقبل أسبوع واحد من حادثة « شونو » .. قام قائد « الصاعقة » .. زهير محسن .. باستنكار هذه الأعمال باعتبارها « أعمالا صبيانية لا تحتاج الى شجاعة خاصة .. ويتم تنفيذها سعيا وراء الصيت والشهرة » .

ماذا ، أو من ، غير تفكير زهير محسن ؟ أن أحمد اسماعيل وزير الحربية المصرية كان بالتأكيد فخوراً بـ « خطته الخداعية » التى تم وضعها ــ كما قال هو فيما بعد ــ بهدف أن تؤدى الى « تشتيت الانتباه عما ننوى فعلا أن نقوم به » .

واذا كان هذا تمويها .. فان غارة « شونو » تكون قد نجحت للغاية . وليس من المبالغة أن نقول أنه ابتداء من ذلك اليوم .. وحتى اليوم السابق على الحرب نفسها .. كانت « عملية شونو » هى الشىء المتسلط عى تفكير اسرائيل . والأكثر خطورة .. هو أن الحكومة الاسرائيلية وقيادات مخابراتها وجيشها .. كانوا مشغولين بهذا الحادث بدرجة متساوية .

ولقد كان هذا الوضع يمثل كارثة . فى ٣٠ سبتمبر أصبحت الحكومة الأمريكية ــ فى الشكل الواضح لوزير الخارجية كيسنجر ــ أصبحت مهتمة بالحشود العربية . ولكن المخابرات الأمريكية كانت متأثرة تماما ، وللغاية ، بآراء المخابرات الاسرائيلية .

وأثناء ذلك التقدم نحو الحرب .. فان كفاءة المخابرات الاسرائيلية والأمريكية. .تتضح دقتها بالنسبة لأى تقدير لاستجابات حكومتيهما. ان كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى يزعم قائلا : « لقد سألنا

مخابراتنا .. وكذلك المخابرات الاسرائيلية .. فى ثلاث مناسبات منفصلة خلال الاسبوع السابق لنشوب الأعمال العدوانية .. من اجل أن تعطينا تقديرها لمـــا يمكن أن يحدث . ولقد كان هناك الرأى الاجماعى من أن الأعمال العدوانية هى غير محتملة الوقـــوع .. الى درجة أنه لا توجد فرصة لحدوثها » .

ان الحقيقة كانت أكثر تعقيدا من ذلك .. بكثير .

فمن الناحية الفنية ، كانت المخابرات ممتازة . فلكى تحذر من الاستعدادات المصرية ، مثلا ، فان اسرائيل تملك أجهزتها الأمريكية الخاصة بها فى سيناء . واذا كانت دفاعات صواريخ « سا م» قد بترت مقدرة اسرائيل على القيام بطلعات جوية للاستكشاف والتصوير الفوتوغرافى .. فان القمر الصناعى الأمريكى « ساموس » .. بدأ يسد هذه الفجوة مع نهاية شهر سبتمبر .

ان كيسنجر أقر بأنه « لا أحد ارتكب أية أخطاء تتعلق بالحقائق» . ولكن ، كما قال كيسنجر أيضا « أن معرفة الحقائق أسهل من معرفة النوايا » . لقد كان الفشل الاسرائيلى هو فى التنبؤ — والتكهن — بالاستراتيجية العربية . هذا هو الشىء الذى تم انكاره . أن أحد الضباط الاسرائيليين البارزين ، وهو حاييم بارليف الرئيس السابق لأركان الحرب ووزير التجارة عند نشوب الحرب ومصمم خط بارليف — قد ادعى أنه لم يكن يوجد « أى نقص فى المعرفة » بالنسبة للنوايا العربية . ولكن ضابطا كبيرا فى المخابرات الاسرائيلية أخبرنا بأن كل ما توصلت اليه اسرائيل كان هو أن هجوما عربيـــا يحتمل أن يكون « وشيك الوقوع » .

وفى المعلومات التى أعطتها اسرائيل للمراسلين الأجانب لمعلوماتهم الخاصة وليس للنشر — خلال الأيام العشرة السابقة على الحرب — فان كبار الشخصيات السياسية فى اسرائيل أكدوا اعتقادهم بأن

الزعماء العرب ليسوا مستعدين للحرب . ان العرب ربما «يخطئون التقدير » ويشـــنون هجوما . ولكن .. اذا حدث ذلك .. فان هزيمتهم هى أمر لاشك فيه . بل أن أحد تلك البيانات استخلص فى ثقة مفرطة أن « .. اسرائيل ليست مهتمة بالحرب ــ وبالتالى .. فان العرب لن يكونوا مهتمين هم أيضا بالحرب ! » .

وبشكل ما .. توصلت المخابرات الأمريكية ــ عن طريق وسيلة تجريبية ــ الى نفس الاستنتاج .

ففى ٣٠ سبتمبر ــ وبناء على طلب كيسنجر وزير الخارجية ، أرسلت وكالة المخابرات المركزية .. وكذلك مكتب المخـــابرات والبحوث بوزارة الخارجية ، أرسلا اليه تقديراتهم عن الاستعدادات العربية . أن كليهما لم يكن فرحا كما يزعم كيسنجر . أن تقدير مكتب مخابرات وزارة الخارجية قال أن الحشود العربية « غير قاطعة »، ولكن ، بعد أن قام المكتب بتحليل الصورة السياسية ، فانه لم يكن متفائلا الى درجة استبعاد نشوب الحرب ... ثم استخلص أن من المشكوك فيه أن تبدأ حرب قريبا .

ولقد كان تقدير وكالة المخابرات الأمريكية هو نفس الشىء . أنها قدرت ان الاستعداد العربى يحمل « نذرا متشائمة » . ولكن الثقة الاسرائيلية من النوايا العربية كانت تتم رؤيتها باعتبارها الشىء المؤكد.ان مكتب مخابرات وزارة الخارجية كان هو الآخرمتأثرابآراء المخابرات الاسرائيلية . ولقد قال لنا أحد المســئولين فيه : « أن غلطتنا كانت هى قبول التأكيدات المتكررة من الاسرائيليين حول النوايا العربية » . ولكن المكتب ــ فى حكمه على النوايا العربية ــ كان ينظر أيضا الى الأمم المتحدة .. حيث بدأت لتوهـــا دورة جديدة فى اجتماعات الجمعية العامة . أن الشىء الذى يدعو الى السخرية ، هو أنه بينما كان كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية يزن

هذه التقارير غير المؤكدة من المخابرات .. فانه هو الآخر .. كان متأثرا بنفس الأحداث فى نيويورك .

أن كيسنجر أعلن لوزراء خارجية الدول العربية واسرائيل المتجمعين فى الدورة — بمشاعر رجل على وشك قبول جائزة نوبل للسلام — أعلن أن أمريكا هى الآن متحمسة للمساعدة فى تحقيق « تقدم حقيقى » نحو تسوية للنزاع فى الشرق الأوسط . وعندما دعا المبعوثين العرب الى الغداء يوم ٢٥ سبتمبر .. اعتبر هذا بمثابة الحركة الدبلوماسية الأولى من جانبه . (فى الواقع .. أنه كان قد مارس ضغطا على اسرائيل فعلا) . وفى المحادثات الخاصة التى جرت فى نيويورك فى أواخر سبتمبر .. كان كيسنجر قد حقق نوعين من التقدم . أن مصدرا رسميا كبيرا فى الامم المتحدة — وكان مطلعا على تلك المحادثات — قال لنا « أن العرب بدوا أكثر تراخيا وثقة بالنفس من أى وقت مضى رأيتهم فيه » . أن وزير الخارجية الاسرائيلى ووزراء الخارجية العرب اتفقوا سرا على أنهم سوف يتقابلون فى وقت ما من شهور نوفمبر تحت رعاية كيسنجر . أن التاريخ سوف يتم تحديده بعد الانتخابات الاسرائيلية .. وسوف يكون الهدف هو التوصل الى « مجموعة اجراءات » تؤدى الى مفاوضات رسمية .

لقد تعرضت تحليلات المخابرات للخداع . ولكن أحد رجال المخابرات فى واشنطن قال لنا : « أن اهتمام العرب بالدبلوماسية بدا ضخما بحيث أنه بالرغم من وجود أدلة عديدة على التحركات العسكرية .. فاننا تعرضنا للتضليل . لقد كانت لدينا العناصر الصحيحة .. ولكننا لم نزن أولوياتها بطريقة صحيحة » .

ان كيسنجر أيضا ، بعد أن قرأ تقديرات المخابرات ، اعتقد ان العرب سوف يعطون الفرصة لطرازه من الدبلوماسية . وما دامت

نوايا الرئيس الســادات كانت دائما تعتمد على مبادرات عسكرية تسير بموازاة المبادرات السياسية .. فربما كان أغوى اتصــال لكيسنجر بين اتصالاته العربية .. هو الذى تم مع وزير الخارجية المصرى محمد حسن الزيات .. حيث كان متلهفا بيأس الى تحقيق تقدم فى الدقيقة الأخيرة .. لانه يعرف كم سيكون الثمن بالدم .. اذا فشل ذلك .

فى ذلك اليوم — ٣٠ سبتمبر — وبينما المخابرات الأمريكية قد قررت فى ضــجر ان الحرب غير محتملة الوقوع .. أرســل أحمد اسماعيل وزير الحربية المصرية اشــارة تنبيه الى قرينه السورى اللواء مصطفى طلاس.أن السوريين لم يتم اخبارهم بعد بتاريخيوم الهجوم . ولكن أحمد اسماعيل أخبر طلاس الآن بأن الهجوم محتمل الوقوع فى أى وقت . أن العد التنازلى الأخير سوف يبدأ عند اعطاء كلمة رمزية واحدة هى « بدر » .

وفى الساعات المبكرة من يوم الاثنين أول أكتوبر ، بدأتالدبابات والمدفعية السورية فى التحرك أماما من مواقعها الخلفية .. لكى تنتشر فى مواجهة نقط الجدود الاسرائيلية . أن الصواريخالمخصصة لحمايتها كانت قد أصــبحت موجودة فى أماكنهــا بالفعل ، وهى الصواريخ التى نبه دايان اليها والتى — هكذا أدركت اسرائيل الآن — كانت متصلة بنظام منيع للدفاع الجوى بطول جبهة الجولان .

وبالنسبة لنقط المراقبة فى المواقع المحصنة لخط بارليف..فانهم تنبهوا فجأة للنشاط المتزايد خلف الحصون الرملية المرتفعة على الشاطىء المصرى . وفى يوم أول أكتوبر شوهدت قافلة من ناقلات الصواريخ وهى تدخل الى مدينة الاسماعيلية . وفى وقت ما .. تم سماع ضجيج طابور مدرع . أن مجموعة من الضــباط المصريين تباحثت بالقرب من حافة المياه،وشوهد ضابط مصرىبرتبة«عميد»

وهو يقوم بفحص طويل للمشهد .. من خلال المناظير المكبرة فى مركز مصرى للمراقبة .

وفى الأيام التالية وصل فريق من المتسللين المصريين ، لكى يقوم بزرع أعمدة فى الأرض قرب حافة المياه .. بينما قام عدد من عربات شق الطريق بتمهيد الأرض . ولكن لا شىء من هذا خلق شعورا بالمفاجأة : ففى كل مكان آخر على امتداد الشاطىء .كان المصريون حريصين على الاحتفاظ بمظاهر تؤكد ان كل شىء يسير بطريقة عادية . أن جنودا غير مسلحين جلسوا ــ كما هو معتاد ــ على الشاطىء .. بأقدامهم مدلاة فى المياه الباردة . أن التراكتورات استمرت فى عملها المحلى لتكديس السدود الرملية . والجناينى المنتظم يظهر كل يوم وهو يروى حدائق الفيللات المهجورة فى ضاحية الاسماعيلية .

لقد كان هذا هو يوم « ى » ــ يوم الغزو ــ ناقص خمسة .

أن اسرائيل كانت غير قلقة أو منزعجة . فمن المركز الاسرائيلى للمراقبة على قمة جبل هرمون ــ الذى يبلغ ارتفاعه سبعة آلاف قدم ــ كان الجنود الاسرائيليون يستطيعون أن يدققوا النظر شرقا الى مسافة تصل حتى دمشق . وينظروا أسفل وأسفل الى المدفعية السورية التى تحتشد فى غير سرعة على امتداد السهل الصخرى المنبسط أسفل عيونهم . أن السوريين استغلوا بذكاء شديد هذه الحقيقة : أن تعبئتهم كانت تتم فى تشكيلات دفاعية . أن الدبابات السورية اتخذت مواقعها فى حفرات .. وهو الشىء الذى يتم لمقاومة هجوم .. وليس لشن هجوم . أن مدفعيتهم المتوسطة تم وضعها فى الخلف لكى تغطى الأراضى السورية وليس الاسرائيلية .

بل أن بعض الوحدات التى كانت سوريا قد وضعتها فى فترة سابقة على الحدود الأردنية قد تحركت الى الجولان . أن هذا

« التدعيم فى القوات » كما أسمته مصادر اسرائيلية عليمة ، كان مجرد اعلان للنوايا الطيبة نحو الأردنيين فى أعقاب التقارب الذى تم بين البلدين . أن أحدا من الاسرائيليين لم يتوقع أبدا « مبــادرة » ســورية .

وفى اليوم التالى ــ ٢ أكتوبر .. أو يوم «ى» ناقص ٤ ــ فان سوريا قامت باستدعاء الاحتياطى . وخلال الأربع والعشرين ساعة التالية ، رأى مراقبو الأمم المتحدة فى منطقة قناة السويس ضباطا مصريين على الشاطىء .. يوجهون التعليمات لرجالهم . الآن صدر الأمر .. خلال كل مستويات القوات المسلحة ــ من قائد الجيش الى قادة الفرق الى قادة الألوية ، وأخيرا الى الوحدات المقاتلة. لقد تقرر القيام بعملية بدر .

وكان هذا هو يوم « ى » يوم الهجوم ــ ناقص ٣ .

فى يوم الأربعاء هذا ــ ٣أكتوبر ــ عقدمجلس الوزراءالاسرائيلى اجتماعه الوحيــد فى الاسبوع الســابق على « يوم كيبور » كان الاجتماع مخصصا لبحث مسألة « شونو » . أن مسز مائير رئيسة الوزراء قد عادت لتوها من ستراسبورج ــ حيث مزقت خطبةكانت تنوى أن تلقيها أمام المجلس الأوربى حول النزاع الاسرائيلى مع العرب .. وبدلا من ذلك تحدثت ارتجاليا لمدة ساعتين ونصف ساعة عن حادثة «شونو» . بعدها عادت الى اسرائيل عن طريق فيينا..فى محاولة عقيم لاقناع المستشار كيرسكى بتغيير موقفه . ان على الحكومة الاسرائيلية أن تقرر الآن ماذا يجب عليها أن تفعله . أن الاشارات المنذرة بالويل للحشود العربية لم يتم ذكرها فى الاجتماع مطلقا . لقد كانت معروفة فقط لعدد محدود من زملاء مسز مائير المقربين للغاية .

* * *

فى القاهرة ، بتناسق ملائم ، عقد مجلس الوزراء المصرى أيضا اجتماعه الوحيد خلال الأسبوع .. يوم الأربعاء — مناقشة حميدة للمشروع المقترح بالوحدة الاندماجية بين مصر وليبيا . وفى مصر أيضا لم يعرف أعضاء مجلس الوزراء بالأخبار العسكرية الخطيرة . فى الواقع .. أصبح من الواضح الآن تماما انه فيما عدا ضباط التخطيط ورؤساء أركان الحرب ووزراء الدفاع فى مصر وسوريا .. وربما الأردن — فان ما لا يزيد عن ستة فقط ، هم الذين كانوا يعرفون الخطة .. على امتداد العالم العربى كله . ان القائمة ربما تكون هكذا : الســادات .. الأســد .. حسين .. الرئيس الجزائرى بومدين .. فيصل ملك السعودية . أن الأخير تم اخباره فى زيارة سرية قام بها السادات .

ان السرية ضرورية للغاية .. بقدر ماكان التدريب على الهجوم مهما . ان قائد سلاح المهندسين المصرى ، العميد على محمود ، كشف ، فيما بعد عن أن رجاله قد قاموا بثلاثمائة هجوم تدريبى على نموذج متقن لخط بارليف . ويضيف الفريق أحمد اســماعيل وزير الحربية : « كانت هناك تيارات مياه فى الأرض التى استخدمناها فى التدرب .. لها نفس قوة تيارات المياه فى قناة السويس» . انهم حتى تدربوا على العبور على قناة السويس نفسها — عند البلاح شمال الاسماعيلية — حيث تتفرع القناة لمسافة أميال قليلة الى قناتين ، وكانت مصر ما تزال تسيطر على كلا الشاطئين للقناة الغربية .

والأكثر دقة من هذا كله كانت استراتيجية مصر الخداعية . أن أحمد اسماعيل قال فيما بعد : فى كل حرب هناك خطتان .. أحداهما خطة للعمليات .. وخطة أخرى للخداع . وأعتقد اننا نجحنا .. فلقد وضعنا خطة الخداع على المستوى الاستراتيجى والتعبوى .. ووضعت لها توقيتات وجداول ســارت جنبا الى جنب مع خطة العمليات وتوقيتاتها وجداولها » .

ان وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ربما تكون قد وجدت التدريبات قاطعة بدرجـة أكبر . مثلا .. هل عـرفوا أن أحمد اسماعيل كان يرسل لواء كاملا فى الصباح .. ولا يعيد منه سوى جزء صغير ـ حوالى ثلث الجنود ـ فى الليل .. « لكى يعطى انطباعا بأن القوة كانت فى مهمة تدريبية وقد عادت بعد أن أتمتها». فى الحقيقة .. أن ثلثى القوة فى كل مرة كان يبقى فى ميدان القتال.

ويقول الفريق أحمد اسماعيل : « اننى قررت أيضا تأخير ارسال معدات العبور الى أقصى حد ممكن . فقد كان مؤكدا أن خـروج هذه المعدات من مخازنها كفيل بتنبيه العدو الى نوايانا ولقد صنعنا لبعض هذه المعدات صناديق خاصة لا يشـعر أحد أن اللوارى الضخمة التى تحملها هى لوارى مهندسين . ثم رتبنا لهذه المعدات حفرا على جانب القناة نزلت اليها فور وصـولها فى الليل » . وبالاضافة الى هذا كله .. نشرت صحيفة « الأهـرام » القاهرية خبرا يقول أن ضباط الجيش يستطيعون الحصول على أجازات للقيام بأداء العمرة .

ولكن أكثر عمل فعـال قام به المصريون للتمويه كان ـ مثل السوريين ـ ضربة ذكية للتضليل . فقد قال المصريون لأعضـاء السلك السياسى الأجنبى فى القاهرة أن مصر تسـتعد ضد ضربة اسرائيلية متوقعة .. انتقاما لحادث « شونو » .

أن هذا لم يكن بعيدا عن الصواب تماما . بل أنه ربمـا كان صحيحا بالفعل . أن لدينا معلومات تقول انه قبل أن تبدأ الحرب بأربعة أيام فقط ، كان دافيد اليعازر رئيس أركان الحرب الاسرائيلى يخطط للقيام بمثل هذه الغارة الانتقامية .

***

في يوم الثلاثاء ٤ أكتوبر — يوم « ى » ناقص أثنين — حصلت وكالة المخابرات الأمريكية على فرصـــتها الأخيرة . أن مجلسها الرئيسى الذى يسمى « مجلس مخابرات الولايات المتحدة » .. اجتمع الى الجنوب من واشنطن فى مقر وكالة المخابرات المركزية فى « لانجلى » بفرجينيا .. لكى يناقش سؤالا واحدا : هل ستكون هناك حرب ؟ فمنذ تقارير ٣٠ سبتمبر كان كيسنجر وزير الخارجية يسأل مكتب مخابرات وزارة الخارجية يوميا حول نقاط محددة . ان المكتب كان يقوم يوميا بارســـال معلومات وتقارير يومية الى جوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية الذى يتحمل مسئولية دائمة عن الشرق الأوسط . وفى صباح الخميس طلب كيسنجر من المكتب تقريرا جديدا شاملا عن تقديراته الكاملة .

ولكن ، بينما كانت وكالات المخابرات منزعجة وقلقة فى اجتماع مجلس المخابرات ، فان المخابرات الاسرائيلية كانت ماتزال مقتنعة بقراءتها للنوايا العربية . وبصرف النظر عن التقدير المرتفع الذى تنظر به واشنطن الى المخابرات الاسرائيلية — فان مجلس مخابرات الولايات المتحدة قرر فى اجتماعه أنه ما دام الاسرائيليون هم — فى النهاية — الذين سيواجهون أقصى العقوبات فى حالة فشلهم — فان آراءهم لابد أن يكون لها وزن خاص .

لقد كان من الواضح أن الاســـتعدادات العربية المتصاعدة هى الموضوع الرئيسى . ولكن ، من المهم هنا أن المجموعة الاكثر قربا من الاسرائيليين .. وهى وكالة مخابرات وزارة الدفاع الأمريكية « البنتاجون » — مازالت تجادل حتى فى الطبيعة التهديدية لتلك الاستعدادات . (من وقتها .. تم نقل المسئولين الثلاثة الـكبار فى الشرق الأوسط بالوكالة) . وفى وقت لاحق من مساء نفس اليوم، أرسل مكتب مخابرات وأبحاث الخارجية تقريرا الى كيسنجر يقول

فيه : ان الرأى الجماعى لأجهزة المخابرات كلها .. هو أنه ليس من المحتمل وقوع حرب وشيكة .

ومع مراعاة فرق التوقيت بين واشنطن والشرق الأوسط ــ الذى يبلغ ست ساعات ــ فان التأكيدات الأخيرة من مجلس المخابرات تم تسليمها الى كيسنجر فى نفس اللحظة تقريبا التى ينتهى فيها يوم الخميس ويبدأ يوم الجمعة فى الشرق الأوسط.. حيث أصبح ثابتا بصورة أكبر أن الحرب أصبحت وشيكة . وفى يوم الخميس ، فى وقت متأخر من الليل .. تم سد منافذ الطرق حول الضاحية الجميلة « الزمالك » .. تلك الجزيرة النيلية التى هى المقر المفضل للدبلوماسيين الأجانب . أن أسر المستشارين الروس بمصر توجهت ــ فى قافلات من السيارات الرسمية الى المطار .. وبدأت فى الرحيل . بعدها بساعات قليلة جدا بدأ نفس العمل فى دمشق . وفى نفس الوقت .. خلال الساعات المبكرة من صباح الجمعة .. اعادت المدفعية السورية انتشارها ــ فى تشكيلات هجومية .

لقد كان هو يوم « ى » يوم الهجوم ناقص واحد .

* * *

ان هذه الساعات الثلاثين الأخيرة قبل الحرب هى المرحلة الأكثر حرجا فى عدم استعداد اسرائيل . أنها أيضا ظلت حتى الآن الأكثر غموضا . أن هذا يرجع أساسا الى أن حكومتى اسرائيل وامريكا تشعران بالحيرة الشديدة مما حدث . ان اسرائيل كانت بطيئة بشكل غير عادى ــ حتى هذه المرحلة ــ فى ادراك أن الحرب قد أصبحت وشيكة . وحينما عرفت أسرائيل أخيرا .. فان أمريكا أقنعت مسز مائير بألا تتصرف.

فى صباح يوم الجمعة هــذا .. حاولت القوات الاسرائيلية أن تستعد .. أنها كانت فى حالة تأهب منذ تســعة أيام .. أى منذ تحذير ديان فى الجولان . والآن فى الساعة الحادية عشرة صباحا ، امرهم دافيد اليعازر رئيس الأركان بـ « أعلى حالات الاستعداد العسكرى » كما قال هو فيما بعد ـ وكذلك بالغاء كل الأجازات.. وتحذير الوحدات بأن من المحتمل استدعاء الاحتياطى .. أيضا تم تنبيه بعض كبار الضباط الموجودين فى الاحتياطى بالاستعداد . ان الرجل الذى سوف يكون ، هو الذى يعبر قناة السويس أثناءالحرب ـ الجنرال اريل « أريك » شارون تم استدعاؤه من مزرعتهالقريبة من بير سبع الى مقر القيادة الجنوبية فى الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا . ان شارون كان حتى منتصف الصيف قائدا لجبهة سيناء ، ثم عنــدما خاب امله فى الترقية ، اســتقال لكى يدخل ميدان السياسة ولكنه ظل فى قيادة تشكيل بالاحتيــاطى . الآن ـ تم اطلاعه على صورة استطلاع فوتوغرافية للحشــود المصرية واسعة النطاق لمعدات عبور القناة . ان شارون قال فيما بعد : « اننى أخبرت ضباط وحدتى بأننى أعتقد أنه سوف تكون هنــاك حرب خلال يوم أو يومين » .

مع ذلك ، ففى كل مكان آخر كان هناك ضباط نظاميون ، برتب كبيرة مثل قادة أولوية ، لم يتم تنبيههم بشكل ما . ومع ذلك فان القوات المسلحة كانت تستعد .

لقد أصبح السؤال هو : ما الذى ستفعله الحكومة الاسرائيلية ؟

ان الاجابة غير العادية على هذا السؤال هى أن مسز مائير ووزراءها لم يفعلوا شيئا حتى مساء الجمعة . وحتى حينئذ .. قرروا عدم استدعاء الاحتياطى (ألمح لنا أحد المصادر العسكرية انه كان هناك بالفعل اجتماع غير رسمى للوزراء فى صــباح يوم

الجمعة ، وانه بعد ذلك الاجتماع رفعت درجة استعداد الجيش. ان كل المصادر الأخرى تصر على أنه لم يكن هناك اجتماع للوزراء حتى المساء) .

فى مجلس الوزراء الاسرائيلى — كما فى اى مجلس وزراء آخر، فان مبدأ المسئولية الجماعية يتجاهل الحقيقة العملية من أن بعض الوزراء هم أكثر مساواة من غيرهم . ان « وزارة المطبخ » .. كما تسمى اسرائيل هذه المجموعة الداخلية من الوزراء المقربين لجولدا مائير .. تختلف فى تكوينها . ولكن ، فى الخامسة والنصف من ذلك المساء ، مع بداية الظلام وصلاة « كول بندرى » فى أرجاء اسرائيل التى ترمز الى بداية يوم كيبور ، أقدس يوم فى السنة اليهودية .. اجتمع أربعة وزراء فى مكتب مسز مائير بمجمع الحكومة فى تل ابيب. كان الوزراء هم : مسز مائير نفسها وايجال آلون نائب رئيسة الوزراء وموشى دايان وزير الدفاع ، واسرائيل جاليلى الوزير بلا اختصاص . ان الأخير غير معروف تقريبا خارج اسرائيل، ولكنه واحد من المقربين الى مائير وتثق فيهم . وفى لحظة ما .. سواء مع بداية الاجتماع أو بعد بدايته بقليل .. لحق بالأربعة رئيس الأركان السابق حاييم بارليف الذى هو الآن وزير للتجارة .. وكذلك رئيس الأركان الحالى دافيد اليعازر .

ان السؤال الرئيسى كان هو : هل يتم كسر الهدوء المقدس ليوم كيبور باستدعاء الاحتياطى ؟ لقد تم اتخاذ قرار ضد ذلك. ان المفهوم الرسمى الذى قيل لنا هو أنه لا أحد من المجتمعين انشق على هذا القرار . أما الحقيقة فهى أن اليعازر كان يريد استدعاء الاحتياطى .. ولكنه غلب على أمره مما جعله يتميز غيظا .

ان اليعازر قال فى ١١ نوفمبر : لو أنه تم استدعاء الاحتياطى قبل الموعد الذى استدعى فيه بأربع وعشرين ساعة أو اثنتين

وأربعين ساعة .. فان الحرب كانت ستصبح مختلفة بغير شك ».
انه أضاف الى ذلك نقطة متفجرة ، وهى أن عـــدد القتلى كان سيصبح أقل أيضا . ولكنه فى النهاية قال مستخلصا ما حدث : « أن القرار تم اتخاذه على أعلى مستوى سياسى وعسكرى . اننا لن نعرف ماذا كانت الحرب ستنشب مطلقا .. لو أننـــا كنا قد استدعينا الاحتياطى » .

وفى عملية اتخاذ القرار .. يبدو دور « دايان » حرجا . انمسز مائير الحت فى حديث لهـــا بالتليفزيون الاسرائيلى يوم ١٦ نوفمبر بقولها : « حينما جاء الى شخص ما من سلطته اقتراح التعبئة.. فاننى وافقت على الفور » . ان الشخص الذى له هذه الســـلطة هو وزير الدفاع . ان دايان دافع عن نفسه فى اجتماع للضباط يوم ١٤ نوفمبر بقوله أنه فى يوم الجمعة لم يكن يعتقد أنه ستكون هناك حرب و « أننى لم أكن الوحيد الذى أعتقد ذلك .. ولم أسمع عن اى شخصيقول أن الحرب كانت فى ذلك اليـــوم على وشـــك أن تنشب » .

ولقـــد كان هذا صحيحا . فحينمـــا كان الوزراء الإسرائيليون يتحدثون بطريقة متقطعة أثناء الليل .. فانهم كانوا اكثر اهتماما فى البداية برحيل الروس منهم بالحشود العسكرية.ان دافيد اليعازر رئيس الأركان ، طلب اتخاذ اجراءات احتياطية فقط .

ولكن فى الساعة الرابعة صباحا من يوم السبت .. تمزق هذا السرور ..

ان أجهزة الأنذار الاسرائيلية والأمريكية التقطت أشاراتالراديو التى لا تخطىء ، والتى تكشف عن الاستعدادات المصرية الأخيرة للحرب . ان هيئة أركان حرب الاسرائيلية استخلصت أن الحـــرب

« وشيكة وحتمية » . أما اليعازر رئيس الأركان،فقد أصبح يقترح الآن أن يقوم السلاح الجوى الاسرائيلى بشن ضربة وقــائية عند الفجــر .

ان جولدا مائير اعترضت على هذه الخطة . وكان الخوف من رد الفعل الأمريكى هو السبب المسيطر على تفكيرها . أنها سألت اليعازر : « كم من الأصدقاء سيظلون معنا لو فعلنا هذا ؟ » . ان رئيس الأركان ، وربما بارليف أيضا ، عاد الى مناقشتها بعاطفة : « فى كل مرة نقرر فيها ان يأخذ آراء الآخرين فى الاعتبار .. فاننا ندفع ثمن ذلك بالدم .. » ان هذا القول ينسبه اليهما أحد المصادر الاسرائيلية . ولكن الضربة الوقائية التى قامت بهــا اسرائيل فى سنة ١٩٦٧ فاجأت الطيران المصرى وطائراته مصفوفة على أرض مطاراتها . ان اسرائيل لو قامت بضربة مماثلة فى هذه المرة..فانها سوف تتم الآن ضد خصم مستعد ، وتحميه شاشة صواريخ قاتلة. وفى أحسن الحــالات ، فان الاسرائيليين يســتطيعون تمــزيق الاستعدادات العربية فى ساعات قليلة ــ ولكن فى مقابل ذلك سوف يكون الثمن هو خسائر مخيفة يدفعونها .

ان هذا الجدل حسمه السفير الأمريكى فى اسرائيل ــ كينيث كيتنج ــ لقد تم ايقاظه فى الساعة السادسة صباحا .. واستدعى لمقابلة جولدا مائير . وفى الاجتماع حذرها كيتنج من أن اسرائيل لو ضربت أولا .. فان الرأى العام العالمى سوف يجعل من الصعب على أمريكا أن تمد اسرائيل بمعدات الحرب .

ويبدو ان السفير قد صاغ نقطته هذه بطريقة دبلوماسية ، حيث قال : لو ان اسرائيل امتنعت عن القيام بضربة وقائية .. سامحة للعرب أن يقيموا دليلا لا ينقض بأنهم هم المعتدون .. فان أمريكا سوف تشعر أدبيا بأنها مضطرة للمساعدة » . هكذا وصف لنــا

أحد المصادر صياغة السفير الأمريكى . ان التهــديد مازال هو نفسـه .

وهكذا قررت جولدا مائير أن تأخذ المخاطرة . لقد حصل اليعازر طبعا على تصريح بتعبئة الاحتياطى . ولكن ، فى نفس الوقت ربما تكون القصة العربية هى الصحيحة . ربمـــا كانوا هم يستعدون للحرب خوفا من ضربة اسرائيلية . ان مسز مائير سوف تؤكد لهم ان اسرائيل لا تنوى ذلك .

وعلى الفور ، أعطيت رسالة عاجلة الى السفير الأمريكى كيتنج لابلاغها الى كيسنجر . هل يتفضل بأن يخبر العرب بأن اسرائيل لا تخطط ــ بعكس مخاوفهم ــ لضربة ضدهم .. ومن ثم فليس لديهم ما يقلقون بشأنه .. ؟

كان الوقت ساعتها حوالى منتصف الليــل من يوم الجمعة فى نيويورك . واذا كانت مسز مائير قد أملت أن يقوم كيسنجر بمهمة الانقاذ .. فقد خاب أملها . فكما قال كيسنجر نفسه فيما بعد : « لقد تم اخبارنا .. بأن اسرائيل لا تنوى هى نفسها الهجوم ، ولكن هذا لا يشير لنا بالضرورة بأن الهجوم العربى كان وشيكا » . ثم أضاف بحزن : « ولم يثر ابدا احتمال وقوع أعمال عدوانية فى أى من المناقشات التى جرت مع كلا الجانبين فى الأمم المتحدة خلال الأسبوع السابق » .

ومع منتصف ليلة الجمعة ، قرر البنتاجون أن الحرب وشـــيكة ــ ولكن يبدو أنه لم يتم ابلاغ كيسنجر بذلك . وهكذا فان كيسنجر ــ شاعرا بالثقة فى قدراته الخاصة ومتلقيا تأكيدات غير طازجـــة من المخابرات ــ قام بابلاغ رسالة اسرائيل الى العرب بغير اهتمام محدد . بعدها دخل الى سريره فى الطابق الخامس والثلاثين من برج فندق « والدروف أستوريا » بنيويورك .. متطلعا الى عطلة ممتعة فى نهاية الأسبوع .

فى اسرائيل كان الوقت هو السابعة صباحا من يوم السبت . وفوق سيناء .. كان ضوء يغمرها بالفعل .

انه يوم الهجوم . أنه — أخيرا — اليوم « ى » .

* * *

وخلال استعدادها فى الساعات التالية .. فان اسرائيل — على الاقل — كانت تشعر بالراحة والاطمئنان من قوة خط بارليف ، انها لم تعرف بعد أنه فى الساعات الأولى من يوم السبت .. بينما وزراء مسز مائير يتجادلون .. تسللت فى الظلام قوات كوماندوز مصرية وعبرت القناة .. ووضعت كميات من الأسمنت فى الأنابيب الممتدة من خزانات بترول خط بارليف الى سطح المياه فى القناة .. لقد تم اغلاق سلاح اسرائيل السرى : ان القناة لا يمكن اشعالها بالنيران .

فى نفس الوقت سحبت مصر سلاحها الخاص ، المساوى ، فى بساطة وسرية . ان استراتيجية اسرائيل كانت تقوم على أساس اعتقاد بأن المهندسين المصريين سوف يحتاجون الى مالا يقل عن اثنتى عشر ساعة لكى يشقوا منافذ السدود الرملية لخط بارليف قبل ان يستطيعوا نصب الكبارى والمعابر .. وخلال هذا الوقت تكون قد تمت تعبئة الاحتياطى الاسرائيلى .

ولكن ، فى منتصف سنة ١٩٧١ وجد مهندس شاب فى سلاح المهندسين المصرى أن نافورة تتدفق منها المياه بضغط كبير ، يمكن أن تنسف الرمال بعيدا،بسرعة هى ضعف ما حسب الاسرائيليون .

ان مصر تستعد الآن لكى تقوم بتعويم مئات من الخراطيم والانابيب ومضخات النيران .

وفى الثانية تماما من بعد ظهر السبت — ٦ أكتوبر — شنت القوات المصرية والسورية هجومها المشترك : عملية بدر . لقد

وقعت اسرائيل فى المصيدة .. بغير جيش المواطنين الذى تملكه .. وبغير خططها الرئيسى للدفاع .

* * *

ان الغزو المصرى لسيناء بدأ فى تمام الساعة الثانية بالضبط من بعد ظهر يوم السبت ٦ أكتوبر — بأربع موجات ساحقة من نيران المدفعية التى تنطلق من ألف مدفع مختفية بين الكثبان الرملية خلف الشاطىء الغربى لقناة السويس . ان الهجوم الذى تلا ذلك كان مركزا على ثلاثة محاور : تحت القنطرة فى الشمال .. حول الاسماعيلية فى الوسط .. جنوب البحيرات المرة نحو مدينة السويس . ومن المذهل ، أنها حققت مفاجأة كاملة . ان رئيس الأركان الاسرائيلى دافيد اليعازر ، نسب هذا فيما بعد الى « فشل خطير فى ملاحظة الأمر الصادر بحالة تأهب قصوى فى بعض الرتب الصغرى » . ان الحقيقة هى أنه لا يبدو أن أحدا أخبر الجنود على الخط الأمامى للجبهة بأن الحرب وشيكة الوقوع .

كان الجنود المحتشدون فى خط بارليف هم من احتياطى اللواء ١١٦ الذى يسمى « لواء القدس » ، نسبة الى دوره فى غزو المدينة فى حرب سنة ١٩٦٧ . ان معظمهم رجال أعمال متوسطو العمر . ان اللواء تم ارساله الى هناك لكى يحل محل الحامية النظامية . ولكن ، حتى اللواء ١١٦ لم يكن فى قوته الكاملة : لقد أعطيت أجازات كثير من أفراده الثمانمائة فى مناسبة يوم كيبور . ان مسز مائير قالت فيما بعد أنه فى يوم ٦ أكتوبر ، كان يوجد فى خط بارليف أقل من ستمائة جندى . (تتطلب الخطط الاسرائيلية وجود عدد ضخم هو عشرة آلاف .. فى هذا الخط) .

وحينما أتى الهجوم .. كان كثيرون يغسلون ملابسهم .. ومن المفترض أنهم بهذا كانوا يستفيدون من اعفائهم فى يوم كيبور من

المهام العسكرية الروتينية . آخرون كانوا يصلون . ان أحدهم ــ الجندى أنسدورفر ــ كان فى زمرة متدينة الى درجة أن الأغلبية افترضت أن الجسر نوع من الحادث المحلى العارض و ــ مندفعين الى مراكزهم الميدانيــة ــ استمروا فى صلاتهم . انه يقول : حينما كنا ــ فى مراكزنا ــ نبتهل الى الله .. اسمعى يا اسرائيل .. فان كل شخص حتى الذى لم يلاحظ شيئا ، انضم الينا فى الدعاء بحماس وحرارة ضخمة » .

فى الواقع ، ربما يكون هذا قد حدث . فبينما انزلق ثمانية آلاف جندى مصرى من المشاة أسفل الشواطىء الرملية ... منطلقين فوق المياه فى قوارب من المطاط .. فان الاسرائيليين فوجئوا بأول اكتشاف مرعب : أن ابتكار تحويل القناة الى خندق من النيران .. لن يعمل .

فتحت كل نقطة قوية فى خط بارليف كانت توجد سلسلة من خزانات البترول تحت الأرض وأنابيب تصل بين هذه الخزانات .. ثم تصل منها أخيرا الى فوهات عريضة تحت سطح المياه . أن مفتاحا فى كل نقطة قوية يبدأ عملية الضخ لــكى ينتشر البترول وتنتشر المواد الملتهبة منه فوق سطح القناة فى طبقة تشعلهــا حينئذ قنبلة حرارية .. وبالتالى ، تتحول أية قوة مصرية مهاجمة الى رماد .

ان المصريين يعرفون هذا . لقد تسللت وحدات استكشافية عبر القناة ، واكتشفوا الأنابيب . ان اللواء سعد الدين الشاذلى رئيس الأركان المصرى قال مؤخرا : « كانت مشكلتنا الأولى التى يجب أن نتغلب عليها هى كيف نتعامل مع منظر القناة وهى تتحول الى جحيم بمجرد أن يبدأ العبور . ان التجارب التى قمنا بها بينت لنــا أن محاولة اطفاء مثل هذه اللهب سوف يتطلب منــا نصف

ساعة على الأقل .. حتى مع افتراض انه لن يتم القاء المزيد من المواد الملتهبة » .

ان المصريين فكروا فى ضرب خزانات البترول هذه بالمدفعية ، ولكنهم أسقطوا الفكرة . « ان الاستكشاف بين لنا أن العدو قد خزن المواد الملتهبة بكميات تحت الأرض كوسيلة لحمايتها ضد نيران المدفعية » . ان هذا النظام كان مؤذيا للغاية ، هكذا قرر المصريون ، عند فوهات الأنابيب فى القناة . وهنا يقول الشاذلى : « كانت خطتنا هى أن نرسل مجموعات لسد هذه الأنابيب بالأسمنت » . ان أحمد اسماعيل وزير الحربية والقائد العام يضيف أن مجموعات من قوات الكوماندوز تسللت الى الضفة الأخرى يوم الجمعة — ومن المحتمل أن يكون ذلك قد تم ليلا . ويقول أحمد اسماعيل : « ان رجالنا سدوا هذه الأنابيب بغير أن يدرك العدو أن هذا كان جزءا من خطة أشمل » . (ان الفريق احمد اسماعيل أعطى هذه المعلومات وكثيرا غيرها استقدنا به هنا — فى حديث ممتاز مع محمد حسنين هيكل ، رئيس التحرير البارز للصحيفة القاهرية نصف الرسمية « الأهرام » .. اللواء الشاذلى تحدث مع صحيفة أخرى هى « الأخبار ») .

وقد حدث فى مكان واحد أن اكتشف الاسرائيليون التخريب فى صباح السبت . ويقول الفريق أحمد اسماعيل « أنهم جاءوا بمهندسين لاصلاح الأنابيب » . ويضيف الشاذلى انه كان المهندس الذى صمم هذا النظام و « .. وقد شهد أثناء استجوابه بأنه وصل الى المنطقة فى رحلة تفتيشية قتل يوم واحد فقط » . انه كان بالتأكيد — واحدا من أوائل أسرى الحرب . وكما يقول الفريق اسماعيل بفخر : « انه كان ما يزال يباشر عمله حينما وجد جنودنا فجأة فوق رأسه » .

« بمجرد أن نشرت أخبار فشل هذا السلاح الاسرائيلي السرى .. أنكرت سلطات تل أبيب — فى معلوماتها التى تعطيها للمراسلين الاسرائيليين العسكريين ولغير النشر — أنكرت أهميته . أن وجهة النظر الاسرائيلية هى أن اسرائيل كانت قد قامت بتجارب على هذا النظام فعلا فى سنة ١٩٧٠ ، ولكن تبين أنه نظام غير فعال . وهم يدعون أن خزانات البترول كانت عرضة لنيران المدفعية . ولكن فى سنة ١٩٧١ ، هكذا قال الاسرائيليون ، وضعت وحدة على شاطىء القناة — بأنابيب وهمية ملقـاة فى أماكن أخرى بهدف تخويف المصريين . ولكن — وهذا هو السؤال .. لمـاذا يتم وضع نظام « غير فعال » وفى مجرد نقطة واحدة ؟) .

بعد الكارثة ، كانت وجهة النظر الاسرائيلية المهدئة .. هى أن خط بارليف كان الهدف منه مجرد « سلك شائك » .. أو .. « هو ببساطة شاشة متقدمة لتأخير التقدم المصرى » ، كما يقول السفير الاسرائيلي فى بريطانيا ميشيل كوماى . ان الحقيقة ، كما قال الضباط الاسرائيليون بفخر للصحفيين خلال رحلات لهم فى سيناء قبل الحرب هى أن خط بارليف الذى تكلف ٤٠ مليون جنيه استرليني — بمخازنه وحقول ألغامه ونقطه الحصينة فى المؤخرة ومراكز مدفعيته — قد اعتبر منيعا وحصينا . ان السبب كان هو أن شواطىء القناة منحدرة للغاية .. والسدود الرملية الاسرائيلية مرتفعة للغاية (تصل الى ستين قدما) — بحيث أن الدبابات لا تستطيع أن تعبر القناة الا فوق كبارى .

ان الشاذلى رأى السبب فى أن دايان كان قد تنبأ بأن أى هجوم مصرى عبر القناة سوف تتم تصفيته والقضـاء عليه خلال أربع وعشرين ساعة . انه قال : « لقد أدلى دايان بهذا التصريح ، كما أعتقد ، على أساس حسابات بأن مهندسينا سوف يحتاجون الى

اربع وعشرين ساعة لاقامة كبارى . وان المعدات الثقيلة (مثل قوة دبابات ملموسة) لا تستطيع أن تعبر القناة قبل ثمان وأربعين ساعة .. وهو وقت كاف بما يسمح بوصول الاحتياطى الاسرائيلى المدرع الى الجبهة » .

ولكن .. فى ست ساعات خاطفة ومضيئة فى يوم ٦ أكتوبر .. أظهرت مصر أن الابتكار .. زائد الأسلحة الحديثة .. يمكن أن يحطما هذه الاستراتيجية الاسرائيلية ..

ولدهشة الاسرائيليين فى حصون خط بارليف ، فان كل جندى مصرى تقريبا من الذين جاءوا زاحفين الى أعلى الحبال والسلالم الخشبية التى تم وضعها أسفل الضفة الاسرائيلية بواسـطة جنود الهجوم الأول ، كان يحمل معدات غير مألوفة . ان بعضهم كان يحمل أنابيب فوق كتفه . آخرون حملوا حقـائب معدنية أو من الخيش .. أما فى أيديهم .. او معلقة فى ظهورهم . (طبقا لقول للشاذلى ، فان كلا منهم كان يحمل معدات تزن تين ستين و ٧٥ رطلا) . ان هذه الموجات الأولى من الجنود لم تحاول أن تستولى على المواقع نفسها — فهذه كانت مهمة الموجة الثانية . أن المهمة الرئيسية لهذا الهجوم الأول كانت هى تدمير الدبابات والمدفعية الاسرائيلية المدفونة فى حفرات خلف خط بارليف تماما .

ان الأنابيب التى كان المصريون يحملونها .. كانت مواسير مدفع اطلاق قذائف صاروخية اسمه آر . بى . جى . ولكن الحقائب كانت تضم ابتكارا أكثر تعقيدا : الصاروخ الروسى الموجه المضاد للدبابات الذى يسمى « ساجر » .. والذى يتم توجيهه طوال المسافة الى أهدافه بواسطة اشارات يرسلها الجندى الذى يطلقه عبر موجات دقيقة تنتشر خلف الصاروخ فى طيرانه .

ان الدبابات الاسرائيلية قد أصبحت بالفعل تحت سيل من نيران الدبابات المصرية التى تطلق نيرانها من حفراتها الرملية على الضفة الغربية للقناة .

الآن بعد أن أصبح الوقت متأخرا جدا ، ادرك الاسرائيليون معنى هذا النشاط المصرى المتزايد الذى كان يجرى خلال الصيف . انه لم يكن لمجرد شغل وقت فراغ الجنود ، ولكن ، كما قال أحمد اسماعيل لهيكل ، لاقامة تحصينات « قادرة على رصد مواقع العدو والسيطرة على الضفة الشرقية بمثل سيطرتها على الضفة الغربية » . ومن المثير للسخرية ، أن نصف العدد المقرر من الدبابات الاسرائيلية .. كان هو الموجود أماما عند القناة ــ لأن المدفعية والصواريخ المصرية أسكتت معظم الدبابات الاسرائيلية التى كانت هناك فى خلال دقائق .

ان جاويشا يعمل فى طاقم احدى الدبابات ، وفى الثانية والعشرين من العمر ، وأحمر الشعر .. كان نموذجا للقتلى الاسرائيليين ، انه كان فى الدبابة المتقدمة حينما تحركت وحدته بجنون نحو القناة . وعلى مسافة نصف ميل تقريبا من حافة المياه. تلقت دبابته صاروخا انطلق من دبابة مصرية جاثمة خلف المتاريس المضادة ، فقتل قائد دباباته فى البرج وجرحه هو قليلا . انه هرب ، لكى يأخذ مكان رجل أصيب بجراح خطيرة فى دبابة اسرائيلية أخرى . هذه الدبابة ، أيضا ، أصابتها ثلاثة صواريخ متزامنة . ان الدبابة تحترق تماما .. والجاويش الاسرائيلى يبذل جهدا كبيرا لكى يزحف خارجا من الدبابة .. بينما الذخيرة داخل الدبابة بدات تنفجر .

فى الساعة الثانية وسبع دقائق أعلن راديو القاهرة : « بيان رقم ٥ نجحت قواتنا فى الانتشار على قناة السويس فى قطاعات

عديدة ، واستولت على نقط قوية للعدو فى تلك المناطق وقد رفع العلم المصرى على الضفة الشرقية للقناة ... » . ان البيانات الأربعة الأولى تناولت نشوب القتال .. مطرزة ادعاء ظاهرا بأن اسرائيل هى التى بدأت القتال .

ان فرق الصواريخ المصرية بدأت الآن — فى تناسق وانتظام — فى انجاز مهمتها الثانية . ان ما أسماه الشاذلى بـ « عربات صغيرة يستطيع الجنود استخدامها فى حمل المعدات الثقيلة » قد تم الآن نقلها عبر القناة . وبينما بدأت الموجة الثانية بالهجوم على خط بارليف بالقنابل اليدوية ، والدخان ، والمدافع الرشاشة ، والقتال اليدوى .. فان فرق الصواريخ حملت العربات الصغيرة وانطلقت فى الصحراء الى مسافة تبلغ عشرة أميال . وهناك حفروا الخنادق لأنفسهم .. وأعادوا تجميع صواريخهم المضادة للدبابات .. وأخرجوا السلاح الثالث والأكثر تعقيدا بين كل أسلحة المدفعية الجديدة : الصاروخ الروسى المتحرك المضاد للطائرات « سام ٧ » .. الذى يقترب من اشعاع الحرارة تحت الحمراء لعادم الطائرة النفاثة . ان مهمة فرق مدفعية الصواريخ أصبحت هى — كما يقول الشاذلى : « أن يتشبثوا بمراكزهم ضد الهجوم المضاد الذى تقوم به الدبابات والطائرات لمدة تتراوح ما بين ١٢ و ٢٤ ساعة .. حيث تكون دباباتنا وأسلحتنا الثقيلة قد عبرت القناة » .

لقد كانت هذه هى المرحلة التى يعتمد عليها موشى دايان لتأخير المصريين بما يكفى من تمكين احتياطى اسرائيل من التدخل . ولكن فصائل سلاح المهندسين المصرى ، تحت قيادة العميد على محمود ، اختصرت تقدير دايان الزمنى الى أقل من النصف . ان الشاذلى يشرح كيف تم ذلك .. فيقول : « كانت المشكلة هى حاجز الرمال . نلكى يتم عمل ثغرة واحدة بعرض حوالى ٢٤ قدما عبر هذا الحاجز

(وهذا هو الحد الأدنى اللازم لمرور دبابة بسهولة) فان هذا معناه ــ هكذا قدرنا ــ تحريك حوالى ١٥٠٠ ياردة مكعبة من الرمال . ونحن نحتاج الى فتح ستين ثغــرة بهذا الشكل على الضفة الشرقية ــ أى تسعين ألف ياردة مكعبة من الرمال . ويجب أن نتذكر أننا نحن أيضا كنا قد بنينا سدا رمليا خلال السنوات الست السابقة للوقاية ضد أى هجوم مفاجىء من العدو . ان هذا أدى الى مضاعفة حجم مشكلتنا » .

ويقول الشاذلى : « كانت فــكرتنا الأولى هى أن نستخدم المتفجرات » . ويضيف أحمد اسماعيل التفاصيل : « فى خلال تجاربنا لازالة هذه الحواجز جربنا استخدام مدافع من كل الأحجام .. ولكننا لم نحصل على ما كنا نأمل فيه » . الشاذلى يكمل : « لقد تمسكنا بالمتفجرات حتى منتصف سنة ١٩٧١ ، حينما اقترح ضابط شاب من سلاح المهندسين أن نستخدم المياه تحت ضغط ضخم . ان هذا الأسلوب أثبت تفوقه .. واستطاع تمكيننا من فتح ثغرات خلال فترة تتراوح بين ثلاث وخمس ساعات » : ولو كان المصريون قد استخدموا المتفجرات ، أو العربات الكاسحة ، فان الوقت أمامهم كان سيصبح ضعف ذلك الرقم .

وبينما الخراطيم تدفع بالرمال بعيــدا .. يشرح الشاذلى : « كان علينا .. فى نفس الوقت .. أن نستخدم متفجرات ووسائل أخرى (يفترض أنها دبابات كاسحة للرمال) لكى يصبح من الممكن الاسراع فى اقامة الكبارى » . وهنا أيضا استطاع المهندسون المصريون ــ بمساعدة المعرفة الروسية ــ أن يحطموا الحسابات الاسرائيلية .

ان الوسيلة القديمة فى نصب الكبارى واقامة الجسور هى عملية معرقلة .. تعتمد على حشد جسور من الزوارق فى صف

واحد بنقالة مائية . ان عبور القناة بهذه الطريقة ـــ كان سيستغرق من المصريين ساعتين على الأقل . ولكن الروس ، فى مواجهتهم لأنهار عديدة فيما لو حدث مطلقا ان قرروا غزو أوربا توصلوا الى ابتكار جديد . ان عبور قناة السويس كان هو المرة الأولى التى استخدم فيها هذا الابتكار أثناء القتال . ان الكوبرى «بى.أن.بى» كما يسمى ، هو عبارة عن سلسلة من جسور الزوارق على شكل صناديق .. يتم حمل كل واحدة منها على عربة مجرورة . ان أذرعا هيدروليكية على العربة تقوم بانزال الجسر الى المياه . ثم تأتى عربة أخرى لانزال جسر آخر ، يتم ربطه بالأول .. وهكذا . وكما يروى الاسرائيليون الأحياء من حصونهم : « ان الجسر كان ينمو فوق الميـــاه كذراع ممتدة » . ان الـــ « بى. ان. بى » يمكن اقامته بمعدل ١٥ قدما فى الدقيقة . ومن ثم . فان قناة السويس يمكن عبورها فى أقل من نصف ساعة .

ولقد كانت هناك أزمة واحدة رئيسية بالنسبة للهجوم المصرى. ان الجيش الثانى المصرى كان يسير حسب الجدول الزمنى فى نصب كبارى واقامة جسور العبور حول الاسماعيلية والقنطرة ، ولكن ، فى الجنوب ، واجه الجيش الثالث المتاعب . ان حاجـــز الرمل الاسرائيلى كان أعمق بكثير مما توقعه المصريون .. وارض تمنع استخدام الجسور الجـــديدة « بى. ان. بى » . وفى الساعة الخامسة بعد ظهر نفس اليوم كان الجيش المصرى مازال يواجه العقبات . ان أحمد اسماعيل وزير الحربية اتخذ اجراء شديدا :

« اننى أرسلت قائد سلاح المهندسين نفسه (العميدعلىمحمود) الى مواقع عبور الجيش الثالث .. وأعطيته تعليمات بأن ينجز العمل بأى ثمن . ان العمل تم انجازه ، بالرغم من أن نائب قائد سلاح المهندسين استشهد بينما هو يعبر فوق أحد الجسور » ، لقد أصابته ضربة جوية اسرائيلية .

وحتى بغير تلك الأزمة .. فان العمل الذى قام به المهندسون المصريون كان خارقا . وطبقا لمـــا يقوله الشاذلى فانه : « فى فترة تتراوح بين ست وتســـع ساعات قامت فصائل مهندسينا بفتح ستين ثغرة ، وأقاموا عشرة جسور ونصبوا خمسين معبرا » . ان هذه الأرقام لم تكن بالكثرة التى أرادها أحمد اسماعيل ــ انه كان يعتقد أن عشرة جسور لا تعطيه تأمينا كافيا ضـــد التدمير بواسطة الضربات الجوية أو قصف المدفعية الاسرائيلية ــ ولكن ، مع بداية الليل يوم السبت .. كان واضحا أن فـــرق مدفعية الصواريخ تحتفظ بمواقعها فى مواجهة أول هجوم اسرائيلى مضاد . لقد لاحظ الشاذلى فيما بعد : « ان دايان أخطأ فى الحقيقة حساب مقدرة المدفعية على محاربة الدبابات والطائرات التى تطير على ارتفاعات منخفضة ، وقدرتها على التشبث بالأرض فترات طويلة بغير معدات ثقيلة » .

ان الطريق أصبح ممهدا الآن لعبور المدفعية المصرية .

وفى هذه المرحلة ــ أيضا ــ كان المصريون قد استعدوا ودرسوا أدق تفاصيلها . « منذ اللحظات الأولى للهجوم تمت اقامة أسلاك الاشارة عبر القناة . لقد استخدمت ألوان مختلفة لكى تحدد لكل وحدة طريقها .. وقد تم تدريب قواتنا على هذه التفاصيل قبـــل العملية » . وتحت غطـــاء الظلام ، بدأت خمس فـــرق مصرية فى التدفق عبر القناة . وعند حلول منتصف الليل يوم السبت .. بعد عشر ساعات من الحرب .. كانت مصر قد حشدت على الضـــفة الشرقية لقناة السويس خمسمائة دبابة وشبكة صواريخ متقدمة .

لقد كانت هـــذه هى اعلى نقطة فى انجـــاز مصر العســـكرى فى الحرب .

ان عدم كثافة الهجوم الاسرائيلى المضاد فاجأت المصريين . ان الشـــاذلى ــ بتجرد محترف ــ لاحظ ان « عنصر المفـــاجأة كان

ظاهرا فى الافتقار الى التنسيق والاستجابة من جانب العدو لمدة يومين على الأقل » .

ان الاسرائيليين المتنبهين الى ما حدث هم أكثر مرارة من ذلك .. فبالرغم من حالة التأهب التى وضع فيها الجيش الاسرائيلى قبل ٦ أكتوبر بعشرة أيام .. فان التعبئة كانت فوضى . ان حوالى عشرين فى المائة من دبابات اسرائيل كانت فى حالة كاملة من الصيانة والاستعداد . دبابات أخرى كثيرة ، من المفروض أن تكون جاهزة داخل عربات نقلها فى قيادات المدفعية كانت ماتزال فى حالة « شرنقة » — مواسير مدفعيتها مثلا مطلية بالشحم ضد حصى الصحراء .. المخزون من القذائف كان منخفضا .. ثم كانت هناك صعوبات شحن سيئة . ان بعض أفراد أطقم الدبابات من الاحتياطى ذهبوا الى القتال بنصف تموينهم من الذخيرة .. وحينما كانت الدبابات جاهزة للذهاب .. كانت هناك وسائل نقل قليلة — وكثير من هذه أيضا كانت تحت الاصلاح .

* * *

فى الميدان ، كان الهجوم المضاد الاسرائيلى الأول مضطربا ومشوشا ومتهورا — كتائب دبابات انفرادية تلف وتدور الى الأمام، لكى يتم ضربها على الفور بواسطة المصريين . لقد كان الانهيار فى التنسيق واضحا هنا أيضا ، ولكنه أكثر قابلية للعذر ، لأن اسرائيل فى مواجهتها للهجوم .. كانت تحتفظ فى سيناء بـ ٢٣٠ دبابة فقط ، وهى من طرازات أمريكية « أم — ٤٨ » و « أم — ٦٠ » فى اللواء المدرع الرابع عشر . وفى مواجهته للضغوط على امتداد الجبهة ذات المائة ميل .. فان اللواء الرابع عشر كان من المحتم أن يتبعثر فى وحدات صغيرة .

وكانت هناك وحدات مشاة تواجه نفس المشاكل . لقد أخبرنا ضابط اسرائيلى كبير فيما بعد قائلا : « لم يكن هناك جيش اسرائيلى واحد فى سيناء .. ولكن جيوش عديدة .. كل واحد منهـا يفعل ما يحلو له » . ومن المؤكد أنه كانت هناك حالات ـ خصوصا مع هبوط الظلام فى هذا السبت الأول ـ أطلق فيها الاسرائيليون النيران على بعضهم البعض .

ولكن أكثر المشاكل غموضا هى التى تتعلق بالمدفعية الاسرائيلية الثقيلة . فخلال الساعات الحرجة من تلك الأيام الأولى .. كانت المدفعية الاسرائيلية تضرب قذائفها فى صحراء خاوية كيفما اتفق . فخلف خط بارليف .. كانت الدفاعات الاسرائيلية الرئيسـية فى سيناء هى مدفعيتها الثقيلة .. التى تطوف على امتداد طريق أقيم خصيصا ويسير بمحاذاة القناة على بعد خمسة عشر ميلا شرقا فى الصحراء . (خلف هذا يوجد طريق آخر لكى يأخذ الامدادات للمدفعية) .

ان هذه المدفعية الثقيلة طويلة المدى كانت تعتمـد تماما فى تصويبها ضد الأهداف المعـادية على الجنود الأماميين فى نقط المراقبة .. وأطقم الدبابات .. أو الجنـود المعزولين فى الخط الأمامى داخل تحصيناتهم وما زالوا أحياء . ان كل نقطة قوية فى خط بارليف لديها مخزن خاص تحتفظ فيه بخرائطها وكتاب ضخم للشفرة يتم عن طريقه اختيار مراجع ورموز كل هدف قبل نقلها بالراديو . ان رسالة نموذجية فى هذا الصدد هى مثلا : « اضربوا قذائف بتركيز على نقطة ج » .

ولكن .. فى الاستجابة الى مثل هذه الرسائل خلال الأيام الأولى من الحرب ، كانت المدفعية تكرر دائما ضرب النقاط الخطأ . ومن الواضح هنا .. أنه اما ان أطقم المدفعية كانوا يستخدمون خرائط

مختلفة .. أو شفرة ورموزا مختلفة عن تلك التى يستخدمها الجنود الأماميون . لقد كانت هناك — حتى — حوادث قام فيها الاسرائيليون بقصف جنودهم هم . ان موقعين حصينين الى جانب القناة تمت اصابتهما بنفس الطريقة . لقد تم اخبارنا بحادث قامت فيه وحدة دبابات اسرائيلية بطلب مساندة المدفعية .. وتم قصفها هى نفسها ، مما أدى الى موت طاقم دبابة القيادة ، وربما دبابتين أخريين .

ومع ذلك .. فبعد عشرة أيام كان مجرى الحرب يتغير . ان الأسباب الكاملة لذلك هى ، حتما ، فوق حدود مثل هذا التحليل . ولكن .. فى التحليل الأخير فان السبب الرئيسى لذلك كان هو أن مصر ضيعت النصر الذى كان فى متناولها بعد الأربع والعشرين ساعة الأولى من القتال . وفى هذا التدهور . كانت هناك نقطة تحول .. الأولى كانت جدلا حرجا عن الاستراتيجية داخل القيادة المصرية . والثانية كانت فشل خطة سلام امريكية سلمت بطريقة فعالة بوجود نصر عربى .

ان أحمد اسماعيل وزير الحربية المصرى قال : « بالنسبة لى .. كانت الصلابة أهم من التفكك .. خصوصا اذا كان الأمر متصلا بحرب » .

وكما كتب « هنرى تانر » مراسل « النيويورك تايمز » فى القاهرة يقول أثناء المعركة : « ان الجيش المصرى التصق بعناد بخطة استراتيجية وتكتيكية شاملة ومتوقعة . ان المتحدثين العسكريين يصرون على أنه لم يكن هناك ابتعاد عن الخطة .. لا ارتجالات ولا مبادرات من القادة المحليين بغير تفويض سابق » .

كان هذا هو التفكير المصرى ، أو بتعبير أحمد اسماعيل وزير الحربية المصرى : « ان الحرب هى حوار بين تخطيط وتخطيط » .

ان أحمد اسماعيل ـ الآن فى الخامسة والخمسين ـ كان فى مقدمة كل دورة أركان حرب حضرها . وبالاضافة الى ذلك فانه حارب أيضا فى أربع حروب . ان ذكرياته عن حرب سنة ١٩٦٧ ، جنبا الى جنب مع ايمانه بالتخطيط ، كان لها أكبر تأثير فعال على ادارته لحرب أكتوبر . لقد أخبر محمد حسنين هيكل فى حديثه معه : « ان ذاكرتى مازالت تحمل صورة الموقف حينئذ .. لم تكن هناك جبهة ، ولم يكن هناك جيش أيضا . كان كل شىء محطما ومهلهلا » .

ان ذلك الوقت كان يلازم أحمد اسماعيل .. مثلما كانت خسائر بريطانيا الضخمة والمبكرة فى الحرب العالمية الثانية تلازم القادة البريطانيين . لقد قال أحمد اسماعيل : « ان تأمين قواتى كان شاغلى الأول طوال الحرب الجديدة . ربما كان هناك من رأوا أنه كان علينا أن نقوم بمخاطر أكبر . اننى كنت مستعدا لأى مخاطر ولأى تضحيات . ولكنى صممت باستمرار على هدف رأيته أمام عينى وأحسسته فى ضميرى : المحافظة على قواتى . اننى كنت أعرف الجهد الذى أعطته مصر لاعادة بنـاء الجيش .. كنت أعرف معنى أن نفقد جيشنا ... معناه أن تستسـلم مصر . واذا استسلمت مصر فقد ضاعت فى هذا الجيل ولأجيال لاحقة » .

ربما كان هذا هو الذى جعل أحمد اسماعيل يقول فيما بعد ـ بالنسبة لحرب أكتوبر ١٩٧٣ : « هل لم نستطع رؤية الفرصة ؟ ان الموضوع بالنسبة لى لم يكن مسألة فرص .. وانما كان مسألة حسابات . ومهما وجدت من فرص تبدو متاحة أمامنا ، فقد كان على الا أغامر .. » .

بعد ذلك ذكر أحمد اسماعيل المبررات الفنية لهذا القرار : « اننا بدأنا العملية فى حماية شبكة الصواريخ الشهيرة . واذا كان على أن أتقدم بعدها ، فقد كان لابد ـ سواء كانت هناك فرص

يراها غيرى أو حتى أراها بنفسى — أن أنتظر حتى أتأكد أن قواتى وراءها الحماية الكافية .. كان لابد أن أعطى الفرصة لمدرعاتى بالدخول ، وكان لابد أن اعطى الفرصة لصواريخى المتحركةالمضادة للطائرات بالدخول » .

ولكن اقوى سبب فى النقص بالنسبة لمعدات على الضفة الشرقية ، كان هو أن مصر دفعت بأكثر من سبعمائة دبابة الى سيناء .. واحتفظ أحمد اسماعيل بخمسمائة دبابة غرب القناة ضد احتمال هجوم جوى اسرائيلى يأتى من الخلف .

ان أحمد اسماعيل يستطيع ، وقد حدث هذا فعلا ، أن يقول أنه هو وحده فهم أن استراتيجية السادات لم تتغير منذ اجتماع قمة القاهرة فى العاشر من سبتمبر وهى : استخدام الحرب ببساطة .. كوسيلة لاشعال أزمة عالمية خطيرة بما يكفى لاقناع القوتين الأعظم بأن الموقف فى الشرق الأوسط أكبر خطورة من أن يظل بلا حل لوقت أطول . وبناء على ذلك فان أحمد اسماعيل لم ير هناك حاجة لمطاردة اسرائيل عبر سيناء .

ان عملية « بدر » تطلبت اقامة راس جسر فى سيناء بعمق يبلغ حوالى عشرين ميلا .. حيث الملامح الطبيعية — معظمها رواب رملية — سوف تمد القوات المصرية بخط دفاع متقطع ولكن صالح للعمل . ان أعمال الالتفاف الاسرائيلى يوم الأحد حاولت حرمان مصر من تحقيق هذا الهدف . وبحلول ليلة الأربعاء .. أصبح رأس الجسر المصرى ممتدا بشكل مثير بطول قناة السويس كلها .. ولكن عمقه كان يبلغ فى أقصاه عشرة أميال .. أى اكثر قليلا من نصف ما كان يجب تحقيقه .

وهكذا ، فان اسرائيل أصبح عليها أن تركز على نقطة واحدة : أن تحرم القوات المصرية من اكتساب عمق كاف ومرن فى سيناء ..

ضد الضغوط الاسرائيلية العسكرية . لقد كانت هذه هى النقطة التى سيحاول اريك شارون أن يستغلها بعد ذلك بأربعة أيام .. حينما قام فى بداية الأسبوع الثانى من الحرب بعبور القناة .

ولكن الأمر كان غير ذلك تماما .. وبشكل لافت للنظر تماما ، ففى نهاية الأسبوع الأول من القتال .. بدت اسرائيل بعيدة للغاية عن كسب الحرب ، بحيث أن حكومة مسز مائير كانت على حافة الموافقة على أن يفرض عليها وقف اطلاق النيران .. بشروط تعطى للسادات نصرا مؤكدا .

ففى منتصف يوم الأحد — ٧ أكتوبر — والحرب قد مضت عليها أربع وعشرون ساعة فقط .. استقل السفير البريطانى فى مصر السير « فيليب آدامز » سيارته الرولزرويس الى ضاحية مصر الجديدة بالقاهرة .. لكى يرى الرئيس السادات فى مقره الحربى بقصر الطاهرة . انه وجد الرئيس جالسا .. يمد بصره عبر النافذة العريضة التى تطل على حديقة القصر .. ومدخنا غليونه . ان السادات قال ملاحظة عابرة عن المنظر أمامه . بعدها صمت طويل .. كسر الرئيس الساداته حدته أخيرا ، عندما قال للسفير فى سرور : « حسنا ، ما الذى يجرى ؟ » ان « آدامز » لم ير الرئيس السادات من قبل بمثل هذا الاسترخاء .

وعندما نعود خلفا الى السفارة البريطانية بالقاهرة .. فسوف نجد أن « آدامز » ترك هناك لفائف من البرقيات التى تعطيه آخر المعلومات عن الجهود الدولية العاجلة .. التى تبذل بهدف وضع مشروع لوقف اطلاق النيران عن طريق الأمم المتحدة . والآن ، فان « آدامز » يثير — بشكل حذر — السؤال الحرج : هل سيهتم الرئيس السادات بنداء يصدره مجلس الأمن لوقف اطلاق النيران ؟

ان الرئيس السادات كان نارى المزاج .. ان لم يكن غاضبا .

هذا الموضوع ليس محل مناقشة . فى هذه المرة ، سوف يكون المشروع الوحيد الذى تهتم به مصر لوقف اطلاق النار .. هو الذى لابد أن يكون ملازما لتسوية طويلة المدى . ان الأساس الوحيد المقبول لذلك سوف يكون قيام اسرائيل بتطبيق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ـــ وهو الذى أصدرته الأمم المتحدة فى سنة ١٩٦٧ وتطلب فيه من اسرائيل الانسحاب من الأراضى التى كسبتها فى حرب الأيام الستة .

ومن ثم .. أصبح جوهر عملية البحث عن صيغة تقبلها مصر لوقف اطلاق النار هو : كيف يمكن الضغط على اسرائيل من أجل أن تقبل ، فورا ، مضمون القرار ٢٤٢ ؟

ان هذا يعتمد على ما اذا كانت أمريكا سوف تقوم باعادة امداد اسرائيل بالأسلحة .

ولكن وزير الخارجية الأمريكى لم يتحرك . وفى يوم ٢٦ أكتوبر تولى هو صياغة موقفه هذا بمهارة .. عندما قال : « أثناء الأزمة كان الرئيس (نيكسون) مقتنعا بأن أمامنا مشكلتين رئيسيتين ـــ أولاهما .. ان ننهى الأعمال العدوانية بأسرع ما يمكن ، ولكن .. ثانيتهما .. ان ننهى الأعمال العدوانية بطريقة تمكننا من المساهمة فى ازالة الظروف التى أدت الى أربع حروب بين العرب واسرائيل خلال الخمس وعشرين سنة الماضية » .

ان كيسنجر كان يريد ، بكلمات أكثر خشونة ، هزيمة اسرائيلية محدودة . ان الدقة تمكن فى حساب المدى الأمثل لهذه الهزيمة . ان هذه الهزيمة لابد أن تكون .. كبيرة بما يكفى لارضاء العرب .. متواضعة بما يكفى لمنع حدوث انتصار دعائى للروس .. معتدلة بما يكفى لاحضار اسرائيل الى مائدة المؤتمر .. محتملة بما يكفى لتجنب انهيار حكومة جولدا مائير وحلول الخصوم من جنـــاح اليمين محلها .

وفى متابعة هــذه الاستراتيجية ، رفض كيســنجر امدادات السلاح لاسرائيل . ففى الساعة الثانية وعشرين دقيقة من بعد ظهر يوم الأحد ٧ أكتوبر ، تلقت البعثة العسكرية الاسرائيلية فى نيويورك برقية بالشفرة من السفارة الاسرائيلية فى واشنطن . ان البرقية كانت تقول : ان الرد الأمريكى على الطلب الاسرائيلى الأول من أجل الأسلحة كان « سلبيا » . ان كيسنجر مازال يتصور أن اسرائيل سوف تكسب الحرب . انه أخبر الرئيس السادات فيما بعد بقوله : « حينما سمعت أنكم هاجمتم ، قلت لنفسى : مساكين هؤلاء العرب .. انهم سيخرجون بأنوف ملطخة بالدماء ، وهذا سوف يرتد خلفا بأى أمل فى السلام .. بأكثر مما حدث من قبل » .

ومع وصول يوم الاثنين ٨ أكتوبر .. كان كيسنجر مازال متحمسا لوقف اطلاق النار على أساس العودة الى مواقع ما قبل السادس من أكتوبر . ان هذا الاقتراح كان يعنى انسحابا عربيا من جانب واحد . لقد كان اقتراحا هزليا ، ومضحكا ، بحيث أنه لابد أن يكون الأساس فيه هو سوء فهم كامل لمجرى الحرب .

ولكن ، مع مساء الاثنين ، كان واضحا أن العرب يحاربون جيدا . والأكثر نحسا من ذلك .. ان المسألة بدت كما لو أن روسيا قد قررت أن تخوض غمــار المعمعة الى جانب أصــدقائها العرب . ان الزعيم الحزبى السوفييتى ليونيــد بريجنيف كان يستحث الدول العربية الأخرى — مثل العراق — على الاشتراك فى المعركة . ولقد كان تحليل المرور التجارى الروسى عبر الدردنيل .. يوحى بأن المجهود الروسى لاعادة امداد العرب .. قد بدأ .

ان كيسنجر تفاهم جيدا مع السفير الروسى فى واشنطن ، أناتولى دوبرينين . ان وزير الخارجية الأمريكى يتحدث الآن ، فى ضغطه على دوبرينين ، عن الآثار المدمرة التى ستعانى منها

العلاقات السوفيتية الأمريكية .. فيما لو أصبحت القوتان الأعظم متورطتين فى الحرب .

ولكن استراتيجية الرئيس السادات كانت هى بالضبط توريط القوتين الأعظم ، بالرغم من أن من المشكوك فيه أن تكون هذه الاستراتيجية محل تقدير الروس .

ان التقارير المطبوعة اتفقت على انه — كاستجابة للجسر الجوى الروسى الذى بدأ فى وقت متأخر من يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر — فان نيكسون وافق متململا على عمل جسر جوى أمريكى مماثل فى يوم السبت ١٣ أكتوبر . ان الحقيقة هى أنه ، فى يوم الثلاثاء ٩ اكتوبر ، أصبح ضغط الدوائر اليهودية الأمريكية على نيكسون ضخما — خصوصا الضغط الذى قامت به مجموعة من الشيوخ يتزعمهم « جاكوب جافيتز » عضو مجلس الشيوخ فى نيويورك .

ولقد كان هذا الضغط فعالا ، ففى السابعة وعشر دقائق من مساء الثلاثاء تلقت البعثة العسكرية الاسرائيلية فى نيويورك برقية أخرى بالشفرة من السفارة الاسرائيلية فى واشنطن . ان البرقية تخبرهم بأن السفير الاسرائيلى « سيمكا ديمتز » قد رأى الآن الرئيس نيكسون .. وحصل منه على « ضوء أخضر » بالنسبة لشحنات السلاح .

ان أكثر تفسير محتمل لذلك ، هو أن نيكسون وكيسنجر كانا منقسمين فى الراى : نيكسون منحن للضغوط المحلية .. وكيسنجر مازال يحاول أن يستخدم امدادات السلاح كوسيلة ضاغطة يحصل بها على تنازلات من اسرائيل .

ان الجسر الجوى الروسى الى سوريا تزايدت حركته خلال يوم الأربعاء . لقد هبطت طائرات شحن البضائع الضخمة

« أنتونوف ١٢ » على أرض المطار العسكرى قرب الآثار الرومانية فى بالميرا شمال شرق دمشق . أما طائرات الأنتونوف ٢٢ ـ الأطول مدى ـ فقد طارت الى القاهرة . ان حمولاتها ـ طبقا للمصادر الاسرائيلية ـ كانت أساسا صواريخ « سام ٦ » .

أما فى واشنطن ، فقد بالغت الحكومة الأمريكية بشكل عجيب فى مدى هذا الجسر الجوى .. زاعمة انه يتكون من سبعين رحلة فى اليوم .. وانه ارتفع الى مائة رحلة ابتداء من يوم الجمعة . ان المتحدثين العسكريين ـ فى لومهم للمخابرات الخاطئة ـ يعترفون الآن بأن الجسر الجوى الروسى « .. لم يكن وافرا أو خطيرا الى الدرجة التى تصورناها فى البداية » . ان تقديراتهم انخفضت ـ بعد المراجعة ـ الى ثلاثين رحلة يوميا.وفى تمهيد الطريق لبدء الجسر الجوى الأمريكى .. فان المبالغات ساعدت كثيرا . مع ذلك ، ففى اللحظة التى انزلقت فيها القوتان الأعظم الى المعركة .. نجح كيسنجر .

ان شروط اسرائيل من أجل الموافقة على وقف اطلاق النار كانت هى أن يعود كلا الجانبين الى خطوط ما قبل السادس من اكتوبر .. مما يعنى فى التطبيق ـ انسحابا عربيا من جانب واحد. ولكن ، مع ليلة الأربعاء ، دفعت اسرائيل المدرعات السورية خلفا الى خطوط سنة ١٩٦٧ . وفى يوم الخميس .. بينما دباباتها تتعمق داخل السوريين ، جربت اسرائيل خطة أخرى : ان مسز مائير سوف توافق الآن على وقف اطلاق النيران .. على أساس أن تقوم بمعادلة مكاسبها السورية ، بخسائرها فى سيناء .

ومرة أخرى كان هذا يعنى ، فى التطبيق ، عودة الى مواقع السادس من أكتوبر .

ولكن ، مع يوم الجمعة .. أصبحت حاجة اسرائيل الى أسلحة جديدة ماسة وحادة الى درجة أنه بدون هذه الأسلحة الجديدة فلن تكون اسرائيل قادرة على الاستمرار فى الحرب أكثر من أيام قليلة . ان كيسنجر اضطر مسز مائير أخيرا الى قبول شروط أكثر خشونة .

لقد وصف كيسنجر هذا الجزء فيما بعد بقوله : « كان اقتراحى هو أن أحصل على وقف اطلاق النيران فى المواقع القائمة حينئذ — وكنا كما اعتقد فى يوم ١٠ أكتوبر .. لم يكن سهلا التقدم لاسرائيل باقتراح لوقف اطلاق النار عند خطوط ١٠ أو ١١ أكتوبر . أن معارضتهم لنا كانت تتميز بالغيظ .. لأنهم تصوروا أنه بعد أن اكتملت لهم التعبئة العامة .. فانهم سوف يكونون قادرين الآن على تغيير مجرى الحرب . ولكنهم .. وافقوا فى النهاية . » .

ولكن المصادر البريطانية تقول ان الأمر لم يكن سهلا بهذا الشكل . فمن جانبهم كان الاسرائيليون مايزالون يعترضون . ولكن كيسنجر أصبح واثقا الآن من انه يستطيع أن يفرض تلك الشروط عليهم . لقد قام السفير الروسى دوبرينين — بعد التشاور مع موسكو — بأخبار كيسنجر بأن الروس متأكدون من أن السادات سوف يوافق هو أيضا على وقف اطلاق النار .. على أساس هذه الشروط .

ان سوء التقدير هذا .. أدى الى نزاع ضخم بين بريطانيا وأمريكا .

ففى وقت متأخر من مساء يوم الجمعة هذا .. اتصل كيسنجر بالسفارة البريطانية فى واشنطن ، ونقل اليها مسودة الصفقة التى توصل اليها مع اسرائيل . انه اتفق مع دوبرينين على أن بريطانيا سوف تقترح الآن فى مجلس الأمن بالأمم المتحدة .. مشروعا لوقف اطلاق النيران .. على أساس الرجوع الى القرار رقم ٢٤٢

كأساس للتسوية في المدى الطويل . ولكن الجزء العاجل الآن هو الدعوة الى وقف اطلاق النار فورا فى المواقع الحالية .. وتلك هى الجملة الحرجة . أن أمريكا وروسيا سوف تؤيدان ذلك فورا، واسرائيل سوف تعلن استعدادها للاذعان . وطبقا للروس ، فان السادات سوف يوافق على ايقاف قواته فى سيناء . هل يمكن أن تتقدم بريطانيا بهذا المشروع ؟

لقد كان الوقت في لندن يقترب من منتصف الليل . ان وزارة الخارجية البريطانية بعد أن درست المشروع ، شعرت بالحيرة . ان بريطانيا غير راغبة فى تضييع طاقتها وتعريض علاقتها بالسادات للخطر .. من اقتراح وقف النيران بناء على شروط قد يجدها هو غير مقبولة . ولكن « آدمز » كان قد أرسل تقارير صلبة من القاهرة بأن السادات ـ الذى رآه مرات عديدة منذ الحرب ـ لن يوافق على مشروع بوقف اطلاق النيران .. الا اذا كان ذلك جزءا من تسوية طويلة المدى . ان كيسنجر يقول الآن العكس . أن أول شيء لابد من عمله هو مراجعة الموقف مع الرئيس السادات .

لقد عاد « آدمز » الى قصر الطاهرة بالقاهرة فى الرابعة صباحا من يوم السبت لقد كان السادات مستيقظا تماما وكان قد انتهى لتوه من توديع السفير الروسى فى القاهرة فلاديمير فينوجرادوف.. الذى كان يضغط عليه من أجل قبول الشروط التى اتفقت عليها روسيا مع كيسنجر . ان المنطق الروسى وهو صدى كيسنجر ، هو أن مصر قد حققت هدفها السياسى : ان القوتين الأعظم سوف تقومان الآن بفرض تسوية طويلة المدى .

ان الرئيس السادات رفض هذا المشروع غاضبا .. على أساس أنه يخلو من أية ضمانات مناسبة . وقد أدرك السفير البريطانى هذا الموقف من الرئيس السادات خلال اقل من دقيقتين.

بعدها بساعات قليلة .. قامت السفارة البريطانية فى واشنطن بابلاغ اجابة بريطانيا الى كيسنجر : ليس هناك معنى فى السعى لتنفيذ هذه الخطة .. لان السادات لن يقبلها . ان كيسنجر انفجر صائحا . كيف يجرؤ البريطانيون على مناقضة ما قاله الروس لكيسنجر ؟

وهكذا أعادت وزارة الخارجيـــة البريطانيـــة « آدمز » الى السادات فى الرابعةمن مساء يوم السبت . ولكن الرئيس السادات لم يتحرك ، ولم يتغير موقفه . وفى ذلك المســـاء ، قام رئيس الوزراء البريطانى « ادوارد هيث » باستدعاء السير اليك دوجلاس هيوم وزير الخارجية واثنين من كبار رجال الخارجية .. الى اجتماع مشحون بالقلق تم فى مقره الريفى . ان المشكلة الآن ليست مجرد ايقاف حرب الشرق الأوسط .. ولكن المشكلة أصبحت هى كيف تتم تهدئة ما أسماه هو مؤخرا بأنه « هذا التصدع الضخم فى العلاقات الأمريكية البريطانية » .

لقد قرر المجتمعون ــ فى غير سعادة ــ ان بريطانيا ليس أمامها من اختيار سوى أن تصمم على رفض خطة كيسنجر .. باعتبارها غير قابلة للتنفيذ . وهكذا طلب دوجلاس هيوم كيسنجر تليفونيا فى الساعة الحادية عشرة من مساء يوم السبت .

فى نفس الوقتظهرت جولدا مائير تتحدث على شاشة التليفزيون الاسرائيلى .. ولكنها لم تكشف عن رفض السادات للشروط التى قبلتها اسرائيل . لقد ابتعدت عن ذلك تماما .. وربما كان يهزها فى تلك اللحظة فشل كيسنجر .. لكى تشير الى رغبة اسرائيل فى التفاهم . لو أن العرب اقترحوا أى نوع من وقف النيران ــ هكذا قالت مائير ــ فانه « فى خلال دقائق قليلة ، ســـوف نكون على مائدة مجلس الوزراء نتخذ قرارنا » . انها ــ حتى ــ المحت ــ

الى التنازل الحرج الذى قدمته اسرائيل ، مشيرة فى اعوجاج الى انها سوف تقبل وقفا لأطلاق النار مع مصر يتضمن قبولا لعبورها قناة السويس .

وفى القاهرة كانت الصحف المصرية تقول : ان الهدف العاجل الذى وضعه الجنود المصريون لأنفسهم هو اصابة الاسرائيليين بأفدح الخسائر الممكنة .

وكما قال وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسنجر فيما بعد : لقد فشلت هذه المحاولة الأولى لوقف اطلاق النار فى يوم السبت ١٣ أكتوبر وأسباب مختلفة .. ربما تتضمن خطأ بعض الأطراف فى تقييم الموقف العسكرى » .

* * *

حينما ننظر الى الجيش الاسرائيلى من الداخل ، فاننا سوف نجد أن معظم ضباطه الكبار حاربوا معا فى أربع حملات .. أولاها أعمال العصابات فى فلسطين قبل انسحاب البريطانيين منها . بعدها صعدوا فى سلم الترقيات معا خلال حرب ١٩٤٩/٤٨ ثم ١٩٥٦ ثم ١٩٦٧ . ان نواحى القوة والضعف .. والانجاز والفشل فى كل واحد منهم أصبحت معروفة لمعاصريه . ان هذا لم يترك قدرا كبيرا من الاحترام داخل القيادة العليا . لهذا كان من المحتم أن نجد — مع امتزاج الجماعات المختلفة معا — ان ضابطا معينا يتقدم فى المناصب .. تحت حماية هذا القائد أو ذلك .. ثم نجد آخرين يدينون بالولاء لهذا القائد أو ذاك . والى جانب ذلك يوجد مصدر اضافى للاحتكاك الكامن بين المجموعة العليا للضباط .. ينشأ من الصلة الوثيقة للجيش بالسياسة .. لأن من المفروض أن يتقاعد الضباط فى حوالى الأربعين من عمرهم .. وقد اتجهت نسبة كبيرة منهم الى السياسة ، بعد تقاعدهم ، خلال السنوات الأخيرة .

ان حرب سنة ١٩٦٧ قد شهدت عودة موشى دايان الى وزارة الدفاع بعد عدة سنوات من الخسوف السياسى النسبى . ان بروز أحد ضباطه المفضلين — وهو حاييم بارليف — أصبح أكثر وضوحا مع عودة دايان الى الوزارة . وحينما حدث فى نهـــاية سنة ١٩٧١ ، أن تقاعد بارليف كرئيس لأركان الحرب ، لكى يدخل ميدان السياسة .. فلقد كان من المحتم تقريبا أن يخلفه دافيد اليعازر فى منصبه . ان بارليف واليعازر كانا صديقين منذ طفولتهما فى يوغوسلافيا قبل أن يهـــاجرا الى اسرائيل .. وقد تشابكت وظائفهما التالية عن قرب .

ان اليعازر كان اختيارا مأمونا لمنصب رئيس هيئة أركان الحرب .. حتى لو كانت حدوده التكتيكية معروفة . ولكن أحد مصادر الانشقاق حول تعيينه .. بين زملائه الأكثر كفاءة ، كان يتركز فى أن اليعازر لا يعتبر « مأمونا » عسكريا فقط .. ولكنه يعتبر أيضا « مأمونا » سياسيا . ان هذا معنـــاه أنه مطيع وممتثل لتحالف العمل السياسى الحاكم فى اسرائيل . ونتيجة لذلك ، فان الضباط ذوى الانتماءات اليمينية .. شكوا فى وجود تمييز وتفرقة كلما كان يتم تعديهم فى الترقية الى وظائف القمة . وفى طليعة هؤلاء الذين لم يتحملوا مشـــقة اخفاء آرائهم .. كان العميد أريل (اريك) شــــارون .

ان شارون أصبح قائدا للجبهة الجنوبية (التى تتضمن سيناء) فى نهاية سنة ١٩٦٩ . وباعتباره كذلك .. فانه واجه أسوأ وأشد مشاكل حرب الاستنزاف التالية . انه حقق نتائج طيبة .. مما جعله يتخيل أن لديه فرصة طيبة فى أن يصبح رئيسا لأركان الحرب ولكن قيل له بوضوح ان ميوله لا تتمشى مع ماتتطلبه تلك الوظيفة الرئيسية . لقد قرر شارون — فى اشمئزاز — أن يستقيل من الجيش ، وكان ذلك قبل نشوب حرب أكتوبر بمجرد ثلاثة أشهر ، وألقى بنفسه فى ميدان السياسة .. قائما بمهمة لحام أحزاب

اليمين اليائسة فى تحالف سمى « ليكود » . لقد كان هذا انجازا سياسيا لافتا .. حقق لشارون سمعة فورية باعتباره « دايان اليمين » .

ان الصفات الشخصية التى فشلت فى أن تحببه للقيادة العليا فى الجيش كانت خليطا مثيرا للنفور ، من النباهة وميل لتجاوز ــ أو حتى الاستهانة بالأوامر . أن سجله العسكرى كان شهوة صريحة للقتال . فلقد أصبح معروفا لأول مرة كمؤسس وقائد لــ « الكتيبة ١٠١ » التى كانت مهمتها القيام بغارات انتقامية . وفى سنة ١٩٥٣ ، أحرزت هذه الكتيبة شهرة عالمية فى قبح الصيت وسوء السمعة حينما قامت بالرد على غارة ارهابية عربية قتلت فيها امرأة اسرائيلية وطفلها . لقد كان رد هذه الكتيبة ، هو قيام شارون وجنوده بتفجير قرية أردنية كاملة .. قاتلين ٦٩ من سكانها .. نصفهم من النساء والأطفال . وفيما بعد تحجج شارون بقوله : « ان الكتيبة ١٠١ لم تكن تعرف أنه يوجد اناس يختبئون فى المنازل » !

ولكن موشى دايان قدر شارون .. لان دايان كان يحاول فى الخمسينات أن يخلق كادرا من الضباط تكون فلسفتهم هى الاستيلاء على أى هدف « بواسطة هجوم أمامى .. ومهما كان الثمن فى الأرواح » . أن هدف دايان من ذلك كان هو استخراج « مهارة يهودية » من الجيش الاسرائيلى . وبصرف النظر عن أن هذا عمل مشوه من نواح كثيرة .. فانه يعبر عن نظرة غير عملية فى تأثيرها على جيش يملك خصومه أرواحا كثيرة يبذلونها . واذا نظرنا الى هذه المسألة على أساس من شخصية دايان الماكرة والمتناقضة .. فربما لم يكن هذا أكثر من تدريب تم تصميمه لقلب الروح الدفاعية التى تولدت داخل الجيش الاسرائيلى فى حرب الاستقلال ــ ١٩٤٨ . ولكن هذه السياسة أثمرت تماما ــ على الأقل فى حالة شارون .

فخلال حملة السويس سنة ١٩٥٦ ، تم اسقاط شـــارون مع وحدة من جنود المظلات .. بهدف ازعاج واقلاق التحركات المصرية عبر ممر متلا . لقد تلقى شارون أمرا بألا يهاجم الممر نفسه .. نظرا لأن الدفاعات المصرية فيه قوية .. ولأن هذا كان شـــيئا لا تتضمنه خطة دايان .

ان شارون حصل على تصريح باخراج « دورية » .. وبدلا من ذلك فانه أرسل فصيلة كبيرة الى أعلى الممر مباشرة داخل مخبأ مصرى . بعدئذ أصبح عليه أن يورط باقى قواته فى المعركة .. لانقاذ الفصـــيلة التى تبين أنها وقعت فى كمين أعده المصريون لها . وبعـــد خســـارة ٣٨ قتيلا و ١٢٠ جريحا ـــ أى أكثر من الخسائر فى كل معارك الالتحام الأخرى للحملة ـــ فان شارون أخذ الموقع . ان هذا كان يعنى شيئا بديعا ، ولكنه لم يكن شيئا ماهرا . ولولا صداقة عمرها ثلاثون سنة أقامها شارون مع دافيد بن جوريون .. فانه كان سيتعرض للتأديب بقسوة .

وفى حرب سنة ١٩٦٧ قام شارون بقيادة « أوجدا » ـــ أى : قوة عمل ـــ كان عليها أن تتقدم فى سيناء عبر الطريق الرئيسى الأوسط . لقد كان من الضرورى الاستيلاء أولا على ملتقى الطرق فى أبو عجيلة . ولكن المصريين دافعوا عن هذه النقطة بقوة ، وبشكل أكبر كثيرا مما توقعته مخابرات شارون الميدانية . ان هجوما اسرائيليا من طراز « الهجوم بأى ثمن » منى بالفشل . وكان على شارون أن يعيد الهجوم بطريقة أكثر شمولا . وفى هذه المرة أدار الاسرائيليون هجومهم بمهارة وتصميم .. ومع ذلك فقد خرجت قوات شارون من هذا الهجوم ضعيفة و « معجونة » .. مع فقدان جزء كبير من قدرتها على التحرك . ان «ادجار بالانس» مؤرخ الحرب ـــ .. استخلص من ذلك أن شارون كان « .. أكثر خبرة بالمعارك الموضعيةالثابتة .. منه بحرب الصحراء المتحركة» .

ولكن شارون شخصيا ، يرى نفسه كوصى على التقاليد فى الجيش الاسرائيلى . ان التخطيط وعمليات الامداد والتموين .. تثير فيه الملل ، وهو يعبر عن احتقاره للضباط من طراز بارليف .. الذين يبرزون فى هذه النواحى . ان هذا الاحتقار يتم التعبير عنه على مستوى شخصى : ان شارون — الذى يشبه فى أسلوب حياته الخاص راعى بقر من تكساس — يعتقد أنه من الانحراف أن يخضع الجيش الاسرائيلى لقيادة سكان ضواح محترمين يحملون شهادات فى الاقتصاد .

وخلال تقاعده المتمرد بعيدا عن الجيش .. ظل اريك شارون فى قيادة لواء احتياطى مدرع .. وتمت تعبئته فورا مع بداية حرب يوم كيبور . ان قيادة الجبهة الجنوبية .. وهى الوظيفة التى كان فيها شارون نفسه .. أصبح يشغلها الآن العميد « شامويل جونين » .. الذى كان نائبا لشارون نفسه .. عندما كان الأخير فى الخدمة . لقد أعطيت لشارون قيادة القطاع الأوسط من جبهة سيناء .. تحت قيادة « جونين » . وحتى بالنسبة لأى شخص آخر أقل تقلبا من اريك شارون .. فان مثل هذا الانقلاب فى الأدوار .. كان من الصعب أن يؤدى الى احترام مريح . وسرعان ما بدأت تظهر الصدامات فى الآراء .

ان الموقف أصبح أكثر تعقيدا مع تقدم الأسبوع الأول من الحرب .. واستدعاء المزيد من الجنرالات المتقاعدين — ومن بينهم حاييم بارليف نفسه . لقد تم استدعاؤهم لكى يقوموا بـ « مهمات خاصة » .. لمساعدة القيادات الأصغر سنا .. والذين كان معظمهم جديدا نسبيا على وظائفهم . ان بعض كبار الضباط الآخرين لم ينتظروا الى أن يتم استدعاؤهم . انهم ببساطة ارتدوا ملابسهم العسكرية القديمة .. ووضعوا علامات رتبهم .. وذهبوا الى الجبهة .. ان

احدا لم يكن لديه من جمود القلب أو من الاستعداد العاطفى ما يكفى لصرفهم .

ان المجلة العبرية « هاعولام هازى » وصفت نتائج هذا التعدد فى القيادات بقولها : « .. ان الشخصيات السياسية التى لعبت أدوارا رئيسية فى الحملة الانتخابيـــة ، أصبحت مضطرة فجأة الى التعـــاون فى ميادين القتـــال . لقد كان من المستحيل أن تزول كل المنافسة بينهم مرة واحدة . ان حقيقـــة ان الحـــرب أدت أيضا ــ وعلى الفور ــ الى جـــدل ايديولوجى حول مدى صـــحة الآراء السياسية المختلفة والمتعلقـــة بالســـلام والأمن ــ الحدود الآمنة والحواجز الاستراتيجية والقوة الرادعة للجيش الاسرائيلى ــ قـــد ساعدت فى تنمية الاختلافات السياسية » .

ان بؤرة هـــذه « الاختلافات » كان اريك شارون . ان رئيســـه الجديد « الجنرال جونين » .. كان ضابطا شجاعا ومقتدرا ، ولكنه كان يفتقر الى أداء شارون .. وهو لم يتعرض للتيارات المضـــادة التى تعرض لها شارون .. ويبدو أنه ــ من البداية ــ بدأ شارون يعـــامل جونين باحتقار .. قائـــلا له : « لو أننى كنت ما أزال فى القيادة .. لم يكن سيصبح لديك ما تفعله فى هذه الحرب » .

* * *

وفى وقت مبكر من الحـــرب .. أى فى يوم الاثنين .. وهو اليوم الثالث للقتال كانت الوحدات الاسرائيلية ما تزال تستطيع أن تصل مرة أخرى الى نقاط على القناة ، ان رؤوس الجسور المصرية كانت ناقصة فى بعض الأماكن .. وغير كثيفة فى الأماكن الأخرى . ولكن .. أى هـــدف كان سيخدمه مثل هذا العمل ؟ ان اسرائيل كانت تركز على معركة الجولان . وقد بدا على المصريين أنهم ينوون تثبيت وتكثيف مراكزهم التى يحرزونها الآن .. بأكثر من استغلال المزايا

البارزة التى أحرزوها .. ان شارون – فى مسئوليته عن القطاع الأوسط الذى يدافع عن الممرات – كان يؤيد بحماس القيام بعمل اسرائيلى هجومى مرن . انه شرح ذلك بعد الحرب بقوله : « كان هدفنا هو اختبارهم (المصريين) فى سيناء .. بينما نحن ننتبه للسوريين . اننى شخصيا كنت أعتقد أن هذا خطأ .. وقد عبرت عن آرائى هذه كثيرا .. اننى رأيت اننا لم نكن نملك متسعا من الوقت ، ولقد وجدت أن المصريين لا يضغطون الى الأمام .. ولكنهم كانوا يتخندقون . وسوف يأتى وقف اطلاق النار .. لكى يجدهم حصينين الغاية » .

وبهذا الشكل ، فان شارون كان يركز ضمنيا على نقطتين دائما : انه من البداية كانت آراؤه تتعرض لنقض متعدد .. وان الموقف فى سيناء خلال باقى الأسبوع كان حرجا .

ان كلتا النقطتين غير صحيحتين .لقد سمح «جونين» بشن هجوم اسرائيلى مضاد يوم الثلاثاء فى قطاع شارون الأوسط .. وكانت النتيجة هى فشل هذا الهجوم .. مع خسارة اللواء ١٩٠ بفعل الصواريخ المصرية . ومن مصادر مصرية .. يبدو ان وسط الأسبوع شهد معركة كبرى فى سيناء .. حيث فقد شارون فيها موقع مقر قيادته المتقدم .

وهكذا .. اذا كان موقف شارون ، مع ليل الأربعاء ، قد أصبح أقل ثباتا وتأمينا مما يفترضه هو من وقتهـا . فان من الصحيح أن صباح الخميس قد شهد تغيرا حاسما فى الانتشار العسكرى المصرى . ان الفريق أحمد اسماعيل ، وزير الحربية المصرى ، بدأ يرسل الى سيناء الخمسمائة دبابة التى كان يحتفظ بها على الضفة الغربية من القناة لحماية مؤخرة جيوشه .. بنية واضحة ، وهى صرف جزء من المجهود الاسرائيلى المتزايد فى الجبهة السورية ..

ان الجدل الذى تبع ذلك بين الجنرالات الاسرائيليين يوم الخميس ١١ اكتوبر ، وفى وزارة الدفاع بتل أبيب ، وفى مقـــر قيادة جونين بسيناء .. كان يدور حول نقطة واحدة هى : كيف تستفيد اسرائيل من هذه الحركة المصرية غير المتوقعة ؟

عند هذه النقطة لم يكن شارون يدعى فقط أنه يستطيع الوصول الى القناة .. ولكنه ادعى أيضا أنه يستطيع عبورها . فخلال السنوات الأربع التى قضاها كقائد للجبهة الجنوبية وجد شارون متسعا من الوقت ليدرس ـــ بل حتى ويجهز ـــ نقطة للعبور . ولقد كانت آراؤه فى هذا الصدد مباشرة .. فلقد كان يقول « .. عندما نقوم بنقل الحرب الى الضفة الغـــربية من القناة .. فان هذا هو الذى يتمشى مع طبيعتنا : مدرعات سريعة الحركة فى أرض مفتوحة صالحة للدبابات بشكل كلاسيكى » .

ان شارون لم يكن خبير دبابات . ومن ذلك ، فانه حصـــل على مساندة قوية داخل وزارة الدفاع من اللواء « افراهام تامير » الذى يبلغ التاسعة والأربعين من عمره .. ويعتبر واحدا من أمهر اثنين أو ثلاثة فى الجيش الاسرائيلى .. مع أنه من اقل الضباط شهرة . ان « تامير » يســـانده ضـــباط عديدون آخـــرون من بينهم أحـــد العمداء ـــ كان يستحث القيـــادة من أجـــل القيام بعبور اسرائيلى للقنـــاة .. على أساس أن الهجوم الآن .. بينمـــا معظم الجيش الثالث (المصرى) يتدفق من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية .. سوف يفاجىء مدرعاته وهى غـــير مستعدة ومؤخرة هذا الجيش غير متمتعة بالحماية .

ان آراء « تامير » كانت تحظى بقدر من الاحترام .. ولكنه كان ينسب اليه الافتقار الى الخبرة القتالية . ان خطة شارون ـــ تامير قم نقضها من أعلى المستويات : من الثالوث دايان واليعازر وبارليف

.. والأخير أصبح يعمل مع اليعازر فى « المهمات الخاصة » . ان الثلاثة قرروا الانتظار .. فكل يوم يمـــر ـــ هكذا قالوا ـــ سوف يشهد مزيدا من المـــدرعات والطـــائرات الاسرائيلية التى تـــركز مجهودها فى سيناء .. كما يشهد دبابات مصرية أقل على الضفة الغربية .. مما يحسن الفرص أمام هجوم يتم فيما بعد .

اما بالنسبة للهجوم المصرى المتوقع .. فيبدو أن « جونين » قائد سيناء هو الذى رأى أن هذا الهجوم سوف يمد الدبابات الاسرائيلية بالفرصة الحاسمة لتدمير المدرعات المصرية .. لأن المصريين سوف يضـــطرون فى تقـــدمهم الى الخروج من نطـــاق حماية شبكتهم الصاروخية .ان تأييد بارليف لهـــذا التقييم كان حاسما فى رفض فكرة القيام بهجوم سريع للعبور . وكما أدرك شارون : « ان بارليف قال ان علينا أن ننتظـــر ونصـــد هجماتهم المدرعة . اننى ـــ أى شارون ـــ أعتقد أنه كان يجب علينا أن نعبر القناة وقتها .. وأننا ضيعنا أياما عديدة .

فى صـــباح الأحد الثانى من الحرب قال راديو القاهرة : « بسم الله الرحمن الرحيم .. فى الساعة السادسة من صباح اليوم بدأت قواتنا المسلحة فى الهجوم شرقا طبقا للخطة .. ان قواتنا المدرعة والميكانيكية تتقـــدم بنجاح بطول خط المواجهة » لقـــد كان هجوم الفجر المصرى هذا ـــ الذى سبقه قـــذف من المدفعية المصرية لمدة تسعين دقيقة ـــ هو الاختبار الحاسم للقوات المدرعة فى سيناء . وكما تنبأ الاسرائيليون .. فان مصر خرجت لتحارب . وكمـــا رأى جونين وبارليف .. فان هذا الخروج يتيح لأطقم الدبابات الاسرائيلية .. الأهداف التى يبحثون عنها ..

والواقع أن هذا الهجوم لم يأت بعـــد فترة من الهدوء .. لأن القتال كان مستمرا بدرجة أو بأخرى منذ اليوم الأول . ولكن هذا

الهجوم كان اتســاعا دراميــا فى نطــاق المجهود المصرى . ان الخمسمائة دبابة الاحتيــاطية التى تم عبورها خلال أيام الخميس والجمعـــة والسبت .. جعلت مجموع الدبابات المصرية فى سيناء يصـــل الى أكثر من ألف دبابة .. وفى نفس الوقت كانت الدبابات الاسرائيلية تتحـــرك غربا خلال ممرات سيناء مع تدهور التهـــديد السورى . وبشــــكل اجمالى اشتركت فى القتال مدرعات أكثر مما استخدم فى معركة العلمين الشهيرة .. التى حاربت فيهـــا ١٦٠٠ دبابة بريطانية والمانية وايطالية ..

ان الضغط المصرى الرئيسى كان فى اتجاه ممـــر الجدى . وقبل أن تتقدم الموجه الأولى من الدبابات الى الأمام .. أقام المصريون ســـدا من قذائف المدفعية وجهوه نحو الاسرائيليين .. كمـــا شن المصريون أيضا هجمات جوية عديدة فوق المواقع الاسرائيلية . ثم ، عند الفجر بالضبط .. تقدمت الدبابات المصرية تحت غطاء ضخم من غبار الصحراء .

فى معارك الدبابات تكون لدى المدافعين ميزة المواقع المجهـــزة سلفا . ان الدبابات الاسرائيلية المنتشرة فى حفـــر وخلف كثبيات رملية كانت أقل تعرضا للضرر من الدبابات المتقدمة . لقد قال قائد دبابات اسرائيلى فيما بعد : « خــــلال عشرين دقيقة .. أشعلنا النيران فى عشرين نقطة » .

انه قال بعـــد ذلك : « ان الموجة الأولى تقدمت عبر واد ، وتسلقت الى أعلى هضبة فى الجنوب من مواقعنا — (ربما يكون هـــذا جبل شيفا .. فى منتصف المســـافة تقريبا بين ممر الجدى والبحيرات المـــرة الصغيرة) . ان قواتنا قابلتهم على الهضبة .. ودارت هنـــاك معركة ضارية . وخـــلال ساعة أخرى من انتهاء المعركة .. هاجمتنا الموجة الثانية من الدبابات المصرية .. وكانت

هناك ١٤٥ منها . وحينما دخلت فى مرمى نيراننا .. حشدت كل قواتى .. وحاولنا أصابتها بكل شىء نملكه .

ان الاسرائيليين يدعون بأنهم دمروا ٢٥٠ دبابة فى ذلك اليوم — وهذا رقم مبالغ فيه كثيرا ، بالرغم من أن البيانات العربية تسلم بوجود خسائر مصرية كبيرة .

مع ذلك ، فان الهجوم كان لابد منـــه .. لأن رؤوس الجسور المصرية التى كانت تمتد فى سيناء بعمق تسعة أميال فقط بدلا من ١٨ كما تقرر الخطة .. كانت ببساطة قليلة العمق من حيث الدفاع عنها . ان الدبابات — حتى وهى تدافع — يجب أن يكون لديهـــا متسع من الأرض تتحرك فيه — اذا أريد لها أن تكون فعالة . ان رؤوس الجسور المشيدة كان معناها أنه فى القتال المحلى .. فان الاسرائيليين يستيطعون الاستمرار فى تعزيز قواتهم والحصول على مزايا حاسمة عــديدة .. بغير حرية مساوية فى المناورة يملــكها الجانب الآخر — أى المصريون .

ان معركة يوم الأحد هذه كانت أهم مواجهة مدرعة على نطاق ضخم فى الحرب . ان النتيجة حملت طابع سياسة لعبة الانتظار المصحوب بالحـــذر ، والتى طبقها اليعازر وبارليف وجونين . ان المسرح أصبح ممهدا لهم الآن لكى يعطوا اشارة البدء لاريك شارون .. الذى ما زال يشد رباطه .. لكى يحاول القيـــام بهجوم مضاد وجرىء عبر القناة .

وكمـــا حدث كثيرا فى مبادرات شارون .. فان الهجوم لم يسر بالضبط كما قرر رؤساؤه . انه نجح .. ولكن : تقريبا .

لقـــد اختار اريك شارون نقطة لعبور القناة قبل الحرب بوقت طويل .. حينما كان قائدا لجبهة سيناء . ان هـــذه النقطة التى اختارها تقع فى موقع غريب . فبين بحيرة التمساح والبحيرة المرة الكبيرة .. يمتد طريق القناة الشمالى الشرقى ميلا أو ميلين شرق الشاطىء . ولكن ، فوق مدخل البحيرة المرة الكبيرة بالضبط يوجد طريقان جانبيان يتفرعان من بعضهما ويتصلان مرة أخرى بجانب القناة . فى هذه النقطة ، التى تقع جنوب الاسماعيلية بثلاثة عشر ميلا تقريبا .. خفف شـــارون من السدود الرملية الضخمة على الضفة الشرقية .. ووضع علامات من الطوب الأحمـــر عند أضعف نقطة . وبالقرب من هذه النقطة أعد أرضا ممهدة للعربات والدبابات مساحتها مائة ياردة فى أربعمائة ياردة .. وتحميها حوائط مرتفعة .

ان مقر قيادة شارون فى القطاع الأوسط كان بالقرب من نقطة اسمها « الطاسة » .. شمال شرق نقطة العبور المقترحة بثمانية عشر ميلا . لقد كان يوجد تحت تصرف شارون هناك ثلاثة ألوية مدرعة ، يضم كل منها أصلا ما بين تسعين الى مائة دبابة .. ولكنها تناقصت بعد أسبوع من القتال . وبالاضافة الى ذلك ، كان يوجد تحت تصرف شارون لواء رابع من المشاة .. يضم قوات مظلات .. ثم يوجد تحت تصرفه أخيرا قوة خاصة من المهندسين ، بمعدات لتمهيد الأرض ، ونقالات مائية ذاتية الحركة ، ومعدات للعبور .

وفى مواجهة شارون كانت توجد الفرقة المصرية المدرعة الحادية والعشرون .. بدبابات تكاد تتساوى فى مجموعها مع دباباته — وهذه الفرقة هى جوهر الجيش المصرى الثـــانى .. الذى يقوده من الاسماعيلية العميد سعد مأمون .

ان المصريين كانوا يسيطرون — بأعـــداد كبيرة من تشـــكيلات المشـــاة المجهزة بالصواريخ — على كلا الطـــريقين الموصلين من

« الطاسة » الى القنـــاة . ان شارون يقول : « كانت المشـــكلة هى كيف نصل الى مياه القناة ونقيم رأس جسر فى نفس الليـــلة . ان علينا أن نفعل ذلك قبل أن يحل ضوء النهار .. لأننا لو فقدنا المفاجأة فسوف نجـــد بغير شك عددا كافيا من الدبابات ينتظـــرنا على الجانب الآخر » . لهذا .. فان الحل الذى اختـــاره شارون كان بتعبيره هو ، حلا « معقدا » .

فى فجـــر يوم الاثنين بدأ شارون يشرح لضباطه عمليـــة عبور القناة .. ذاكرا لهم أنه سوف يحصـــل على تصريح بهذا الهجوم خلال ساعات قليلة . ان المهندس المسئول قال انه لا يملك تحت تصرفه ســـوى عشرة بولدوزورات فقط .. وأنه لن يكون قادرا بهـــذا العدد على ازالة السدود الرملية على القناة .. وفى وقت يسمح باقامة راس الجسر عند أول ضوء . وهنا يقول شارون : « أننى أخبرته أن يبحث عن علامات الطوب الأحمر . وحينمـــا حان الوقت لذلك . .فانه وجدها واتم العمل » . ان التصريح بالهجوم جاء بعد ظهر الاثنين .. حينما لم يصبح هناك شك فى أن المصريين سوف يحاولون التقدم من جديد من رءوس جسورهم .

ان جوهر خطة شارون كان هو أن يستخدم واحدا من لواءاته المدرعة لكى يشغل انتبـــاه المصريين .. بينمـــا يقوم لواء آخـــر بالســـيطرة على الطريق المؤدى الى الجنوب الغربى من مقـــر قيادته فى « الطاسة » الى البحيرة المرة الكبيرة . ان هذا الطريق (انظر الخريطة) يتصل بطريق القناة الرئيسى قبل آلاف قليلة من الياردات ، من نقطتى الاتصـــال الجنوبيتين الى نقطـــة العبـــور المختارة . ان منطقـــة نقط الاتصـــال كانت معروفة باسم المزرعة الصينية .. لأنه قبل حرب الأيام الســـتة بوقت قصير .. كان خبراء اســـتصلاح الأراضى الصينيون يجـــرون تجارب هنـــاك لاستصلاح الأرض .

وبمجرد أن تتم لشارون السيطرة على الطرق ونقط الالتقاء .. فانه سوف يكون قادرا على ارسال مهندسيه ، والنقالات المائية الميكانيكية ، وقوات المظلات . لتأمين نقطة العبور والقتال على الضفة الأخرى .. وبعد عبور عدد قليل من الدبابات فوق النقالات .. يصبح على المهندسين أن يدفعوا بأجزاء كوبرى قطاعى (أى مؤلف من أقسام مستقلة متجاورة) عبر القناة .

لقد تم توقيت العملية على أساس أن تبدأ فى شفق يوم الاثنين.. وسوف يكون من الغبن أن نصف هذا التوقيت الزمنى بالجرأة . قد كان من المفروض أن تقوم الوحدات الأولى من قوات المظلات بعبور القناة فى قوارب من المطاط فى الساعة الحادية عشرة مساء .. ان هذا يعنى أن الأقسام الحيوية من قوة الدبابات أمامها خمس ساعات فقط لكى تغطى طريقا معقدا طوله عشرون ميلا خلف خطوط العدو .. ولكى تحارب معركة ليلية ، وتتصل مع المهندسين ، وتقودهم .. هم وقوات المظلات .. حتى نقطة العبور ، ان أجزاء كبيرة من الطريق كانت تتخللها تلال رملية مهجورة .. والدبابات حينما تسير بعيدا عن الطريق فى الليل .. نادرا ما تستطيع أن تتجاوز فى سرعتها خمسة أميال .

ولكن الخطة بدأ تنفيذها ..

ففى الساعة الخامسة مساء قام لواء مدرع ، متمركز فى شمال الطريق الموصل بين « الطاسة » والبحيرة المرة الكبرى .. بشن هجوم غربى فى اتجاه الاسماعيلية . لقد كان هذا هو العمل المقرر لتشتيت انتباه المصريين . ان القتال كان ضاريا .. وقد أدى بالتدريج الى جذب الثقل الرئيسى للفرقة المدرعة الحادية والعشرين شمالا نحو محور الطريق بين « الطاسة » والاسماعيلية .

بعدها بساعة ، فى الشفق المبكر ، اتجه هذا اللواء المدرع بعيدا عن الطريق نحو الجنوب . وتحت غطاء الظلام .. استدار غــربا و ــ بغير تدخــل من المصريين ــ اتجه عبر الكثبان الرملية نحو البحيرة المرة الكبرى . هنا كان هذا اللواء يتجه الى الفجوة بــين الجيش الثانى بقيادة مأمون .. والجيش الثالث فى الجنوب ..

ان مخابرات اسرائيل الميدانية ، محتفظة بكفاءتها المعتادة ، قد تعرفت على نقطــة الضعف التقليدية التى تحدث فى مناطق القيــادة المتداخلة . ان هــذا ، الى جانب المهارة التكتيكية لقواد الدبابات الاسرائيلية ــ يفسر الى حد كبير الافتقار الى المعارضة ــ وعندما وصل طابور الدبابات الى الطــريق المحاذى للقناة عند البحيرات المرة .. فانه استدار لكى يتقدم بسرعة نحو الشمال .. بينمــا مياه القناة تؤمن له جانبه الأيسر .

وقبل أن تنتشر الدبابات ، تم تقسيمها الى ثلاث « قوات عمل ».

فعند ملتقى طريق « الطاسة » .. اتجهت القوة الأولى فى اتجاه الشمال الشرقى لكى تؤمن الطريق وتأخذ القوات المصرية الرئيسية فى المؤخرة .

وفى اول طريق جانبى يؤدى الى القناة ــ عند نقطة اتصال«س» اتجهت القوة الثانية غربا لتأمين موقع العبور .

أما القسم الاكبر من هذا اللواء المدرع ، فقــد اتجه الى الأمام مباشرة .. عابرا نقطة اتصال الطرق . ان مهمته كانت هى اقامة محيط آمن الى أقصى نقطة ممكنة فى الشمال . وقد حدث ، بعــد نقطة الالتقــاء الثانية « ص » بآلاف قليلة من اليــاردات .. ان تعرضت هذه القوة الاسرائيلية الى نيران مصرية كثيفة .. مما أرغمها على أن تقوم بلانتشار بسرعة بعيدا عن الطــريق . لقد دارت هنا معركة دبابات ضارية سوف تستمر ــ بفترات توقف قليلة ــ طوال اليومين التاليين .

وكان معنى هذه المقاومة المصرية العنيفة أن نقط اتصال الطـرق لا يمكن تأمينها تماما . وفى هذا الوقت كانت العملية تسير متخلفة عن توقيتاتها المقررة : ان القوات التى كان يجب أن تعبر الآن فوق قوارب من المطاط .. كانت ما تزال قريبة من « الطاسة » .. وهى النقطة التى بدأت منها العملية كلها .

ولكن قوة العمل التى كانت تتقـدم شرقا ـ آخذة المصريين من المؤخرة على طريق « الطاسة » ـ كانت تقتحم بنجاح . وفى حوالى منتصف الليـل .. اتصلت هـذه القوة مع قوات مظلات اللواء الثالث .. ممتطية حاملات الجنود نصف المدرعة . ان الدبابات عكست اتجاهها .. وقادت العـربات نصف المدرعة خلفـا نحو القناة .. بالمهندسين ومعداتهم خلفها .

وفى حوالى الساعة الواحدة صباحا ركب شارون نفسه ، مع مجموعة من حوالى مائتى فرد ، فى قوارب من المطاط .. وعبروا اتساع القناة الذى يبلغ مائة ياردة .. وصعدوا الى أعلى الضفة الغـربية . ان شـارون يستطيع أن يقول الآن انه اخترق مصر الافريقية ، ولكن ، فى نفس الوقت ، كانت القـوات الاسرائيلية الرئيسية ما زالت تتعامل مع المشكلة الأكثر تعلقا بالأرض ـ ولكن الأكثر صعوبة ، انهـا مشكلة الاحتفاظ بممـر أرضى مفتوح الى القناة .. حتى يمكن اقامة رأس جسر مناسب .

ان شارون ورجاله وجـدوا أنفسهم على الضفة الغربية من القنـاة ـ كبداية على الأقـل ـ بغير معارضة . ولكنهم خلفهم بميلين اثنـين ـ على الضفة الشرقية من القنـاة ـ فانهم كانوا يستطيعون رؤية علامات متزايدة من المتـاعب تتعرض لها قواتهم الرئيسية .

لقد كانت ومضـــات المـــدافع ونيران الصواريخ المصرية تضيء الليل حول نقطة اتصال طريق المزرعة الصينية .

ان ما حـــدث هو أن وحدة مشاة مصرية استطاعت أن تخترق القوات الاسرائيلية الى الشمال من منطقة التقاء الطرق فى النقطة « ص » . لقد استخدمت هذه الوحدة صواريخها وقذائفها ــ بحيث أصبح من المستحيل على أية قوات اسرائيلية أن تمــر من نقطـــة التقاء الطرق « ص » وفى نفس الوقت .. كان هنـــاك نتوء بارز من نقطة اتصال « س » يتعرض للهجوم المصرى من وقت لآخر . فى نفس الوقت كانت تدور معركة دبابات هامة الى الشمال بعـــدة آلاف قليلة من الياردات .. ومعركة أخرى (التى كان هـــدفها الأصلى تشتيت انتباه المصريين) كانت ما تزال مستمرة على مسافة عشرة أميال الى الشمال الشرقى . وفى الجزء الخلفى من الطريق الى « الطاسة » .. كانت تنطلق فى نفس الوقت قذائف دبابات بين فترة وأخرى .

خلال هذا كله .. كان لابد من نقـــل البولدوزورات ومعدات الحفر والنقالات المائية . لقد كان من المفروض أن تكون المظـــلات قد اتخذت مواقعها على الضفة الغربية فى الساعة الحادية عشرة مساء . ولكنها لم تستطع الوصول الى هناك حتى الساعة الثالثة صباحا .. أى بتخلف أربع ساعات عن الجدول الزمنى . وبالاضافة الى ذلك فانه عند الفجر .. كانت النقالات المائية ما زالت عاجـــزة عن الوصول الى نقطة العبور المقررة .

ان رد فعـــل اريك شـــارون تميز باهمال نموذجى لحقيقة انه وفريقه القليل من جنود المشاة .. كانوا معـــزولين على الجانب الخطأ من القناة . انه قال لهم « يا رفاق .. لا تنزعجوا من شيء .. ان معكم هنا سكرتير حزب ليكود » ! .

ومع أول ضوء فى الصباح ، صمتت المدفعيـــة تماما على نقط التقاء الطرق .. جاعلة من الرحلة اختبار أعصاب بالنسبة للقوات التى أصبح عليهما أن تحضر الناقلات المـــائية وأجهـــزة الاعاقة والعوامات الحديدية قائمة الزوايا المحمولة على لوريات ضخمة . ان ملاح النقالة الأولى وهو جاويش من نيتانيا ، وصف « حمـــام النيران » الذى هـــدد وحدته بقوله : « كانت هناك معركة دبابات على كلا جانبى الطريق ، وكنا نحن نتقـــدم فى الوسط . لقد كانت معركة من أجل السيطرة على نقطة اتصال الطرق .. وكانت نقطة الاتصال داخل نطاق رؤيتهم (المصريين) .. وقـــد قاموا بضرب كل مركبة لنا تقدمت الى هنـــاك . لقد كنا قافلة صغيرة من السهل جـــدا اصابتها .. وقد حدثت فعـــلا بعض الاصابات .. وبعض الثقوب » .

ان هذه النقالة المائية الميكانيكية الأولى وصلت الى نقطة العبور عند الفجر . لقد أصبح المهندسون يستطيعون الآن فقط أن يبدأوا المرحلة التالية لتحميل وربط هذه الدبابات ــ دبابة واحـــدة فى كل مرة ــ على النقالات .. وارسالها متحركة ببطء عبر القناة .

وفى نقطـــة غير بعيـــدة من النهاية الغربية لمنطقة العبور .. كان يوجد حطام أربع دبابات مصرية . انهـــا تسللت فى لحظة ما خلال ساعات الليل ــ وربما كانت مهمتهـــا هى التحرى .. ولكن من المحتمل أيضا أنها كانت تقوم بجولة عسكرية روتينية ــ وقد ضربتها قوات المظلات بالصواريخ .. ولكن ، مع شروق الشمس .. لم يكن هناك مزيد من التدخل من جانب الجيش المصرى . وعنـــدما أصبحت الساعة هى التاسعة صباحا .. كان قد تم عبور ثـــلاثين دبابة وحوالى ألف رجل . أما الجاويش الذى من نتانيا فقد وجد أن الطقس على الضـــفة الغربية كان « سارا والسماء زرقاء والجو

هادىء جــدا ، اننا لم نكن قد قمنا بعد تنسيق أنفسنا من الأرض .. لقد كان الطقس مسالما .. ومناسبا للرعى فعلا » .

ومن المذهل ، أن المصريين لم يكونوا قد تصرفوا بعد ضد نقطــة العبور نفسـها ــ بالرغم من أنه على مسافة أميال قليلة فقط من الضفة الشرقية .. كان المصريون يضربون بعنف وضراوة اللواءين الاسرائيليين المدرعين الذين بدءا العملية كلها فى ليل الاثنين . لقــد كان هذا القتال الضارى ما زال مستمرا على امتداد المحيط الشمالى للممر المؤدى خلفا الى « الطاسة » .

وطبقــا للمقاييس العسكرية البحتة .. فان محاولة شـــارون لاقامة رأس جسر .. كانت تمثــل كارثة . ان القوات التى بدأت العملية كلها كانت تساوى فرقة كاملة .

ولكن .. بعد ١٦ ســـاعة من النشاط الاسرائيلى الجنونى .. فان شارون لم يستطع أن ينقل الى الضفة الغربية من القناة سوى قوة تقــل عن كتيبة واحدة .. بالاضافة الى دعم مدرع صغير . وبالاضافة الى هذا كله فلم ينجح الاسرائيليون فى اقامة كوبرى أو جسر . وبسبب اصابة القذائف المصرية التى فعلتها لأجزاء الجسر المنقولة عبر الطريق .. فانه لم تكن هنـــاك فرصة لاقامة الجسر خلال الاثنتى عشرة ساعة التالية .

ولو أخذنا فى الاعتبار كمية النيران التى كانت مستمرة فى الانطلاق خلال كل منطقة المثلث « الطاسة ــ البحيرات المرة ــ الاسماعيلية» منذ المساء السابق .. فان الاسرائيليين لم يكن لديهم الحق فى أن يأملوا أن تكون فى جانبهم حتى الآن ميزة المفاجأة . ولو كانت قوة مؤثرة من أى نوع قد تدخلت يوم الثلاثاء .. فانها كانت ستقضى على العملية كلها مهما فعل الاسرائيليون .. فلكى يقوم الاسرائيليون

بنقل ما يساوى فرقة عسكرية عبر ميـاه القناة .. فان هذا كان يتطلب منهم حوالى الف رجل .

ان الخطة الأصلية للقيادة الاسرائيلية العليـا كانت تقتضى أن يقوم شارون ولواء تحت قيادته باقامة رأس جسر وتأمينه ــ حتى يستطيع العميد « افراهام ادان » وهو واحـد من أحسن خـبراء الدبابات فى الجيش الاسرائيلى ــ يستطيع أن يعبر بعد ذلك فورا .. لكى يبدأ الاكتساح فى اتجاه الجنوب بهدف قطع الجيش المصرى الثالث . ان هذه السياسة تم تصميمها تلبية للحاجة الماسة من جانب اسرائيل للحصول على جائزة كبيرة بأرخص ما يمكن .. قبل فرض وقف اطلاق النيران . ولقد كان أصحاب هذه الخطة يقولون انه بمجرد تركز القوات الاسرائيلية جنوبا .. فان اسرائيل سوف تحتاج فقط الى السيطرة على جبهـة تمتد خمسة عشر ميلا تقريبا بـين الشلوفة والسويس .. وهـذا يمكنها من احتواء الجيش الثـالث .

ولكن .. فى صباح يوم الثلاثاء كان المصريون قد حطموا كل هذا . ان ما حدث بعد ذلك كان نتيجة بلادة ملحوظة من جانب .. ونتيجة تصرف قام به شارون .. وهو تصرف يعتبر نبوغا فى نظـر أصدقائه .. ويعتبر بلاهة عسكرية فى نظر أعدائه لو استخدموا الفاظا مهذبة .

ان ضابطا كان معه قال فى هذه النقطة : « ان شـارون كان سفسطائيا جـدا حينما قال : فليـذهب رأس الجسر هـذا الى الجحيم . ان الشىء المهم هو أن نتسلل خلف خطوط المصريين » . وحينما سمع الجنرال « جونـين » أن خطـة شارون هى ببساطة التخلى عن موقع العبور والتقدم داخل مناطق المؤخرة المصرية .. فانه لم يقل ان هذا شىء « سفسطائى » . ان جونين أخبر شارون

بأن عليه أن يتحصن حول رأس الجسر ويحتفظ به .. الى أن يمكن القيام بمحاولة عبور جديدة . ان المصريين سوف يدركون كم هو هدف سهل هذا الذى يقدم لهم .

ان هذه لم تكن وجهـات نظر يمكن التوفيق بينهـا . وقد انتهت المحادثة بين جونين وشارون بطريقة مهينـة . ان شارون صاح فى الراديو : « اسمع يا جونين .. اشرب من البحر » .

لقد بدأ شارون فى تجزىء قواته الى فرق اغارة صـغيرة .. وأرسلها للبحث عن مواقع صواريخ سام المصرية .. ومستودعات الوقود .. وأى شىء آخر يستحق الهجوم .

لقد ترك الاسرائيليون قوة تذكارية صغيرة عند نقطة العبور .. وبداوا يتقدمون فى تشكيلات صغيرة خـلال مزارع الزيتون وبـين أشجار الصنوبر .. ان الأجزاء الأكبر كانت تقودها دبابتان لكل مجموعة .. بعربات نصف مدرعة تتبعها . ولكن تمشيا مع الطبيعة القرصانية لهذا المشروع .. فان أى جنـدى يرى ما يستحق أن يبادر بالضرب .. فانه حر فى ذلك . وعلى سبيل المثال فان ضابطين بدءا بالسطو على عربة مصرية مدرعة . وعندما قابلا قافلة .. فانهما انتظراها حتى مرت بهما .. ثم بدآ يضربانها من الخلف .. وهربا . وحينما وجدا مستودع وقود دخلا اليه بالعربة المصرية المدرعة .. والقيا بعدد من القنابل لتفجيره .. وحينما نفد وقود العربة المدرعة . تركاها واختطفا عربة جيب عادا بهـا . ان التخندق كان هو التصرف الصحيح طبقا للخطة الأصلية .. وأى شىء غيره كان معناه ترك المهندسين بغير حماية .. ولكن شارون قرر أن عمل حفرات يتم التخندق فيهـا .. سـوف يجعل قواته الصغيرة ظاهرة .

لقد كان من المحتم .:. أن تصبح معظم الأضرار التى يوقعهـا الاسرائيليون بالمصريين .. أضرارا تافهة نسبيا ، ولكن فى منتصف النهار ــ طبقا لأقوال شارون ــ تم تدمير أربعة مواقع صواريخ سام .. بحيث أصبحت توجد فى السماء منطقة عريضة مفتوحة.. تستطيع الطائرات الاسرائيلية أن تعمل منها بغير خطورة . ان المغيرين ربما يكونون أيضا قد قعقعوا وحدات مصرية عــديدة فى سيناء باطلاق النيران من وقت لآخر فى مؤخرتهم من الضفة الغربية، وبعدها رفع العلم الاسرائيلى لفترات متقطعة بوضوح على السدود الرملية الملاصقة للقناة . وقد كان لشارون هدف من ذلك .. اذ أنه يرى ــ حسب أقواله ــ أنه « لا شىء يضعف من عزيمة جيش مثلما أن يجد عدوه خلفه » . فى نفس الوقت .. لماذا لم يكن هناك مجهود منسق لصد الاسرائيليين وتدميرهم على الضـــفة الغربية ؟ ما الذى كان يتم تسجيله على صفوف الخرائط الزجاجية المضيئة.. والتى كان مفروضا أن تبين كل تفاصيل الجبهة المتغيرة ؟.

ان الفريق أحمد اسماعيل هبط الى داخل مركز القيادة لكى يأخذ زمام الاشراف على العمليات فى اليوم الثانى من أكتوبر .. أى قبل أن تبدأ الحرب بأربعة ايام . ولقد كان يوم الثلاثاء ١٦ أكتوبر .. هو أول يوم يخرج فيه أحمد اسماعيل الى ضوء النهار مرة أخرى.. لكى يذهب مع الرئيس الســـادات الى اجتماع مجلس الشعب .. وطبقا لأقواله هو فى حديث مع الأهرام .. فانه لم يعرف شيئا عن العبور الاسرائيلى حينما دخل بسيارته متوجها الى قاعة مجلس الشعب . فى ذلك الوقت . كان قد مضى على وجود الاسرائيليين فى الضفة الغربية احدى عشرة ساعة .

وحينما لم يذكر الرئيس الســـادات هذا الغـــزو فى خطابه :. افترض الاسرائيليون أنه تعمـــد ذلك . وطبقـــا لأقوال المتحـــدثين

الاسرائيليين .. فان كان يبين وجود « مأزق سياسى » داخل مصر . وبناء على هذا الرأى الذى ثبت فيما بعد عدم صحته .. نمت تخمينات معقدة تتعلق بالدرجات المختلفة من ماء الوجه التى قد يخسرها المصريون .. والتى طبقا لها سوف يستخدمون قوات لكى يحاولوا تدمير قوة شارون .

ومن المفهوم انه لم يحدث للاسرائيليين أن توقعوا أن المعلومات عن هذه العملية لم تكن قد وصلت بعد الى القيادة العليا فى مصر. ان أقوال أحمد اسماعيل وزير الحربية المصرى نفسه تؤكد أنه عرف بأمر الغزو ولأول مرة من : « معلومات وجدتها تنتظرنى بعد عودتى من اجتماع مجلس الشعب » . لقد ذكر أن هذه المعلومات كانت تتحدث عن « تسلل صغير من الدبابات البرمائية » . ولقد اضافت الرسالة أنه فى تقدير القيادة المحلية فانه « من الممكن تدميرها بسرعة » .. وبالفعل تحركت لمواجهتها كتيبة من قوات الصاعقة المصرية . والواقع انه كان يجب ان يكون واضحا أنه بالرغم من أنها قوة صغيرة تلك التى عبرت القناة الا أن هناك شيئا ما كبيرا يتم تدبيره . ومن المذهل أن تأخر المعلومات أدى الى عدم قيام أحد بتكوين صورة مترابطة ومتكاملة لما يحدث ويحتمل أن يحدث .

ومثلما بين عبور المصريين لقناة السويس فاعلية الجيش وكفاءته .. فان استجابته للاختراق الاسرائيلى فى ١٥ و ١٦ أكتوبر كشفت بقسوة عن نقطة هامة فى الحرب . ان الجهاز العسكرى المصرى صمم ونفذ خطة كبرى مدروسة ومتقنة ومحكمة . ان لديه اداريين اكفاء .. وعددا كافيا من الرجال المتخصصين والخبراء فى الدبابات والمدافع وقاذفات الصواريخ . ولكن هاتين الصفتين تحتاجان الى صفة ثالثة من أجل استكمال النجاح فى حرب متحركة. هذه الصفة تعتبر أكثر الأعمال حيوية وهى : المعلومات . أن القائد

الألمانى روميل كتب فى سنة ١٩٤٢ مقالا بعنوان « قواعد حرب الصحراء » قال فيه : « ان سرعة رد الفعل فى القيادة يقرر مصير المعركة » . وبناء على هذا قال روميل . « ان نتائج الاستطلاع يجب أن تصل الى القائد فى أقصر وقت ممكن » و . . « وقواد الفرق الميكانيكية يجب ان يكونوا فى أقرب أماكن ممكنة لقواتهم » وفى كل من الناحيتين . . كان سوء الحظ من نصيب الجيش المصرى فى سنة ١٩٧٣ .

لم يكن هناك معادل مصرى للروايات الاسرائيلية المستمرة . ونشاط الاستطلاع . ان القادرة المصريين الصغار كانوا ببساطة يحاربون الاسرائيليين بشجاعة خارقة وكفاءة ممتازة عندما كانوا يظهرون امامهم . . ولكن النقص الوحيد هو أنهم لم يقوموا باعطاء أولوية كاملة لعمل تقارير قتال يتم تبليغها فورا الى أعلى المستويات .

ان نقص الاتصال العسكرى يرجع حقيقة الى أن الجيش ، مثل معظم المؤسسات المصرية الأخرى ، لم يتنبه بما يكفى لخطورة البيروقراطية والتعدد فى المستويات . . والأعمال الورقية .

ومع وجود كل هذا . . فالحقيقة هى أن المصريين تمالكوا أنفسهم أخيرا . . وقاموا بهجوم جديد منسق ومترابط مرتفع الكفاءة للغاية . . فى يوم ١٦ أكتوبر . لقد ركزوا هجومهم هذا على المداخل الشرقية لنقطة العبور الاسرائيلية .

ومع ان هذا الهجوم جاء متأخرا . . الا انه كان فعالا جدا ، ونجح تقريبا . لقد جاء الجيش الثانى المصرى من الشمال جنوبا بثقله كاملا . . وجاء الجيش الثالث من الجنوب شمالا . ان هدفهما كان هو نجدة وتعزيز المشاة المصريين الذين مازلوا يحتفظون بمراكزهم فى منطقة المزرعة الصينية ، ضد كل شراسة الهجوم

الاسرائيلى المتوالى بالطيران والمدفعية ، والذى لم يتوقف لحظة واحدة . ولقد كان مقدرا أن يؤدى هذا الهجوم المصرى الى وضع نهاية للخطط الاسرائيلية ... لأن انطلاق كمية خطيرة من النيران المصرية من المزرعـــة .. كان سيجعل نقطة العبـــور مجردة من الحمـــاية .

لقد دارت معركة دبابات قاسية وضارية طوال الليـــل .. كان المصريون يقاتلون فيها الاسرائيليين دبابة بدبابة . ان حلول الظلام قلل من فاعلية الصواريخ المضادة للدبابات التى يحملها المشـــاة المصريون ، ولكن ، لان المسافة قريبة فى الليل .. فان الظلام أدى أيضا الى تقليل فاعلية القذائف بعيدة المدى التى تطلقها الدبابات الاسرائيلية .

انها كانت معركة معقدة .. تعرضت فيها الدبابات الاسرائيلية الى نيران مصرية من اتجاهين وأحيانا من ثلاثة اتجاهات فى وقت واحد . ولم تكن لدى المهندسين الاسرائيليين عنـــد ضفة القناة صعوبة فى تقييم الأهمية العملية لهذه المعركة . لقد قال جاويش ملاح ببساطة : ان المصريين أغلقوا الطريق خلفنا .

لقد أوقف المهندسون الاسرائيليون عملية النقل خلال الليل .. ولكن مازال ينقصهم الوقت اللازم لاقامة جسر على القناة . وعند الفجر ، بينما معركة الدبابات مستمرة بضراوة ، بدأوا ينقلون المهمات والمعدات من جديد . ولكن المدفعية المصرية تدخلت فى نفس اللحظة تقريبا . ان احد الجنود الاسرائيليين المشتركين فى المعركة قال : « اننى كنت فوق نقـــالة مائية حينما وصلنا الى الضفة الغربية . لقد كانت النقالة تحمل عربتين نصف مدرعتين وسيارة جيب . وبالضبط ، فى نفس اللحظة التى وصلت فيها هذه الشحنة الى الشاطىء الآخر ، بدأ قصف المدفعية المصرية ، ان القذيفة

الأولى سقطت بعيدا عن المياه بحوالى عشرين مترا . القذيفة الثانية سقطت الى جانب النقالة المائية على الشاطىء تماما » .

أن الجاويش « زفى » .. من نيتانيا .. وجد أن طقس يوم الثلاثاء المناسب « للرعى » .. قد اختفى بخشونة وقسوة . انه يقول : « مع صباح الأربعاء ، سيطر المصريون بالنيران علينا فى كلتا الضفتين . ففى اللحظة التى كانت تبدأ فيها نقالة مائية فى الخروج من ضفة متجهة الى الضفة الأخرى .. فانها كانت تجد أمامها وفوقها سدا مخيفا ومرعبا من المدفعية المصرية . واذا وصلت الى الشاطىء الآخر .. فانهم كانوا يقصفونها من جديد ».

الآن ، بعد ان تحرك المصريون ، أصبح الاسرائيليون يتساقطون قتلى وجرحى بأعداد كبيرة وضخمة . وسرعان ما أصبحت الضفتان مفروشتين بالأسماك الميتة ، التى قتلتها صدمة القذائف المتفجرة.

أن القذائف المصرية بدأت تغرق النقالات المائية الميكانيكية الاسرائيلية . ويروى أحد الضباط الاسرائيليين الذين اشتركوا فى هذه المعركة ذكرياته قائلا : « لقد رأيت معجزتين تحدثان أمامى .. ان قائد فصيلتنا تشبثت قدمه فى كسر حدث بالنقالة المائية حينما أصابها المصريون وبدأت تغرق . اننى أعتقد أنه كان الشخص الوحيد الذى هبط الى قاع القناة وخرج منها بمجرد قدم مكسورة ، لقد غرق تحت المياه .. مما حرر قدميه .. وكان خروجه بمجرد قدم مكسورة هو معجزة . الحالة الأخرى..هى حالة أحد ملاحينا الذى لم يكن يعرف السباحة .. لقد بدأ يغرق مع نقالته .. وفى تلك اللحظة طفا خارج كابينة القيادة حزام نجاة .. والتصق به محيطا له من أسفل .. مما دفعه الى أعلى المياه » .

ولقد كان الموقف بوضوح هو أن اسرائيل سوف تستميت تماما

فى هذه المعركة لأنها سـوف تكون العامل المخفف الوحيد الذى ستخرج به فى مقابل النجاح الكامل الذى حققه المصريون طوال الأيام العشرة الأولى . ان هذا يفسر الخسـائر الضخمة التى تحملوها .. والمحاولات المستميتة التى قاموا بها بواسـطة كل انواع الأسلحة ..

وهكذا .. فى بطء .. وبالدم .. انخفضت المقاومة المصرية عند المزرعة الصينية ، وتراخت النيران عند نقطة العبور .. بما أصبح يكفى المهندسين الاسرائيلين أن يضعوا أجزاء الجسر فى أماكنها من اجل اقامة جسرهم الذى تأخرت اقامته كثيرا . وحتى بهذا الشكل .. فان نيران المدفعية المصرية وضربات السلاح الجـوى المصرى من وقت لآخر .. كانت تجعل مهمتهم امتحانا فى الأعصاب ان الضابط الاسرائيلى الذى قاد فرق اقامة الجسر قال : « لقد كنا تحت النيران طول الوقت .. وكانت نيران المصريين خطيرة جدا . ان جنودنا كانوا هدفا للمدافع والطائرات فى المواقع المجاورة .. ولا يوجد بيننا من لم يفقد صديقا فى هذه المعركة » .

وقال جندى اسرائيلى آخر : « حينما تأتى طائرة فوقك .. فان هذا يرعبك . أن كل شخص لا يطلق النيران على الطائرة يغوص فى الأرض ، ويدفن رأسه فى الرمال . ولكن ، حينما جاءت طائرات الميراج .. فان الطائرات المصرية كانت تدخل معها فى قتال طائرة بطائرة . أن الناس .. وقفوا على الضفة يصفقون مثلما فى مباراة كرة قدم » .

أن مثل هذا الغطاء الجوى الاسرائيلى كان ممكنا فقط لان قوات شارون مزقت ثقبا فى مظلة « سام » . أن هذا ربما كان هو أحسن سند لشارون فى تحديه لجونين .

برغم ذلك .. فأن الحقيقة هى أن الخطة الاسرائيلية فشلت أصلا ، وبشكل درامى .. ولم يتم رتقها بالضرورة الا بالقدرة القتالية للمجموع الاسرائيلى . ففى حوالى منتصف نهار يوم الأربعاء ١٧ أكتوبر — أى ثلاثون ساعة بعد الموعد المقرر — أقيم الجسر فى مكانه .. وبدأ أول واحد فى ألوية الدبابات الاسرائيلية الثلاثة التى يقودها « بريف آدان » يعبر الى الضفة الأخرى .

وطوال باقى الأسبوع ، فأن الجسر ومحيطه الكامل .. ظل مكانا محفوفا بالمخاطر . ولكن الهجمات المصرية كانت متميزة بعنادها وتصميمها .. بأكثر مما تميزت بتناسقها . وهنا يقول الفريق أحمد اسماعيل وزير الحربية المصرى : « أن المعلومات تقطعت نتيجة اعتبار يتصل بتبادل فى المسئوليات أجريناه فى ظروف طارئة فى بعض القيادات » . بعدها بأيام قليلة ، أصبح معروفا أن قائد الجيش الثالث عانى من أزمة قلبية .. وعين قائدا آخر محله .

* * *

وكما عرفنا من نتيجة الحرب . فان هذه المبادرة الاسرائيلية غرب القناة قد حققت — فقط — نجاحا فى الحد الأدنى من أهدافها السياسية ، أن الهدف السياسى الرئيسى من العملية كلها كان يرمى الى تحقيق نصر لرفع الروح المعنوية الاسرائيلية . . والحصول على ورقة للمساومة قبل أن يفرض الضغط المتزايد من جانب القوتين الأعظم وقف اطلاق النار .

وحتى فى هذه الحدود .. فان الأمر احتاج الى استغلال اسرائيلى وغد وسافل لانتهاكات وقف اطلاق النار — حينما جاءت الهدنة تدريجا فى ٢٢ أكتوبر — من أجل نقل هذا النصر الى اسرائيل . وبشكل اجمالى .. فان جوهر عملية الضفة الغربية كان هو الوقت .

ان الضربات المصرية أخرت الاسرائيليين كثيرا جـدا وجعلتهم يدفعون ثمنا باهظا للغاية .. ولكن المسئولية الرئيسية للتأخير تكمن داخل الجيش الاسرائيلى نفسه . وفى الجدل السياسى المستمر بين الجنرالات الاسرائيليين .. فان شارون يلوم القيادة الاسرائيلية العليا .. ويقول أن أنهيار اعصاب القيادة العليا كان هو السبب فى التأخير . انه يؤكد أن امداده بدعم أسرع يوم الثلاثاء .. كان هو الذى سيؤدى الى الاختلاف الحيوى .

ومن المثير للجدل .. ان استجابة شارون الجريئة للموقف فى صباح الثلاثاء كانت صحيحة تكتيكيا . بالرغم من أن الذين يحطون من شأنه داخل القيـادة الاسرائيلية العليا نفسها يستمرون فى اعتقادهم بأنها كانت مجرد مغامرة لم تنجح الا بسبب حسن الحظ. ومن المشار اليه هنا .. أن فشل شارون الخاص باقامة الجسر طبقا للتوقيت المقرر .. هو السبب الذى كلف اسرائيل مثل هذا الوقت الكثير .. وهذا العـدد الكبير فى القتلى .. وهذا الثمن الفادح فى العملية كلها .

فلسطين .. أو إسرائيل؟

◇ جون كيمش

هذا الكتاب ..

وهذا المؤلف

● صدر هذا الكتاب فى لندن قبل حرب اكتوبر بشهرين . صدر بقلم الكاتب اليهودى الانجليزى « جون كيمش » . ان كيمش قال الكثير فى كتبه السابقة عن العرب واسرائيل . قال الكثير فى كتابه « الأعمدة السبعة المنهارة » وقال الكثير فى كتابيه « الطرق السرية » و جانبى التل » .

قال « كيمش » الكثير من قبل فى كتبه السبعة . كتب أصدر معظمها باسمه .. واصدر بعضها بالاشتراك مع أخيه « دافيد كيمش » .

ومع ذلك .. فان ما يريد « كيمش » أن يقوله فى هذا الكتاب الجديد قليل ومحرض : ان الموقف فى الشرق الأوسط كان يمس دائما أمن ومصالح الدول العظمى . ولكن السنوات الست الأخيرة شهدت تغيرا فى طبيعة علاقة الدول العظمى بدول المنطقة .

فمن قبل كانت كل من اسرائيل والدول العربية تبحث عن حليف لها من بين الدول العظمى .. يؤيدها فى صراعها ضد الجانب الآخر . ولكن الآية انقلبت بعد التوازن الذرى وعصر الوفاق . فى هذه المرة أصبحت الدول الكبرى هى التى تبحث عن حليف لها من بين دول المنطقة . ان التوازن الذرى أدى الى حدوث شك فى قدرة الدول العظمى على التصرف المنفرد — وبشكل مباشر — فى مناطق كثيرة .. من بينها الشرق الأوسط .

فى هذا الوضع تبحث كل دول عن طرف محلى تكلفه بمهمة الدفاع عن مصالحها بالمنطقة .. نيابة عنها .. وتفويضا منها .. وخدمة لها ، بمعنى : ان أمريكا لها اليوم مصلحة أساسية — يقول المؤلف — فى وجود اسرائيل قوية ورادعة ومعربدة فى المنطقة .. بقدر ما لاسرائيل هى الأخرى مصلحة فى ضمان استمرار التأييد الأمريكى السياسى والعسكرى . و ... حينما تحدث مشاكل بين الاثنتين، فلن يكون سببها تغيرا فى الموقف الأمريكى نحو اسرائيل . ولكن السبب سوف يكون فشلا اسرائيليا فى اقناع امريكا بقدرتها — قدرة اسرائيل — على حماية المصالح الأمريكية فى المنطقة .

ولقد بنى « جون كيمش » تحليلاته .. وأصدر أحكامه .. وأقام تنبؤاته .. بناء على موقف سابق لشهر أكتوبر سنة ١٩٧٣ . بناء على انتصار اسرائيلى واضح فى سنة ١٩٦٧ ، ومساندة يهودية عالمية كاسحة بعد ١٩٦٧ ، ووفاق دولى محسوب بعد ١٩٧٢ .. واطمئنان اسرائيلى كامل الى التفوق النوعى فى ميدان القتال .

ولكن .. عملا اقتصاديا عربيا مشتركا غير من هذه الحسابات كلها . حسابات المستقبل . وعملا سياسيا عربيا غير من هذه الحسابات كلها . حسابات الدول الكبرى .

وعملا عسكريا عربيا تم فى ٦ أكتوبر ، غير من هذه الحسابات كلها . حسابات اسرائيل .

انها العامل الوحيد الذى لم يدخل فى حسابات أحد — حرب أكتوبر . حرب لم يتنبأ بها المؤلف .. حتى كمجرد احتمال .

هنا يصح أن الفت النظر الى مسألة هامة . أن تحليلات الكتاب لعلاقة مصر بالدول العظمى فى السنوات الثلاث الأخيرة .. توضح

لنا مدى دقة وتعقيد الظروف التى عملت فيها الوطنية المصرية خلال تلك الســـنوات .

لقد فكرت الوطنية المصرية فى الحرب ، واعدت لها . وبادرت بها .. فى ظل تيار كاسح من المصالح الدولية المتحالفة ضد المنطقـــة أو ــ لو افترضنا حسن النية ــ الصامتة على استمرار الاحتلال الاسرائيلى لأراضينا . فى هذا الاطار .. لم يكن مطلوبا من الوطنية المصرية أن تواجه الأعـــداء فقط .. ولكنهـــا اضطرت فى بعض المواقف الى مواجهة الأصدقاء أيضـــا .

صعوبة جديدة اضيفت الى الصعوبات التى واجهت مصر فى ٦ اكتوبر .. ولكنها ــ فى الوقت نفسه ــ رصيد جديد يضـــاف الى ما استطاعت السياسة المصرية أن تحققه . وفى الوقت الذى تصور فيه الجميع أن الموقف يثير اليأس ، تصرفت السياسة المصرية على أساس أن الموقف يثير التحدى.. وبغير هذا ..كانت حرب أكتوبر ستصبح مستحيلة .

انها الحرب التى هزت الميـــاه الراكدة ، بعمـــق .. وخلخلت الحسابات كلها .. بشدة . حسابات الأعـــداء والأصدقاء على الســـواء .

وهذا هو الشىء الذى فات على مؤلف هذا الكتاب أن يحسبه .

وربما لو أعاد « جون كيمش » النظر فى كتابه اليـــوم ــ وعلى ضوء نتائج العمل العسكرى المصرى السورى المشترك فى شـــهر اكتوبر ١٩٧٣ ــ ربما لن يغير فى كتابه شيئا على الاطلاق .

النهـــاية فقط .. ! ●

فلسطين .. أو أسرائيل ؟

مع قدوم عام ١٩٧٣ ، أدى ميزان الرعب النووى الى أرغام الدول الأعظم الى أن تصبح نباتية فى طعامها ، أنها أصبحت تستطيع أن تخوض الحروب بالوكالة فقط .. تخوضها فى الهند الصينية ، فى شبه القارة الهندية ، فى البحر الأبيض ، وفى الشرق الأوسط . وحتى هذا الأمر .. أصبح أقل أغراء مع وجود حالة الانفتاح والتعادل الاستراتيجى وظهور جمهورية الصين الشعبية فى حلبة الدول العظمى . لقد تغيرت الأولويات . أن سياسات المستقبل لم يعد ممكنا أن تعتمد على الوسائل التقليدية . لقد كانت تجربة القوى الأعظم فى الاقتران بحلفائها فى الشرق الأوسط خلال الصيف الساخن لسنة ١٩٦٧ مصفاة حقيقية . لقد كانت تلك هى بداية الدبلوماسية الجديدة . أنها كانت أيضا بداية قيام كل الأطراف المعنية فى الشرق الأوسط بأعادة ترتيب أنفسها .. ومراجعة كل مفاهيمها السائدة .. والقائمة منذ صدور وعد بلفور فى سنة ١٩١٧ . أن الحرب العربية الاسرائيلية فى يونيو ١٩٦٧ كانت هى العامل المساعد الذى أدى الى كل هذه التفاعلات . انها كانت حربا قصيرة ، ولكن اضمحلال وتساقط الواقع القديم الذى أدت اليه كان بطيئا .. بل بطيئا جدا .

فبرغم التدفق اللانهائى للحقائق والمذكرات والتقارير عن تلك الحرب ، فان اكثر النواحى خروجا على المألوف فى حرب الأيام الستة هو أنه بعد ست سنوات من وقوعها .. ماتزال هناك ألغاز كثيرة فيها لم يتم تفسيرها . أن كل الأدلة تشير الى أن السلطات المعنية قد قررت الاحتفاظ بهذه « الألغاز » طى الكتمان .. وبعيدا عن اى ارشيف .. لسنوات طويلة أكثر .

مع ذلك ، فلقد كانت تجرى . فى نفس الوقت — استقصاءات وتحقيقات يقوم بها كل من الروس ، والأمريكيين ، والمصريين ،

والاسرائيليين .. بهدف استيضاح تلك الاسئلة المتعلقة بحرب الأيام الستة . .لكى يكون ذلك أساسا تعتمد عليه سياسات المستقبل. ولقد كان التحقيق الذى يجرى فى الاتحاد السوفيتى نموذجا لهذه العملية .

ان الرجل الذى تم اختياره فى الاتحاد السوفيتى للقيام بمهمة اكتشاف الاخطاء التى وقعت .. كان هو الرجل الذى وجد فى قلب الأحداث بتل أبيب ابان الحرب وقبلها . هذا الرجل هو «تشوفاخين» السفير السوفيتى لدى اسرائيل قبل الحرب وخلالها . أن معظم المسئولين الأمريكيين والاسرائيليين يعتبرون « تشوفا خين » هو المسئول شخصيا عن نشوب الحرب . لقد قيل وقتها أن « تشوفاخين » كان أداة فيما يتعلق بتقديمه النصح الى موسكو والقاهرة خلال شهر مايو سنة ١٩٦٧ .. وكذلك المعلومات التى قالت أن اسرائيل تستعد لشن هجوم كبير على سوريا .. وهى المعلومات التى لم يكن يوجد مبرر معقول لوجودها .

أن « تشوفاخين » اختفى من الحياة العامة بعد عودته الى موسكو فى صيف سنة ١٩٦٧ . وكان الافتراض السائد وقتها هو أن هذا الاختفاء هو بمثابة عقاب له على الخطأ الفادح فى تقديراته. ولكن .. لم تكن هذه هى الطريقة التى رأى بها القادة السوفييت دوره فى اسرائيل . لقدا كان هناك شك لدى بعض المحللين الغربيين فى أن « تشوفاخين » قد تصرف بناء على تعليمات من وزارة الدفاع فى موسكو عندما أرسل تقاريره عن الهجوم الاسرائيلى الوشيك ضد سوريا . فلأسباب خاصة بهم ، كان زعماء الكرملين مهتمين للغاية بالحصول على صورة كاملة لما حدث خلال شهرى مايو ويونيو، ومن الذى كان مسئولا فعلا عن تقارير « تشوفاخين » .. لأنه حينما عاد الى موسكو فى سنة ١٩٦٧ .. وضعوه فى ادارة خاصة بمعهد

موسكو للدراسات الشرقية . وفى تلك الوظيفة الجديدة تقاضى «تشوفاخين» معاشا أعلى من مرتب الوزير فى الحكومة ،وبامتيازات استثنائية ، وسلطة للوصول الى كل المصادر الرسمية . لقد كان مكلفا باعداد تقرير مفصل عن أسباب حرب الأيام الستة ، والشكل الحقيقى الذى اتخذته أحداثها . وحتى الآن .. لا يبدو أن تقرير « تشوفاخين » سوف يكون قابلا للنشر .. ولكن من المؤكد أن أعضاء المكتب السياسى قد قرأوه باهتمام .

فبصرف النظر عما فعلته الحرب بالنسبة لطرفيها الرئيسيين — مصر واسرائيل — فان نتائجها الأكثر أهمية فى المدى الطويل هى شىء يهم الاتحاد السوفيتى ويتعلق به بالدرجة الأولى . أنها كانت تجربة جارحة للكرملين ، فكل المعلومات والحسابات لديه ثبت أنها كانت خاطئة : عن مصر ، وعن اسرائيل ، وعن سياسة الولايات المتحدة . وبالنسبة لمصر .. كان هناك حساب جزئى للذين اعتبروا مسئولين عما حدث . أما فى موسكو . فلم يكن دور الحساب قد جاء بعد .. وكل الادلة تشير الى ان المكتب السياسى يستعد لمثل هذا اليوم .. بصرف النظر عن المدى الذى سيتأخر اليه.واذا كان هذا قد حدث فى الاتحاد السوفيتى على المستوى المحلى... فانه على المستوى الخارجى استمر بريجنيف فى السخاء على مصر بالمساعدات على نطاق لم يكن له مثيل من قبل ، ومن المقدر أن قيمة المساعدات السوفييتية ، عسكرية وغير عسكرية ، قد بلغت خلال السنوات الخمس التالية على كارثة ٥ يونيو .. ما قيمته ٨ بلايين دولار .

ان بريجنيف قد أخذ لنفسه أيضا الاشراف الشخصى على علاقات الاتحاد السوفيتى بمصر ودول الشرق الأوسط . لقد ظهر هذا بوضوح كامل لأول مرة من الأحداث الدبلوماسية التى وقعت خلال الـ ٣٣ يوما ما بين ٢٥ يناير و ٢٦ فبراير سنة ١٩٧٢ ، وهى التى غيرت تماما المفهوم الاستراتيجى الدبلوماسى للشرق الأوسط.

لقد أقامت أمريكا واسرائيل افتراضاتهما — على خطأ كما سيتضح — على أساس ان الزعماء السوفيت قد اتخذوا قرارا بالنسبة للبادرة الأمريكية التى عكسها اتفاق جولدا مائير ونيكسون فى ديسمبر ١٩٧١ ، وبالنسبة لمحادثات نيكسون التالية فى بكين . ان السوفيت قرروا — هكذا بدا وقتها — ان يحتفظوا برد فعلهم.. انتظارا لاتمام زيارة نيكسون الى موسكو فى مايو ١٩٧٢ .

ومع ذلك ، فان الزعماء السوفييت ، بدلا من أن يحتفظوا بالسلبية والهدوء .. قاموا فى تلك الـ ٣٣ يوما بمجهود دبلوماسى مركز لم يسبق له مثيل فى تاريخ السياسة الخارجية السوفييتية . أن الطريقة التى تم بها تنفيذ هذا الهجوم السوفيتى المضاد للمبادرة الأمريكية تنم عن قدر قليل من الارتجال ، فمن الناحية الظاهرية ، بدت المسألة باعتبارها سلسلة من الاجراءات الخاطفة التى أحكم تدبيرها . ولكنها كانت فى الواقع عملية كاملة أحكمت حلقاتها . أن كل الدلائل تشير الى وجود يد قوية موجهة وعقل مرن خلفها — وهذا مزيج عظيم من الدبلوماسية . وفى الواقع .. كان هناك دليل كاف على أن ليونيد بريجنيف السكرتير العام للحزب الشيوعى السوفيتى ، هو المهندس الرئيسى لدبلوماسية شهر أكتوبر هذه .

فبينما كان الزعماء السوفيت يستعدون لمؤتمر القمة مع نيكسون فى موسكو .. فانهم كانوا يقيمون مراكز مساومة قوية دبلوماسيا وسياسيا . ولتحقيق هذا الهدف فانهم حاولوا — مع أشياء أخرى — أن يقوموا بتحييد الوجود الامريكى الفعال فى البحر الابيض والشرق الأوسط .. بل وشله لو أمكن ذلك . لقد رأوا أن عليهم فى سبيل تنفيذ ذلك ان يقوموا باحتواء وحصر الأداتين الرئيسيتين لسياسة الولايات المتحدة فى المنطقة : الأسطول السادس الامريكى .. والقوة العسكرية الاسرائيلية . وهكذا بدأ السوفيت يسعون

نحو هذا الهدف خلال شهرى فبراير ومارس سنة ١٩٧١ .. وذلك عن طريق تنفيذ سياسة محسوبة .. بهدف اقامة مراكز جديدة للقوة السوفيتية فى الشرق الأوسط والبحر الأبيض .

ولقد احتاج الزعماء السوفييت الى بعض الوقت لكى يروا المفاجأة غير السارة .. التى خرجوا بها من محادثات جولدا مائير ونيكسون فى واشنطن فى ٢ ديسمبر ١٩٧١ . لقد ادت تلك المباحثات الى اتفاق على توريدات جديدة من السلاح الأمريكى لاسرائيل ، وهى توريدات أكبر جدا مما توقعه السوفييت ، كذلك فوجىء السوفييت باتفاق جديد يتعلق بدور اسرائيل فى المبادرة الدبلوماسية الأمريكية. وفى البداية ، غطت أحداث الحرب الهندية الباكستانية على الآثار العاجلة لتفاهم جولدا مائير ونيكسون . وسرعان ما بدأ يتضح أن هذا التفاهم قد ترك كلا من أمريكا واسرائيل فى مركز قوى جدا ، بالنسبة للصراع العربى الاسرائيلى .

ان الزعماء السوفييت لم يقوموا بتحركهم المضاد الا فى نهاية شهر يناير سنة ١٩٧٢ .. وكانت طريقتهم فى ذلك معوجة . انهم قاموا أولا بدعوة زعماء دول حلف وارسو الى مؤتمر فى « براغ » يعقد فى ٢٥ يناير . وبعد يومين من الاجتماع .. خرج المؤتمر ببيان رئيسى يغطى كل مجالات الدبلوماسية السوفيتية ، وكان فعلا بيانا واحدا من تلك البيانات النموذجية على الطريقة السوفييتية . لقد جاء فى البيان أن « الحدود القائمة حاليا بين الدول الأوربية ، بما فى ذلك الحدود التى تمخضت عنها الحرب العالمية الثانية ، هى غير قابلة للاعتداء » . بعد ذلك أكد البيان نبذه لاستخدام القوة .. وتأكيده لمبادىء التعايش السلمى بين كل الدول .

ان كثيرين من المراقبين رأوا أنه ليس من المعقول أن يجتمع

زعماء دول حلف وارسو لكى يتحدثوا فى عموميات مثل هذه . لابد اذن أن تكون هناك أمور أكثر جدية وتحديدا من ذلك .

وفعلا . فخلال أسبوع واحد من اجتمـــاع « براغ » .. بدأ الهجوم الدبلوماسى السوفيتى ، المتعلق بالشرق الأوسط .

ففى الثانى من فبراير سنة ١٩٧٢ .. « قام الرئيس السادات بزيارة ودية للاتحاد السوفيتى » .. على حد تعبير البيان الرسمى الذى صدر عند انتهاء الزيارة بعد يومين . لقد كان هذا أسلوبا غير عادى ، وغامضا ، فى وصف وصول الرئيس السادات .. بالمقارنة مع حالات الزعماء العرب الأخرين الذين تبعوه فى ذلك الشـــهر . أن البيان لم يقل أن الزيارة كانت بدعوة من الحكومة السوفييتية . وقد حملت باقى فقراته نفس الطابع . لقد قال البيان أن المباحثات المشـــتركة قد جرت « .. فى جو من الثقة ، والفهم الكامل ، والصداقة » . مع ذلك فان البيان لم يتضمن أى اشارة الى الالتزام السوفيتى ذى الجانب الواحد .. الذى كانت تعلنه دائما جميع البيانات السوفييتية المصرية المشتركة . وعلى العكس من ذلك . ففى هذه المرة .. كان هناك تأكد على أن كل شىء سوف يتم بالمشاركة بين مصر وروسيا على أساس السعى لحل مشـــكلة الشرق الأوسط بناء على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ .. وبواسطة جهود السفير « جونار يارنج » .. وليس جهود الولايات المتحدة .

وبعد رحيل الرئيس السادات بستة أيام وصل الى موسكو فجأة وفد عراقى برئاسة صـــدام حسين التكريتى نائب رئيس مجلس الثورة العراقى . وعندما صدر بيان سوفيتى — عراقى مشترك عن هذه المباحثات فانه لم يشر الى قرار مجلس الأمن . وبدلا من ذلك نص البيان العراقى السوفيتى على « .. أن السلام الدائم فى الشرق الأوسط لا يمكن تحقيقه بغير تحرير كل الأراضى العـــربية

المحتلة نتيجة للعدوان الاسرائيلى الامبريالى..وبغير ضمان لتحقيق المطالب المشروعة لشعب فلسطين » . بعد ذلك نص البيان على فقرة غريبة سوف تتكرر بعدها بعشرة أيام فى بيان سوفيتى ليبى مشترك . كانت تلك الفقرة تنص على .. « أن العراق عبرت عن تقديرها لقرارات حلف وارسو .. وترى انها مساهمة هامة لتعزيز السلام فى أوربا » .

كانت تلك الفقرة اشارة الى شكل الأشياء التالية ، والتى تعبر عن رغبة الروس فى أن تشارك دول الشرق الأوسط فى تشكيل سياسة الأمن الاوربى .

وقبل أن تنتهى المباحثات بين الوفدين السوفيتى والعراقى ، غادر الماريشال اندريه جريشكو وزير الدفاع السوفيتى موسكو ، على رأس وفد سوفييتى للتباحث مع الصومال — التى تقع على الجانب الآخر من البحر الأحمر فى مواجهة عدن ، وعبر مدخل البحر الأحمر والمحيط الهندى . ان جريشكو غادر الصومال فى ١٨ فبراير . وقد أعلن رسميا أن مباحثاته أدت الى « .. فهم كامل متبادل بالنسبة للتعاون السوفيتى الصومالى المشترك وتنميته الى الحد الأقصى » . بعدها ذهب جريشكو الى القاهرة فيما وصف بأنه « زيارة ودية رسمية » . ان جريشكو قضى ثلاثة أيام فقط فى مصر ، وبعدها صدر بيان مشترك عبر عن « .. الرضا الكامل عن تطور التعاون بين القوات المسلحة لكل من مصر والاتحاد السوفيتى»

ومع عودة جريشكو الى موسكو فى ٢١ فبراير .. كانت هناك بعثة سوفيتية أخرى تغادر موسكو ، متوجهة فى هذه المرة الى دمشق . لقد كانت البعثة برئاسة « كيريل مازوروف » النائب الأول لرئيس الوزراء .. وكان من بين أعضائها الأربعة عشر .. نائب

وزير الدفاع والجنرال سوكولوف . وفى أول يوم كامل قضته بعثة « مازوروف » فى دمشق . تم توقيع اتفاقية مع الحكومة السورية لتقديم مساعدات فنية واقتصادية سوفيتية . ولكن الغرض الحقيقى للبعثة .. لم ينشر الا بعد الأيام الاربعة التالية من المباحثات .

ان المباحثات لم تركز فقط على المسائل الدبلوماسية والعسكرية المعتادة .. ولكنها اظهرت أيضا ان الاهتمام السوفيتى الجديد فى المنطقة له مضمون سياسى قوى .. لأن المباحثات أظهرت مدخلا سوفيتيا جديدا للعمل على استقرار النظم السياسية للدول الصديقة والمهمة للاتحاد السوفيتى . وكما حدث مع العراقيين ، فان البيان المشترك لم يشر الى قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ . وقد نص البيان على تعريف وتحديد المساعدة السوفيتية .. بحيث تحقق «المقاومة العربية العادلة للشعوب العربية من أجل انسحاب اسرائيل ». بعد ذلك لمس البيان مناطق الصراع مع الولايات المتحدة ، كما فعل البيان العراقى من قبل ، وعبر عن مساندة ، والتعاطف مع، قرار دول حلف وارسو من أجل التحضير لمؤتمر للأمن الأوربى ، ولكن ، بعد هذا .. جاءت الفرقعة . ان البيان قال — وهذا غير مألوف بالنسبة لهذا النوع من البيانات السوفيتية — أن الجانبين قاما أيضا « .. بتوقيع وثائق هامة تتعلق بتطور تعاونهما الاقتصادى .. وبالعلاقات بين الحزب الشيوعى السوفيتى وحزب البعث .. وبالمساعدة فى تقوية الجهاز الدفاعى للجمهورية العربية السورية » .

ان السرعة غير المألوفة التى كانت تعمل بها الدبلوماسية السوفيتية أصبحت ظاهرة فى دمشق بعد عشرة أيام من توقيع هذه « الوثائق الهامة » . ففى ٧ مارس أعلن زعماء البعث فى دمشق أنه تم تشكيل « جبهة تقدمية قومية سورية » .. وتشمل كل التجمعات السياسية ، بالاضافة الى حزب البعث الحاكم . أن الحزب

الشيوعى السورى ، والاتحاد الاشتراكى العربى ، والحركة الاشتراكية العربية .. قد ذكرت بالاسم ، كمؤسسين للجبهة الجديدة . وفى نفس المساء ، أذاع نائب الرئيس السورى النص الكامل لميثاق الجبهة ، الذى حدد سلطتها وسياستها .. وكليهما يتمشى مع المناقشات مع بعثة « مازوروف » .

ان الجبهة القومية قد ألغت فى الواقع سلطة الحكومة فى قطاعات حكومية حيوية . فطبقا للمادة الأولى .. فان مهمتها هى « تحرير الأراضى العربية المحتلة بعد حرب يونيو ١٩٦٧ » . ان هذا الهدف له الأولوية فوق كل المهام الاخرى . أما المادة الثانية ، فقد أعلنت أن الجبهة سوف تكون مستقبلا هى السلطة الأصيلة فى « تقرير مسائل الحرب والسلام » . المادة الثالثة أعطتها سلطة تنفيذية فى كل ما يتعلق بالتخطيط الاقتصادى . ان السياسة المستقبلة للجبهة قد عبرت عنها المادة السادسة بتفصيل أكبر .. حيث قررت ضرورة عودة الحقوق القومية الكاملة لشعب فلسطين فى أرضه . أن هذا البند قد كرر صيغة الخرطوم الشهيرة من أنه « .. لن يكون هناك سلام أو تفاوض مع الدولة الصهيونية .. ولا تنازل عن أى جزء من الأراضى العربية المحتلة » . وأكثر من ذلك .. قرر ميثاق الجبهة اعطاء مساندة كاملة للمقاومة الفلسطينية ، وحمايتها ضد الهجوم ، واعطاءها « حرية الحركة » . وأعلن الميثاق أن « الصهيونية العالمية وربيبتها اسرائيل .. هما العدو الأول والمباشر لوطننا العربى . أن المعركة الرئيسية هى بين وطننا من ناحية ، وبين الصهيونية واسرائيل والاستعمار العالمى الذى تتزعمه الولايات المتحدة من ناحية أخرى » .

وبعدها جاء الجانب الآخر من العملة . أن الدول الاشتراكية الصديقة ، وفى مقدمتها الاتحاد السوفيتى ، هى السند الرئيسى

للجمهورية العربية السورية . أن هذه الدول هى التى « تقدم كل أنواع التأييد العسكرى والاقتصادى والسياسى » .

ولكن ، حتى بينما الصفقة السورية تتم فى دمشق ، اتخذ السوفيت خطوة اخرى فى البحر الأبيض ، ووسط ظروف متناقضة بعض الشىء .

ففى الساعة الثانية عشرة والنصف مساء التوقيت هنا مهم يوم ٢٣ فبراير ١٩٧٢ ، أعلنت موسكو أن الرائد عبد السلام جلود رئيس الوزراء الليبى قد وصل من ليبيا على رأس وفد رسمى ليبى يضم وزير البترول ونائبا لرئيس الاركان لم يعلن اسمه . وفى مطار موسكو قال الرائد جلود أن الغرض من زيارته ـــ وهى أول اتصال من هذا النوع مع الاتحاد السوفيتى ـــ هو « تقوية الروابط بين الثورة الليبية والاتحاد السوفيتى » . بعدها أضاف أنه ينظر قدما الى « نتائج سياسية واقتصادية وعسكرية » تتحقق من محادثاته . وفى نفس المساء ، فى الساعة التاسعة ، قامت وزارة الخارجية الليبية ـــ التى كانت تحت الاشراف الشخصى للعقيد معمر القذافى رئيس مجلس الثورة ـــ باصدار بيان يمكن اعتباره واحدا من أكثر البيانات عجبا وغرابة فى الدبلوماسية العربية . لقد كان من الواضح أنه أعد بعناية .. وقد حظى بأكبر قدر من الاعلام فى صحف واذاعة الحكومة الليبية . لقد قال البيان « : لقد أصبح من الثابت ان العراق الشقيق على وشك ابرام اتفاقية مع الاتحاد السوفيتى . أن الجمهورية العربية الليبية تعبر عن اهتمامها البالغ بهذا الاتجاه الذى يعود بالعراق الى أيام حلف بغداد والمعاهدات الاستعمارية الغربية .. اننا ، مانزال نأمل فى أن يقاوم العراق هذا الاتجاه ويحافظ على ما بقى من كرامته » .. ان الرسالة كانت واضحة : أن الدول العربية يجب أن تكون بعيدة تماما عن أى تورط، سواء مع المعسكر الشيوعى .. أو مع القوى الغربية .

وفى اليوم التـــالى ، وأتت الرائد جلود فرصة لكى يشرح هذا التصرف الغريب من رئيسه ، حينما اجتمع برئيس الوزراء السوفيتى كوسيجين .. فى محادثات استغرقت أكثر من ثلاث ساعات . أن الروس وضعوا بيانا اختيرت كلماته بحرص ، بعد هذه المناوشة ، وقال البيان أن كوسيجين قد « استقبل » جلود .. وأنه « جرى بينهما حديث ودى ناقشا خلاله تطور العلاقات السوفيتية الليبية ومشاكل دولية ملحة مثل الموقف فى الشرق الأوسط » .

وبعدها بيومين ، وقع الوفد الليبى اتفاقية بتروليـــة تتعـــلق بمساعدة فنية روتينية ، مع نائب الوزير السوفيتى « نوفيكوف » . بعدها كان من المفروض ان يغادر جلود موسكو الى بوخارست لمزيد من المباحثات البترولية مع الرومانيين .. ولكن رحيله تأخر . أن شيئا لم يحدث لمدة ثلاثة أيام . وبعدها قال بيان قصير أن جلـــود اجتمع مع الرئيس السوفيتى بودجورنى يوم ٢٩ فبراير ، أن ما لم يقله البيان هو انهما تحدثا لمدة خمس ساعات و ١٥ دقيقة ـــ وهذا رقم قياسى حتى بالمقاييس السوفيتية . أن موضوعهما الرئيسى كان هو العلاقات بين ليبيا والاتحاد السوفيتى فى « مختلف الميادين » .. وكذلك القضايا الدولية و « .. فى مقدمتها احتلال فلسطين والقضايا المتعلقة به » .

فى نفس الوقت ، فى طرابلس ، كان العقيد القذافى مستمرا فى حرب العصابات هذه ضد التقدم الواضح لمباحثـــات جلود فى موسكو . ان الصحافة والاذاعة الليبية قالت ، بيما جلود يتحدث مع بودجورنى ، ان العقيد القذافى رفض استقبال سفير العراق فى مصر ، الذى قدم خصيصا من القاهرة لكى « يشرح وجهـــة نظر العراق فى المعاهدة السوفيتية العراقية » .

مع ذلك ، فيبدو أن هذا لم يؤثر على تقدم بعثة جلود فى موسكو . ففى الثانى من مارس اجتمع جلود بالزعيم السوفيتى الذى يسبق اسمه دائما رئيس الدولة ورئيس الوزراء فى كل البيانات الرسمية — ليونيد برجينيف سكرتير الحزب الشيوعى السوفيتى ، انهما تحدثا لمدة أربع ساعات و ٤٥ دقيقة . وهكذا قضى جلود ١٣ ساعة مع ثلاثة زعماء سوفيت مهمين . وكان من الواضح انهم لم يهتموا بالمشكلة الصغيرة المتعلقة بكيفية اداء ليبيا لحقل البترول البريطانى سابقا ، والذى تم تأميمه . اذن .. لابد أن يكون فى الأمر شىء أهم كثيرا من ذلك .

لقد وردت اشارة ما لهذه الحقيقة فى الحديث الذى أعطاه جلود لوكالة تاس السوفيتية والذى لم ينشر فى بلده — ليبيا — مع ذلك .. فان موسكو لم تذع آراء جلود محليا فقط ، ولكنها اذاعتها أيضا فى اذاعتها العربية الموجهة .

ان جلود قال فى حديثه : « أن الاتحاد السوفيتى أمامه دور هام يلعبه فى تمكين القوات الثورية العربية من هزيمة الاستعمار الاستيطانى الصهيونى الذى تسانده الولايات المتحدة » . انه أضاف بخشونة يشتهر بها ، ولكن الانسان لا يسمعها عادة فى الاذاعة السوفيتية ، أنه مقتنع بأن « الاتحاد السوفيتى يستطيع أن يفعل الكثير لمضاعفة القدرة الدفاعية للعالم العربى .. وتمكين الشعب الفلسطينى من استعادة وطنه وأرضه » .

ان جريدة « البرافدا » السوفيتية — تشجعها فى ذلك صراحة جلود — قد دخلت بدورها فى لعبة شد الحبل بين جلود وموسكو والقذافى فى طرابلس . ففى ٥ مارس كتبت البرافدا تقول « ان بعض الناس لا يحبون أن يروا العلاقات المتبادلة المزايا .. وهى تنمو

بين بلدين . ان هناك اناسا فى ليبيا يرغبون فى دق أسفين من عدم الثقة بينهما » . ان البرافدا ــ فيما عدا ذكر اسم العقيد القذافى كمصدر للمعارضة ــ جعلت الفجوة واضحة بين الزعيمين الليبيين . ان الاختلافات أمتدت حتى الى نص البيان المشترك الذى صدر عقب انتهاء الزيارة فى ٧ مارس . ففى نفس اليوم اذاع راديو ليبيا المفهوم العربى للبيان ، بينما لم يذع النص السوفيتى الا فى اليوم التالى .. كاشفا عن وجود عدد من الاختلافات .

ان المفهوم العربى ــ ولكن ليس الروسى ــ أكد وجود مباحثات مطولة مع برجنيف وبودجورنى وكوسيجين ، وان المباحثات جرت فى جو من الفهم المتبادل والصراحة حينما تناولت العلاقات السوفيتية الليبية . ان المفهوم السوفيتى حذف الفقرة التى أذاعها المفهوم العربى ، والتى تنص على « أن الجانبين طلبا اغلاق كل القواعد العسكرية فى المنطقة ، لكى تكون منطقة أمن وهدوء وسلام واستقرار لكل الشعوب » وبالنسبة للباقى ، فان نص البيان اقترب من البيانين السورى والعراقى : لقد أدان الولايات المتحدة وعبر عن مساندته لخطط دول حلف وارسو بالنسبة للامن الأوربى ولحركة التحرير الافريقية . لقد كان واضحا أن الرائد جلود قد عاد الى بلده حاملا بركات وتأييد الزعماء السوفيت .

وهكذا ، فان شكل الحركات السوفيتية الاستراتيجية والدبلوماسية المضادة .. كان يكتمل فى مطلع ربيع سنة ١٩٧٢ . لقد كان من الواضح انه يهدف الى تشكيل حلقة سياسية استراتيجية حول اسرائيل .. وتحقيق مراكز قوة سياسية وعسكرية للاتحاد السوفيتى . وكان من الواضح أيضا أن الزعماء السوفيت مهتمون بنقطة رئيسية : انه بالرغم من أنهم ربما يحتلون مراكز قوة دبلوماسية ... فان العالم العربى متأثر للغاية بضغوط

داخلية يمكن أن تهدم البناء السوفيتى الدبلوماسى والاستراتيجى، ان الضغوط الدبلوماسية للرئيس السادات كانت ملموسة . ان التصدع الفلسطينى أظهرته هزيمة حسين لمنظمات المقاومة الفلسطينية .. تاركا بديلا واحدا أمام المقاومة الفلسطينية .. وهو الاتجاه الى الارهاب . ان هذ سوف يربك الروس والزعماء العرب الآخرين ، ويضيف الى عدم الاستقرار الشامل فى المنطقة

ان محاكمة المتهمين بقتل وصفى التل رئيس الوزراء الأردنى السابق فى القاهرة ، وسماح القاهرة لمحاميى المتهمين بأن يعلنوا أن القتل كان عملا مشروعا ضد طاغية مستبد — قد أضاف الى هذا الاتجاه . ان الزعماء السوفيت قد عبروا أيضا لشخصيات سياسية أجنبية زارت موسكو ، عن اهتمامهم بالدور الذى تلعبه الصين الشعبية فى اشعال السخط بين الخمسة والثلاثين مليون مسلم الذين يعيشون فى الاتحاد السوفيتى .. أساسا فى المناطق المتاخمة للحدود الصينية . ومن ناحية أخرى فان الصين أذاعت بيانات عديدة تعلن فيها ادانة السياسة السوفيتية التى تسمح لليهود السوفيت بالسفر الى اسرائيل . وعندما نأخذ كل هذ معا فى الاعتبار .. فان الهجوم الدبلوماسى الذى تم شنه .. كان اكثر شمولا وتركيزا من الحركات السابقة المماثلة . فلاول مرة ، كان الاتحاد السوفيتى يسعى ايضا الى أن يضمن لنفسه درجة من السيطرة المباشرة فى البلاد العربية .

ان مزيجا من الوجود العسكرى السوفيتى فى مصر ، والتشكيل السياسى للجبهات القومية التقدمية مع الشيوعيين ، وابرام اتفاقيات صداقة مع مصر والعراق وسوريا واليمن الجنوبية وجمهورية الصومال وربما مع ليبيا .. لم تعد مجرد أفكار على الورق . ان هدفها جميعا كان تغيير ميزان القوة السياسية

والعسكرية فى الشرق الأوسط والبحر الأبيض ، برغم الترتيبات الجديدة بين الولايات المتحدة واسرائيل .. وبرغم وجود الاسطول السادس الأمريكى وحلف الأطلنطى فى البحر الابيض . لقد كانت هذه هى أكثر المبادرات طموحا من جانب الاتحاد السوفيتى فيما يتعلق بالشرق الأوسط — أو هكذا بدت المسألة فى أعين الزعماء السوفيت والمراقبين الغربيين . ولكن بريجنيف — مثل بسمارك من قبله .. والذى يشبهه من نواح كثيرة — كان لديه ما هو أكثر من الحديد العربى فى النار . لقد وضع حـديدا فى النار بالنسبة لنيكسون أيضا .

ان اعادة دراسة الاحداث بعد وقوعها له منافعه .. ومساوئه أيضا . ان اغراء اعادة كتابة تاريخ العلاقات السوفيتية المصرية فى ضوء « طرد » السوفيت من مصر فى يوليو ١٩٧٢ ، هو اغراء عظيم. اننا ندرك الآن انه كان هناك قدر كبير من الحديث المزدوج فى كل تلك الأحاديث والبيانات الرسمية ، كنا نتلذذ به حتى ١٨ يوليـو سنة ١٩٧٢ ، عندما اتخذ الرئيس المصرى أنـور السادات القرار الذى لم يتصور أحد أن مصر تجرؤ على اتخاذه . انه القرار الخاص بترحيل جميع الخبراء والمستشارين السوفيت من مصر فورا .

ان الرئيس السادات نفسه كان هو الذى اتخذ القرارات ، وهو الذى فسر دوافعه ، وهو الذى تحمل نتائجه . لقد أعطى الرئيس السادات تفسيرات وافية ومقنعة للشعب المصرى ، وفى الأحاديث الصحفية ، وفى المحادثات الخاصة مع سفراء الدول الصديقة .. وكذلك فى حديث مع عدد من رؤساء التحرير المصريين قبل عدة أيام من اعلانه للقرار التاريخى الخاص بترحيل الخبراء الروس من مصر . ان « ارنود دى بورشيجراف » الصـحفى الكبير فى مجلة « نيوزويك » الأمريكية .. اعاد بناء الخط الرئيسى لأقوال الرئيس

السادات فى هذا الاجتماع..ومن الواضح أن تقرير «بور شيجراف» هو أصدق تقرير نشر مفسرا ما حدث . وطبقا لهـذا المفهوم فان خلاصة الخط الرئيسى لتفسير الرئيس السادات هو — طبقا لأقواله — كما يلى :

« .. انكم لا تستطيعون أن تتخيلوا كيف أصبحت حياتى منذ اصبحت رئيسا للجمهورية . من النادر ان كان هناك يوم واحد يمر بغير شجار مع الروس . انهم لم يثقوا فى مطلقا . لقد قالوا اننى متعاطف مع الأمريكيين ،وأبيع مصر للامريكيين . وحينما ذهبت الى موسكو فى مارس سنة ١٩٧١ ، وقدمت طلبى الأول لطائرات الميج ٢٣ ، فانهـم أخبرونى بعـد مناقشـة مطولة .. ان طائرات الميج ٢٣ سوف تصل حالا ، وانهم سوف يبدأون فى تدريب الطيارين المصريين فورا . ان الميج ٢٣ لم تصل أبدا . وبدلا من ذلك فان مجموعة على صبرى حاولت قلبى من الحكم فى مايو سنة ١٩٧١ . وحينما اتى الرئيس السوفيتى بودجورنى الى القاهرة مؤخرا فى نفس الشهر — مايو سـنة١٩٧١ — وتم توقيع معاهدة الدفاع المشترك.لقد اعطانى كلمة شرف بأننا سوف نحصل على الميج٢٣ خلال أربعة أيام من عودته الى موسكو » .

« اننى وقعت المعـاهدة لأننى تصـورت أن هـذا سـوف يجعل الروس يتأكدون من جديد اننى لم أكن رجل أمريكا ، وانهم يستطيعون الثقة بى ، وفوق ذلك كله .. فان مصلحة مصر فوق الجميع » .

« بعدها..لم يحدث شىء..ان الروس يعرفون اننى قررت أن سنة ١٩٧١ يجب أن تكون هى سنة الحسم بالنسبة لأرضنا المحتلة، ولكن ، كان يتضح لى أنهم لن يمدونا بالمعدات التى نحتاج اليها من

أجل تحقيق هذا الهدف . أن حجر الأساس فى سياستهم كان هو ضرورة الاحتفاظ بحالة: لاسلم ولا حرب فى الشرق الأوسط . اننى ذهبت الى موسكو مرة ثانية فى أكتوبر سنة ١٩٧١ . ان بودجورنى — الرجل الذى أعطانى كلمة شرف — كان غير موجود فى أى مكان. لقد أصبحت وحدى مع كوسجين ، ثم لحق بنا بريجنيف فى يومى الأخير هناك » .

« لقد توصلنا الى اتفاق جديد . انهم وعدونى بأن هذا الاتفاق الجديد سوف يتم تنفيذه قبل نهاية السنة . ومرة أخرى لم يحدث شىء. باستثناء الجسر الجوى السوفيتى الى الهند . هذا الجسر أثبت لى أن الروس ، حينما يريدون مساندة بلد .. فانهم يفعلون ذلك .. بغير أن تمنعهم حقيقة أن الولايات المتحدة تساند الطرف الآخر . وبناء على ذلك .. فاننى قررت ان الوقت قد حان من أجل تحديد وتنقية علاقتنا بالاتحاد السوفيتى .. لقد أخبرت السفير السوفيتى بأننى أرغب فى زيارة موسكو قبل نهاية السنة . كان هذا يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩٧١ . لقد جاء ردهم فى ٢٧ ديسمبر ، واقترح الرد أن يكون موعد الزيارة فى شهر فبراير . اننى أخبرت السفير السوفيتى « فينوجرادوف» بأن صبرى قد أوشك على النفاد .. ولكن من أجل صداقتنا فاننى سوف أنتظر حتى فبراير . وبعد تلك الزيارة ذهبت الى موسكو من جديد قبيل اجتماع القمة الروسى مع نيكسون . اننى كنت أريد أن أتأكد من أن الروس لن يوافقوا على تقييد امدادات السلاح قبل أن تجلو اسرائيل » .

« اننى تلقيت مزيدا من الوعود التى لم تتحقق.. وبعد الانتظار شهرا كاملا — أرسلت خطابا يتضمن نقاطا سبعا الى بريجنيف .. من أجل تحديد علاقتنا . اننى أخبرته بأن سياسة مصر سوف تعتمد على اجاباته . وحتى ١٥ يونيو سنة ١٩٧٢ لم أتلق أية اجابة. لهذا

كتبت خطابا آخر الى بريجنيف . وبعد ثلاثة أسابيع أخرى ،أخبرنى السفير السوفيتى أنه تلقى رد موسكو . انه جاء ليرانى،وأعطانى خطاب بريجنيف ، الذىكان مكتوبا باللغة العربية. اننى طلبت من مساعدى ان يقرأه . ان الصفحة الأولى من الخطاب كانت تذكرنى بالروح الحـارة والودية التى سـيطرت على العلاقات السوفيتية المصرية . الصفحة الثانية هاجمت محمد حسنين هيكل ، وتعتبره المسئول عن تدهور علاقاتنا . الصفحة الثالثة استمرار فى الهجوم على هيكل . بعد ذلك — لا شىء . لقد انتهى الخطاب . ان هذا جعلنى غاضبا جدا ، وعلى الفور قررت أن أتصرف فى وجود السفير السوفيتى . اننى أمليت أوامرى :

١ — جميع المستشارين السوفيت فى القوات المسلحة عليهم مغادرة الأراضى المصرية خلال عشرة أيام تبدأ من ١٧ يوليو .

٢ — كل الأجهزة العسكرية السوفيتية يجب وضعها تحت الاشراف المصرى .

٣ — جميع المعدات العسكرية السوفيتية يجب بيعها الى مصر أو اخراجها من الأراضى المصرية فورا .

٤ — أى مباحثات قادمة بين مصر والاتحاد السوفيتى ، يجب اجراؤها فى القاهرة .. وليس فى أى مكان آخر .

ان فينوجرادوف رحل الى موسكو على الفور . وكان الرئيس السورى حافظ الأسد قادما لزيارتى بعد أن انتهى لتوه من محادثات مشتركة فى موسكو . ان الرئيس الأسد سألنى كيف أقوم بمثل هذا العمل بينما هو قد وقع لتوه اتفاقا مع الروس لشراء أسلحة قيمتها سبعمائة مليون دولار . اننى أخبرته بألا يقلق علينا ، وأن يفعل ما يرى أنه فى مصلحة سوريا . وأخيرا ،أخبرونى بأن الروس يريدون وفدا مصريا على مستوى عال .. لكى يسافر الى موسكو

ويشرح لهم أسباب تصرفى .. اننى قررت ارســـال رئيس الوزراء صدقى ، وأخبرته بأن يقوم بمجهود أخير للحصول على الميج٢٣ . وكان هذا بلا فائدة . انكم تعرفون باقى القصة » .

بعدها أكد الرئيس السادات أن هذه الوقفة الضرورية مــع الصديق .. لا تؤثر بأى حال على جوهر الصداقة الســوفيتية المصرية ، التى رآها تتوسع فى تفاهم جديد ومرحلة جديدة .

والواقع أن الرئيس السادات لم يكن مفاجئا لأحد فى تفكيره هذا . ان السادات كان يرى دائما ان المعركة هى معركة مصر ، ولا أحد غيرها . وأن مصر لا تريد من أحد أن يخوض حربها بالنيابة عنها . ان الجندى المصرى هو الذى سيحرر مصر شبرا شبرا . كانت هذه هى عقيدة الرئيس السادات دائما . وكانت عقيدته أيضا هى أنه لا يرغب فى احداث مواجهة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة. ان كل ما يسعى اليه هو تحرير التراب المصرى من الاحتلال الأجنبى .. وهذه هى القضية الرئيسية ، بل الوحيدة ، التى شغل بهــا نفسه منذ تولى الرئاسة .. ومن اجل تحقيق سياسته هذه..كان الهدف من طلبه الى الاتحاد السوفيتى امداده بأسلحة هجومية ــ الميج ٢٣ وأنواع معينــة من الصواريخ ارض ارض . ولقــد كان مستعدا لعمل اى شىء فى سبيل تحقيق هدفه الأخير : طرد الاحتلال الاسرائيلى .

مع ذلك فانه لا موسكو ، ولا واشنطن ، صدر عنهما أى رد فعل لهذا التطور المفاجىء . ان كليهما حاول فى البداية أن يتجــاهل مضمون هذه الخطوة فى المدى الطويل . ان بريجنيف ونيكسون ، لم يرتكبا الخطأ الذى ارتكبه باقى المراقبين والحكومات ــ بما فى ذلك الاسرائيليون ــ حينما افترضوا ان انسحاب الروس قد أدى الى حدوث تغيير أساسى فى الشرق الأوسط ، وضاعف من فرص

وجود تسوية بالمفاوضات بين مصر واسرائيل. ان هذا ليس معناه أنه لم يكن هناك تغير فى الموقف . كان هناك تغير .. ولكن التغير كان نتيجة لمحادثات بريجنيف ونيكسون ، وليس بسبب انسحاب السوفيت . ان الروس استطاعوا — قبل مؤتمر القمة الأمريكى السوفيتى — أن يكسبوا موافقة الولايات المتحدة على حالة من التعادل الاستراتيجى فى البحر الأبيض . ان منطق هذا «الترتيب» تطلب ترتيبات اضافية .. برغم أنها ضمنية .

ان المصالح الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية لكل من الشرق والغرب ، أصبحت تتطلب مقاييس جديدة لمنع نشوب حرب أخرى . هذه المقاييس لابد لتحقيقها من وجود شكل ما من التفاهم السوفيتى الامريكى القائم على تعادل سياسى واستراتيجى متفق عليه فى البر كما فى البحر . مع ذلك .. فان السياسة السوفيتية كانت تتحرك بسرعة أكبر ، وتنظر الى الأمام أبعد من الأمريكيين والحكومات الأوربية . وسواء كان هذا خطأ أم صوابا .. فان الروس كانوا أكثر اهتماما بالتحالف الجديد النامى فى الشرق الأوسط ، والذى يقوم على أساس وجود قوتين عسكريتين فى المنطقة : اسرائيل وايران .

ان ما بدا أنه قد تم تركه مفتوحا فى مناقشات الشرق الأوسط — التى لم تكن مجهدة جدا — ضمن اجتماع القمة فى موسكو سنة ١٩٧٢ .. كان هو السؤال : هل يقوم الروس والأمريكيون بتشجيع هذا الاتجاه الجديد فى الشرق الأوسط .. أم يعارضونه كعنصر انقسامى جديد ؟ ان الروس عاملوا انسحابهم من مصر كنموذج حديث لمفهوم لينين : خطوة واحدة الى الوراء .. وخطوتان الى الأمام . ان المحور الجديد للمصالح الروسية ممتد عبر سوريا والعراق الى جنوب اليمن وافريقيا .. وقد اكتسب هذا المحور قوة عن طريق ايران والهند وأفغانستان . ان الروس كانوا يقصدون الاحتفاظ

بوجودهم فى الشرق الأوسط من مراكز قوة جديدة . انهم لم يكونوا وحدهم فى ذلك . ان الأمريكيين أيضا فهموا أن الشرق الأوسط — ليس جنوب شرقى آسيا .. ولا فيتنام .. ولا باكستان — هو الذى يتطلب شكلا جديدا من الوجود الأمريكى يساعد على تأمين مورد البترول .

ان كلتا القوتين — روسيا وأمريكا — أصبحتا مهتمتين فى سنة ١٩٧٣ بشىء جديد وواحد ومتفق عليه : البترول . انهما تختلفان فى طبيعة هذا الاهتمام وأساليبه ، ولكن الاتفاق موجود على نقطة واحدة : ان بترول الشرق الأوسط يجب ألا يتأثر بصراعات الشرق الأوسط .. وخصوصا بالنزاع العربى الاسرائيلى .

وهكذا فان عنصرا جديدا دخـل فى حسابات الدول الـكبرى بالنسبة لصراعها على الشرق الأوسـط . ان هـذا العنصر كان موجودا دائما .. وحاسما دائما .. ولكن فى هذه المرة أصبح هو العنصر الذى يأخذ أولوية مطلقة بالنسبة لسياسات الدول العظمى المتعلقة بالشرق الأوسط وأهدافها فى المنطقة . هذا العنصر هو : البتـرول .

عند هذه النقطة بالضبط يصح أن نرجع الى الوراء كثيرا .. الى مطلع هذا القرن العشرين ، قبل خمسين سنة من الآن تقريبا .

ففى منتصف شهر أغسطس سنة ١٩١٨ قال «آرثر جيمس بلفور» وزير خارجية بريطانيا لرؤساء وزارات المستعمرات والمسئولين عنها فى اجتماعهم بلندن : «أنا لا يهمنى ما هو شكل الحكومة التى تحتفظ فى ظلها بالبترول .. ولكننى واضح فى أنه من المهم جدا لنا أن نضمن استمرار الحصول عليه » .

لقد جاءت هذه الكلمات فى وقت كانت بريطانيا هى القوة العظمى المسيطرة فى الشرق الاوسط . وقد سبقتها مذكرة هامة للغاية قدمها الكولونيل هانكى سكرتير مجلس الوزراء ومجلس الحرب البريطانى حول بترول الشرق الأوسط، ان تلك المذكرة أصابت مجلس الحرب البريطانى بالقلق .. وهو قلق استمر قائما طوال الخمسين سنة التالية ، ولم يتوقف حتى اليوم (١٩٧٣) .

ان الكولونيل البريطانى « هانكى » أدرك فى تلك الأيام المبكرة والعصيبة من سنة ١٩١٨ اهمية عامل البترول . وبسبب ادراكه هذا .. فان البريطانيين تمتعوا بميزة حاسمة حينما حان وقت اقتسام مناطق البترول بين الدول الكبرى المتحاربة .. ولكن ، لم يَكن الحال كذلك بالنسبة لشريكيها فى مغامرة الشرق الأوسط .

أما بالنسبة للقوميين العرب من ناحية ، والصهيونية من ناحية أخرى .. فانهم اخطأوا القارب معا .. ان كلا منهما كان مشغولا بالنظر الى داخله تماما .. بحيث انه فى خلال تلك السنوات التشكيلية بعد سنة ١٩١٧ .. كان كل منهما مشغولا تماما بمصالحه الخاصة .. ومن ثم فان كليهما فشل فى رؤية أهمية عنصر البترول . ليس هذا فقط، بل ان كلا من العرب والصهيونية رأى ان اهتمام البريطانيين والفرنسيين والأمريكيين ببترول الشرق الأوسط .. هو عنصر جاذبية منافس .. ومن ثم فان عليهم أن يكتلوا المنافسة ضده . انهم — العرب والصهيونيين — لم يروا البترول باعتباره الورقة الرابحة التى يستطيع كل منهما أن يحصل عليها ويلعب بها .. اذا استطاع أن يفهم اللعبة الأكبر .. التى كان كل منهما جزءا منها دون أن يدرى .

ان العرب والصهيونيين — فى تلك الأيام — فشلوا فى أن يفعلوا هذا . والأسوأ من ذلك ، انهم نجحوا فى خلق انطباع لدى

البريطانيين بأنه لا الصهيونية ولا القومية العربية لديها ما تفعله للمساهمة فى اعادة تشكيل الخطة البريطـانية الـكبرى للشرق الأوسط . لقد أدى هذا الى عزل البترول عن الصراع السياسى فى الشرق الأوسط . وكان هذا شيئا كافيا منوجهة نظر الدول الكبرى لكى تسانده بأقوى المبررات الأخلاقية والسياسية . ان البترول كان عنصرا ضروريا فى الأمن القومى البريطانى .. وأنت لست محتاجا لأن تكون مؤمنا بالصهيونية أو مؤمنا بالقومية العربية .. لكى تكون مؤمنا بالبترول .

لقد كان هذا يمثل بكل تأكيد شكلا جذابا وفعالا بالنسبة للدول الكبرى ولقد كان هذا هو أيضا جوهر المسألة بعد سنة ١٩٢٢ . ان كلا من القومية العربية والصـهيونية لم تعـد له جاذبية كبيرة للبريطانيين أو الفرنسيين أو الأمريكيين بالنسبة للسياسات العملية المتعلقة بالشرق الأوسط . ان كليهما لن يكون مفيدا فى تدعيم المركز الاستعمارى للسيطرة على ــ واستغلال ــ حقول البترول .. لأن أحدا منهما لم تراوده هذه الفكرة .

ومع قدوم سنة ١٩٢٢ .. أصبح كل من العرب والصهيونيين أكثر اهتماما بأن يكون مزعجا ومؤذيا للبريطانيين .. بأكثر من اهتمامه بالدخول معهم كشريك . ولهذا السبب فان البترول أصبح ــ كما كان دائما ــ هو قوة ثالثة فى الصراع بين العرب والصهيونيين ومع فتور القضايا القومية وذبولها بعد الحماس الأول لها قبل سنة ١٩٢٢ .. فان قضية البترول استجمعت قوتها و ــ بعدها بخمسين سنة ــ هددت باحداث تحول ضخم فى الموقف العالمى .

وليست هناك حاجة لأن نكرر من جديد تاريخ تزايد أهمية الشرق الأوسـط . ولكن بالرغم من أن العناصر الأساسية قد أصبحت معروفة .. فان هناك واحدا أو اثنين من الاستثناءات الأساسية

للقاعدة العامة . بناءعلى ذلك فان ما نحتاج اليه هنا هو أن نؤكد على العناصر الأساسية فى دور بترول الشرق الأوسط .

لقد بدأت القصة مع اهتمام وزارة البحرية البريطانيةبامدادات الوقود اللازمة للأسطول الملكى البريطانى .. والذى كان يتحول من الفحم الى البترول . لقد بحث مجلس الحرب البريطانى والمسئولون فى الحكومة البريطانية التطبيقات العريضة لذلك،ولكن خلال أشهر قليلة من اتفاقية الهدنة فى نوفمبر سنة ١٩١٨ ، اتضحت عوامل أخرى أكثر مادية أمام السلطات البريطانية . وكانت هذه العوامل كافية لأن ترفض السلطات البريطانية السماح لشركة « سنكلير » الأمريكية للبترول .. بأن ترسل فرق استكشاف الى العراق .

كانت اتفاقية « سان ريمو » فى أبريل سنة ١٩٢٠ قد ادت الى حل الخلافات الانجليزية البريطانية حول سوريا وفلسطين ، وأدت ايضا الى اقامة سوق مغلق تماما — مقصور على البريطانيين والفرنسيين — بالنسبة لاستغلال البترول العربى . لقد احتاج الأمر الى ست سنوات من الجهد الأمريكى المستمر قبل أن يتم التوصل الى اتفاقية جديدة سميت «اتفاقية الخط الأحمر » فى سنة ١٩٢٨ . فى هذه الاتفاقية الجديدة أصبح مسموحا للامركيين بمشاركة محدودة فى عمليات البترول الفرنسية الانجليزية . ولم يكن هذا التطور ممكنا — الا بعد أن أصبح عنصر الأرباح الضخمة حافزا اضافيا . . أمام شركات البترول الدولية .

لقد استمر الحال كذلك حتى نشوب الحرب العالمية الثانية . وخلال سنوات الحرب فان الأمر لم يحتج من الامريكيين فى هذهالمرة أى وقت على الاطلاق لالغاء اتفاقية الخط الأحمر . فى هذه المرة كان الفرنسيون والبريطانيون يواجهون مصاعب شديدة ويحتاجون الى المساعدات الأمريكية . ولو لم يحدث هذا التطور الجديدلكان

البريطانيون والفرنسيون قد ضــمنوا اشتراكهم مع الأمريكيين فى الاكتشـافات البترولية الضخمة الجديدة فى السعودية . ومع ذلك فحتى قبل أن يحدث هذا التطور ـ نستطيع أن نعــود خلفا الى سنة ١٩٣٣ . وقتها كانت شركة البترول العراقية ـ وهى شركة بريطانية ـ تستطيع أن تشترك مع الأمريكيين فى عمليات البحث والتنقيب عن البترول فى السعودية . لكن شركة بترول العراق اعتبرت أن طلبات الملك سعود المالية مرتفعة جدا . ان الشركة قررت أنها لن تدفع للملك أكثر من عشرة آلاف جنيه استرلينى فقط .. ثمنا للحصول على امتيازات البترول .. ولو كانوا قد عرضوا عشرين الف جنيه فقط ـ لكانوا حصلوا على الامتيازات . وعندما دخل الأمريكيون فى المناقشة فانهم كانوا يريدون أن يضـــمنوا من البداية حصولهم على هذه الامتيازات . ولهذا عرضوا خمسين الف جنيه استرلينى .. وحصلوا على الامتياز فعلا .

ان الأرباح التى حصل عليها الأمريكيون من هذه الصفقة زادت عن الف مليون دولار . ولكن فى الثلاثينات ، لم تكن قد اتضحت بعد أمام الشركات القدمية العتيدة . ضخامة الآفاق المـــادية لأعمال البترول . ان تلك الشركات القديمة ـ التى كانت هولندية وبريطانية أساسا ـ كانت تحصل على أرباح ضخمة جداً من البترول مقابل انفاق قليل جدا . انها كانت سعيدة بذلك .. ولم يكن تغيير هذه العقلية ممكنا .. الا مع نشوب الحرب العالمية الثانية .

فمع قدوم سنة ١٩٤٣ .. كانت السياسة الأمريكية البترولية تأخذ لمساتها الأخيرة ، متحررة من قيود اتفاقية الخط الأحمر . ان الأمريكيين تلقوا ـ فى وقت مبكر من تلك السنة ـ مذكرة بريطانية .. أراد فيها البريطـــانيون أن يقنعوا الأمــــريكيين بــ « الاهمية الكبرى والمتزايدة للشرق الأوسط بالنسبة للكومنولث البريطانى » .. وهى أهمية رأى البريطانيون أنها تفوق أهمية المنطقة بالنسبة

للولايات المتحدة . لقد طلب البريطانيون التباحث مع الأمريكيين حول هذا الموضوع .. ولكن الأمريكيين احتجزوا هـذا الطلب .

مع ذلك فان بريطانيا تصورت أنه يمكن اقنـاع الأمريكيين بـ « أن يسمحوا لنا بقـدر معين من المناورة السياسية » ولكن الأمريكيين لم يكونوا ميالين لذلك . أن المبعوث الخـاص للرئيس الأمريكى روزفلت ـ هالفورد هو سيكنز ـ نصح الرئيس بأن هذه هى الفرصة الحقيقية الأولى أمام الولايات المتحدة لكى تنمى مصالحها بالشرق الأوسط فيما بعد الحرب . وحتى لو تصرفت واشنطن كشريك أصغر للبريطانيين ـ فان أمريكا لابد أن تدرك ـ وتعترف بتزايد مصالحها البترولية فى المنطقة . و « .. تمشيا مع هذا التفكير فانه أوصى أيضا بأن تعـارض الولايات المتحدة الادعاءات الصهيونية فى فلسطين .. وفى الحقيقة فان السـيطرة على البترول تحتل الآن أولوية مطلقة فى السـياسة الأمريكية الخاصة بالشرق الأوسط » . هكذا أصبح هناك ادراك أمريكى كامل بأن بترول السعودية أصبح يشكل واحدة من أكبر الجوائز العالمية .

وفى نفس الوقت طلب وزير الخارجية الأمريـكى من حكومته توفير حماية حقيقية ومناسبة للمصـالح الأمريكية ضـد النوايا البريطانية طويلة الأجل الخاصة بـ « .. تنمية مركزهم فى فترة ما بعد الحرب بالشرق الأوسط على حسـاب المصالح الأمريكية هناك » . ومن ثم .. فان وزير الخارجية الأمريكى نصح حكومته بأن تقتصر مساعدتها للبريطانيين فيما يتعلق بتوسـيع مصالحهم البترولية . على القـدر الضرورى الـلازم لمتطلبـات الحـرب العاجلة .

كان هذا الاحساس بالالحاح والتعجل فى واشـنطن ـ يغذيه

حسن الطالع فى اكتشافات البترول السعودى — يمتد الى دائرة أكبر من هؤلاء المتصلين به مباشرة . فخلال فترة قصيرة من رسالة وزير الخارجية الأمريكى .. قام « جيمس فورستال » .. وزير البحرية الأمريكى باجراء حديث تليفونى مع الرئيس الأمريكى روزفلت . لقد أخبر الرئيس بأن رجال البترول الأمريكيين متلهفون للحصول على تأييد ومساندة الحكومة الأمريكية فيما يتعق ببترول السعودية .. ولكنهم فى نفس الوقت لا يريدون مشاركة الحكومة.

وفى تلك المكالمة المسجلة قال وزير البحرية للرئيس الأمريكى : « ان الشيء الرئيسى هو أن هذا الكنز البترولى فى السعودية .. هو شيء « يجب الا نخسره بأى ثمن » . بعدها أخبر الرئيس بأن البريطانيين أرسلوا الى السعودية خمسمائة رجل متنكرين تحت اسم خبراء لمحاربة الجراد .. بينما هدفهم الحقيقى هو أن « يروا ماذا نفعله نحن هناك وما الذى حصلنا عليه » .

لقد كان البريطانيون متنبهين الى هذا الاهتمام الأمريكى ، المحموم والمفاجيء ، ببترول السعودية . ان رئيس الوزراء البريطانى ونستون تشرشل شعر بأن عليه أن يرسل برقية الى روزفلت تتميز بالبساطة والجفاف . يخبره فيها بأن هناك خشية فى مجلس الوزراء البريطانى من أن «الولايات المتحدة لديها رغبة فى أن تحرمنا من ممتلكات البترول الخاصة بنا فى الشرق الأوسط — والتى تعتمد عليها — ضمن أشياء أخرى — كل الامدادات اللازمة لأسطولنا البحرى .» .

لقد أجاب روزفلت بأنه انزعج من اشاعة « أن البريطانيين يرغبون فى أن يدفعوا بقرنيهم فى احتياطات البترول بالسعودية » .

وكان هذا الرد من روزفلت هو اشارة خطر رآها تشرشل بوضوح — واضطر بعدها أن يسلم فى النهاية بالأمر الواقع ، حتى لا يؤثر هذا على التحالف الغربى فى الحرب . وبناء على ذلك

قرر تشرشل أن يخفض درجة الحرارة فىرسالة شخصيةبعث بها الى روزفلت . انه شـكر الرئيس الأمريكى على أن الحقول البريطانيـة للبـترول فى ايران والعـراق لا « تزغلل» عيـون الأمريكيين . بعدها قال له : « انى أعطيك ضـمانات وتأكيدات كاملة بأننا لا نفكر فى ان ندفع بقرنينا فى مصـالحكم أو ثروتكم فى السعودية . ان بريطانيا لا تريد مكاسب اقليمية او أية مكاسب أخرى من الحرب ، ولـكن يجب عدم حرمانها من أى شىء ينتمى اليها بطريقة مشروعة .. على الأقل مادمت أحس بثقتكم فى حسن تسييرى للامور » .

كانت تلك هى أيام القرصنة الرومانسية بالنسبة لبترول الشرق الأوسط ، واولئك كانوا هم الرجال المتصلين بها . ان بعضهم كان مهتما بالأمن القومى ،وبعضهم اهتم بالمـكاسب الاقتصـادية ــ وبعضهم بالمكسب الشخصى أو الحصول على اكبر قدر من النقود ــ بمقاييس تلك الأيام . ان النغمات السياسية كانت موجودة هى الأخرى .. ولكنها لم تكن بعد مسيطرة .

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية .. جاء التغيير . لقد كان تغييرا كاملا واجهته شركات البترول . ان المقارنة كانت كاملة ، والتناقض أصبح تاما .. بين الرجال الجدد .. والنغمات الجديدة .. والتطورات الجديدة لسنة ١٩٤٦ .. عن كل شىء قبلها . لقد كان تغيير الحرس القديم صعبا ، وكثير من الشركات لم يفعله ، ولم يرغب فى اجرائه ــ أو .. لم يستطع تنفيذه ان احدى الحالات الواضحة لذلك كان يمثلها السير « ويليـام فـراسر » الرئيس الفظ للشركة الانجليزية البريطـانية للبترول . انه كان يتخـذ اجراءات مشددة للغاية .. لكى يضمن فى النهاية انه لا أحد خارج مكتبه .. يعرف أسرار عمليـات شركته فى ايران ، أو ما هى

الأرباح الحقيقية التى تحصل عليها الشركة من عملياتها فى ايران . ان الميزانيــة الســنوية للشركة كان يتم تصميمها بحيث تخفى المعلومات بأكثر مما تكشف عنها . ان كل ما كان معروفا هو أن الحكومة الايرانية حصلت على عائد ســنوى يتراوح بين مليونين واربعة ملايين جنيه .. ثمنا لبترول تم بيعه بمبلغ يتراوح بين ٧٠ و ١٠٠ مليون جنيه استرلينى . ان معظم التحريات المستقلة للخبراء الايرانيين والمنافســين الأمريكيين لم تكشف عن التكاليف الحقيقية لهذا الانتــاج البترولى .. أو حدود الأرباح التى حققتها الشركة الانجليزية . مع ذلك ـــ فان لجنــة فى مجلس الشيوخ الأمريكى أعدت « عينة تكاليف » محسوبة على أساس البترول المستخرج من المملكة السعودية . ان الظروف هنــاك كانت مشابهة لتلك القائمة فى ايران ـــ فيما عدا ان الرسوم التى يدفعهــا الأمريكيون كانت أعلى مما يدفعه البريطانيون بقدر ملموس . مع مراعاة هذا الاختلاف ـــ فان الربح الاجمالى الذى حققته الشركة البريطانية الايرانية فى السنوات العشر ما بين ١٩٣٤ و ١٩٤٣ يقدر بثمانمائة مليون دولار ، بينما الرسوم التى تم دفعها للحكومة الايرانية خلال تلك الفترة لم تزد عن مائة مليون دولار .

ومن الغريب أن الايرانيين فى ذلك الوقت لم يكونوا يطالبــون بأية زيادة فى الرســوم . أن كل ما كان الايرانيون يســعون اليه هو الحد الأدنى من المشاركة ـــ أى مجرد الاعتراف بالجزء الايرانى فى « الشركة الايرانية البريطانية » . مجرد اثنين من الايرانيين فى مجلس الادارة . ولم يكن هذا يبدو بالشىء الكثير .. ومع ذلك فان رئيس الشركة فهم المضمون فورا . وحينمــا قيل له أنه يستطيع أن يشترى السلام مع الايرانيين بمجرد وظيفتين ، فانه رد بانفعال وسخط وغضب قائلا : « هل تريدهم أن ينظروا فى دفاترنا ؟ » و .. كان هذا هو كل شىء .

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية .. بدأت الأيام الذهبية للبترول .

ان اعادة تعمير أوربا بعد الحرب ـ والاحتياجات الجديدة فى الولايات المتحدة قد تعدت حدود ما سبق تصوره بالنسبة للبترول. أن أوربا كانت عطشى للبترول ، والذين يستطيعون امداده بوفرة .. اصبحوا هم رجال شركات البترول الدولية ـ التى تسيطر على حقول البترول فى ايران والسعودية والعراق والخليج الفارسى .

وفى ظل تلك الظروف .. فان شركات البترول لم تكن تريد أن ينظر أى عربى أو ايرانى فى دفاترها .. أو يتسلل الى غابتها . أن الشركات تفضل أى شىء ـ بما فى ذلك دفع رسوم أعلى ـ حتى يتحقق ذلك . انهم يستطيعون قبول أى رفع فى الرسوم ولكنهم فى الشركات لا يستطيعون قبول فتح دفاترهم للايرانيين أو العراقيين أو السعوديين ولا حتى للمستهلك أو دافع الضرائب البريطانى والأمريكى .

ان الشركات البريطانية أصبحت الآن مخندقة ومحصنة بقوة فى ايران والعراق .. والأمريكيون فى السعودية . أنهم يتحكمون فى نظم النقد الأجنبى الذى تملكه تلك البلاد . ان الادارات القوية للعلاقات العامة والصحافة فى شركات البترول بطهران وبغداد تقوم بارشاد الصحفى الأجنبى عبر ممر الفهم الصحيح .. وتقدير العمل الطيب الذى تقوم به شركات البترول داخل تلك البلاد ـ ليس هذا فقط ، بل انها قامت أيضا بمساعدة الصحف المحلية وبعض الصحفيين فى حل مشاكلهم المالية .. ان مصروفات الشركات على هذه « المساعدات » كانت كبيرة وغير معينة ـ بالمقاييس السائدةفى تلك الفترة . لقد كان هناك سياسيون ووزراء .. قادرون على

ان يغتنموا لانفسهم جزءا من تلك المساعدات التى كانت تقدمها شركات البترول ان كلا منهم لم يكن بطيئا بعد ذلك فى اظهار تقديره لشركات البترول فى صحفهم ، وفى مجالسهم .

وبصرف النظر عن بعض حالات الزمجرة المتطرفة فان مركز شركات البترول فى ايران والعراق والسعودية بدأ حصينا ومنيعا — خصوصا فى السنوات التالية مباشرة للحرب العالمية الثانية . وهكذا مضى الحال .. برغم الصدمات التى عانتها شركات البترول . فبعد كل صدمة .. كانت شركات البترول تخرج كما هى . أحيانا بأسماء جديدة — ولكن دائما بأرباح متزايدة ونفوذ متضخم . لقد كان على تلك الشركات أن تدفع أكثر — ولكن هذا لم يجعلها تشعر بأى سوء . ان الشركات استطاعت فى النهاية أن تحصل على مساهم جديد فى أرباحها : دافع الضرائب البريطانى والأمريكى .

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية — أى فى سنة ١٩٤٦ — لم يزد اجمالى الرسوم المدفوعة لدول الشرق الأوسط عن عشرة ملايين جنيه استرلينى .. بينما لم تقل أرباح شركات البترول عن مائة مليون جنيه استرلينى .

كانت تلك كما بدت فى ذلك الوقت — أرقاما ضخمة . ولكن من وقتها .. حدثت ثلاث أزمات بترولية على الأقل . ثلاث أزمات ضخمة .. تعرضت فيها امدادات البترول لخطر حقيقى أو مبالغ فيه . كانت هناك ثورات وحروب وانتفاضات سياسية خطيرة .. فى كل دولة من دول الشرق الأوسط . وفى نهاية هذا كله — أى فى سنة ١٩٧٢ — وبعد ٢٥ سنة من الغليان .. فان الرسوم التى أصبحت دول الشرق الأوسط تحصل عليها فى سنة واحدة عن طريق الامتيازات والضرائب تصل الى عشرة آلاف مليون دولار —

أى أن الرقم ارتفع من عشرة ملايين جنيه استرلينى فى سنة ١٩٤٦ الى أربعة آلاف مليون جنيه استرلينى فى سنة ١٩٧٢ .

كل هذا حدث .. بينما الشركات السبع الرئيسية ما زالت تحقق الأرباح . فى الواقع ان دخلها الصافى من بترول الشرق الأوسط وصل فى سنة ١٩٧١ الى بليونين ونصف بليون دولار ، أو ما يعادل الف مليون جنيه استرلينى ، من بين دخل اجمالى قيمته خمسة بلايين وربع بليون دولار .

وقبل أن نستدير لبحث النتائج السياسية لهذا المنجم البترولى فى السبعينات فان التقييم الكامل للأرباح القادمة من بترول الشرق الأوسط يحتاج الى مزيد من البحث . ان مجال هذه العملية مثير للاهتمام .. والحقائق الأساسية هنا تنطبق — مع اختلافات بسيطة — على المبالغ الاجمالية المتعلقة بكل كبار منتجى البترول — فيما عدا ليبيا .. التى كانت حديثا نسبيا . ان المملكة العربية السعودية يمكن تقديمها هنا كنموذج مثالى متكرر فى حالات ايران والكويت و — على مستوى أقل — العراق .

ففى الفترة ما بين سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٧ حصلت الحكومة السعودية من دخل البترول على ١٧٨٥ مليون دولار . وخلال الفترة هذه فان الشركة العربية الأمريكية للبترول (أرامكو) سجلت ربحا صافيا يبلغ ٣٠٢٩ مليون دولار من عملياتها البترولية فى السعودية .

اما فى الفترة ما بين سنة ١٩٥٨ وسنة ١٩٦٧ فقد حصلت الحكومة السعودية على ٥١٥٥ مليون دولار .. بينما قفزت أرباح شركة « أرامكو » الى ٤٧٠٠ مليون دولار .

وخلال الفترة ما بين سنة ١٩٦٨ وسنة ١٩٧٢ حصلت الحكومة السعودية على ٧٨٣٤ مليون دولار — بينما الأرباح الصافية لأرامكو — ما زالت ترتفع — وصلت الى ٥٤٠٠ مليون دولار .

أن الاتجاه العام كان هو نفسه فى حالات ايران والكويت مؤخرا — ليبيا والخليج العربى . ومع ذلك فيجب أن نلاحظ أنه فى داخل هذه الأرقام توجد ثلاث أزمات بترولية كبيرة . هناك أولا أزمة سنة ١٩٤٦ ، حينما واجهت أوروبا وروسيا وأمريكا نقصا عاجلا فى الامدادات البترولية بسبب التوسع الاقتصادى . وهناك ثانيا ازمة سنة ١٩٥٦ .. حينما أغلقت قناة السويس ، وهناك ثالثا أزمة ما بعد حرب ١٩٦٧ حينما أغلقت قناة السويس ، وظلت كذلك حتى الآن . ان كل واحدة من هذه الأزمات تم امتصاصها عن طريق مزيد من التوسع ، ومزيد من المدفوعات للحكومات المنتجة ، ومزيد من الأرباح للشركات نفسها . ان الحكومات المعنية لم تعان شيئا ، فلقد أصبحت أغنى . والشركات الدولية للبترول لم تعان شيئا .. بالرغم من أنه أصبح عليها أن تستفيد من هذا التضخم المتزايد فى أرباحها . لقد دفعت الشركات أكثر .. وأصبحت نسبتها فى الدخل الاجمالى أقل .. ومع ذلك فان أرباحها ظلت تتزايد الى درجة أكبر وأكبر .

ما هو السر فى هذا اللغز ؟ ان فى الأمر لغزا كبيرا وسرا أكبر .. فكيف نحل الاثنين معا ؟ هذا السر هو واحد من الأسرار التى ظلت شركات البترول تتكتمها طويلا ودائما بالاشتراك مع الخزانة البريطانية والخزانة الأمريكية . ان الرجل الذى اكتشف هذا السر فى ميزانيات شركات البترول كان هو الحاكم العراقى عبد الكريم قاسم .. الذى ربما تكون له مساوىء كثيرة .. ولكنه كان يعرف عالم البترول .

فحينما ذهب فريق بريطانى لمقابلته ويناقش معه اتفاقية جديدة يريد ابرامها مع شركة بترول العراق .. تحدى قاسم رئيس الشركة أن ينكر هذه الحقيقة : أن الرسوم التى تدفعها الشركة لا تشكل أى عبء على ميزانية الشركة مادامت الحكومة البريطانية

تسمح للشركة بخصم المدفوعات التى تقدمها للحكومة العراقية .. من مدفوعات الشركة للضرائب البريطانية . بكلمات اخرى .. فان رسوم البترول — وباقى مدفوعات البترول — كانت مخصومة ضرائبيا .. ومن ثم كان يدفعهـا فى النهاية ليس هو الشركة — ولكن دافع الضرائب البريطانى .

ان أحدا لم يكن سيسمع أبدا بهذا الابتكار الضرائبى الشاذ — الذى لم يعلن عنه أبدا أمام البرلمـان — لو أنه ظل عنصر مساومة فى المفاوضات الخاصة بين شركة بترول العراق ، وبين الجنرال قاسم . ولكن قاسم كان قد سجل الحديث بغير علم المفـاوضين البريطانيين — ثم نشره وترجمه وأذاعه من راديو بغداد .

وحينما تساءل البعض — واندهش الكثيرون — تبين فى النهاية ما يلى : أنه فى وقت ما من أواخر سنوات الأربعينات وافقت الحكومة البريطانية على مذكرة قدمتها الخزانة البريطانية للسماح لشركة بترول العراق بأن تخصم رسـومها المدفوعـة للحكومة العراقيـة من الضرائب التى تلتزم الشركة بدفعهـا للحـكومة البريطانية . ان شركات البترول الكبرى فى فرنسـا والولايات المتحدة توصلت الى اتفاقيات مشابهة مع حكوماتها . وعلى هذا الأساس فان شركة بترول العراق وحدها استطاعت أن تخصم رسـومها المدفوعة للحكومة العراقيـة من الضرائب التى تلتزم الشركة بدفعها للحكومة البريطانية . ان شركات البترول الكبرى فى فرنسا والولايات المتحدة توصلت الى أتفاقيات مشـابهة مع حكوماتها . وعلى هذا الأساس فان شركة بترول العراق وحدها استطاعت أن تخصم — فيما بين سنتى ١٩٥٢ و ١٩٧٢ — مبلغـا يصل الى سـبعة آلاف دولار .. من فاتورة الضرائب المستحقة عليها فى المملكة المتحدة .. مما يعنى أنهـا لم تدفع تقريبـا أية

ضرائب اطلاقا على حصتها فى الأرباح .. التى كانت كبيرة بما يساوى على الأقل تلك الأرباح التى حصلت عليها الحكومة العراقية . ان نفس الشيء ينطبق على معظم شركات البترول الاخرى المسجلة فى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة .

تلك اذن كانت هى الحيلة التى امتصت بها شركات البترول صدمة ارتفاع مدفوعاتها ، وهى الحيلة التى كان المستهلك هو فى النهاية الذى يدفع ثمنها . وبهذه الطريقة استطاعت الشركات أن تتغلب على أزمة سنة ١٩٥٦ التى كانت أزمة أوربية .. وأزمة اغلاق القناة فى سنة ١٩٦٧ .. ولم تسبب لها تلك الأزمات أية مشكلة ، فيما عدا أنها رفعت من التكاليف والأرباح .. بغير أن يكون هناك نقص فى البترول الذاهب الى أوربا وأمريكا .

ومع نهاية سنة ١٩٧٢ ، وفى أعقاب اعادة انتخاب نيكسون لمنصب الرئيس الأمريكى فان خبراء البترول بدأوا يحسون بأزمة من نوع جديد .. فى هذه المرة لم تكن أوربا — المعتمدة دائما على بترول الشرق الأوسط — هى التى تواجه أزمة فى الطاقة . انها الولايات المتحدة نفسها ، هى التى تواجه أزمة طاقة .. فى هذه المرة . انها لم تكن أول مرة ، لهذا فلابد من الرجوع الى الوراء قليلا .. حتى نكتشف التطورات الحقيقية للمصالح طويلة المدى لشركات البترول الكبرى .

ان النغمة الأصلية فى هذه الأزمة ، عزفها أصلا « تشارلز رينور » الذى كان مستشارا لوزارة الخارجية الأمريكية ، وكان هو نفسه أحد رجال صناعة البترول الأمريكيين . ففى سنة ١٩٤٦ عقد مؤتمر أمريكى بريطانى على مستوى عال ، واستمر لفترة قصيرة ، بهدف مناقشة امدادات البترول . وبعد انتهاء المؤتمر أعد « تشارلز رينور » بيانا قام بتوزيعه مكتب الاستعلامات

الحكومى الأمريكى . ان « رينتور » حاول فى ذلك البيان أن يشد الانتباه الى التوقعات الخطيرة التى تواجه الولايات المتحدة فيما يتعلق بالبترول . لقد قال أنه فى سنة ١٩٦٥ سوف يصل استهلاك أمريكا من البترول الى معدل يبلغ ٣٢٥ مليون طن فى السنة .. بينما الانتاج فى أمريكا سوف يبلغ ، بالكثير ، مائتى مليون طن .

وفى نفس الوقت تقريبا ، كان ستالين يناقش أزمة البترول فى الاتحاد السوفيتى مع السفير الأمريكى المعين حديثا فى موسكو الجنرال « بيدل سميث » . ان ستالين كان مشحونا بالمرارة بسبب الطريقة التى سدت بها أمريكا وبريطانيا كل المنافذ أمام المحاولات الروسية للحصول على مزيد من الامتيازات البترولية .. خصوصا فى ايران . لقد تحدث معه عن حاجة الاتحاد السوفييتى الى نصيب اكبر من موارد العالم ، وقال لبيدل سميث : « انكم لاتفهمون موقفنا فيما يتعلق بالبترول وايران » .

وفى ٦ فبراير سنة ١٩٤٨ نشرت وزارة الخارجية الأمريكية تقريرا آخر يدعى أن موقف امدادات البترول خطير بحيث يستدعى ضرورة تخفيض استهلاك الدول الأوربية التى تتلقى المساعدات الأمريكية بنسبة كبيرة .. وأن على الولايات المتحدة أن تفكر بسرعة فى استيراد البترول من الشرق الأوسط . ولقد صدرت بعدها تقارير مشابهة من وكالات عديدة . ان صناعة البترول الدولية — خصوصا القطاع الأمريكى — استجابت بنشاط لهذا التحدى .. الى درجة أن النقاد شكوا فى أن تكون شركات البترول نفسها خلف هذه التقارير .. ما دامت هى التى ربحت كثيرا من هذه الاستدارة فى الأحداث .

وهكذا كانت الشركات تمتص كل الأزمات ، واحدة بعد الأخرى ومع نهاية سنة ١٩٦٧ — وبغير تأثر بحرب يونيو — ارتفع التاج

الشرق الأوسط من البترول الى ٥٨٠ مليون طن .. ثم تضاعف فى السنوات الخمس التالية . بحيث وصل فى سنة ١٩٧٢ الى الف مليون طن .. وما زال يواصل الارتفاع بسرعة .

وقد حدث خلال نفس الفترة ان غيرت شركات البترول الأمريكية اماكنها مع شركات البترول البريطانية والهولندية . ففى بداية هذه الفترة كان الأمريكيون هم الشركاء الأصـــغر . ان حصتهم كانت تمثل ١٢٪ فقط من البترول المنتج من الشرق الأوسط فى سنة ١٩٤٥ . ثم قفزت النسبة الى ٥٨٪ فى سنة ١٩٧٢ . وبرغم الضغوط التى تمارسها الدول صاحبة البترول .. فان الشركات الأمريكية هى الآن فى موقف الســـيادة بالشرق الأوســـط وشمال أفريقيـــا .

وهكذا فان التحذيرات التى صدرت فى سنوات ١٩٤٦ ، ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ثبت خطؤها . ان الأجهزة الادارية والفنيـــة لصناعة البترول استطاعت أن تتغلب بنجاح متواصل على أكبر المشاكل وأصعبها . ولكن أجهزتها السياسية التحليلية لم تكن تتمتع بمثل هذه الكفاءة .

لقد كان التهديد المظلم بوجود أزمة بتروليـــة .. له نواحيه السياسية والخارجية من البداية . ان الرئيس الأمريكى الأسبق ترومان قد سجل فى مذكراته اهتمـــام وزارة الخارجية الأمريكية وهيئة أركان الحرب بهذه المسألة فى سنة ١٩٤٦ ، أى فى الوقت الذى كان « رينور » يعد فيه تقريره . لقد كان الاثنـــان يخشيان أن تفشل السياسة الأمريكية فى أن تأخذ فى اعتبارها « .. أن السيطرة على البترول فى الشرق الأوسط كانت دائما اعتبارا خطيرا جدا ـــ .. ولا يجب اتخاذ أى عمل يكون من شـــأنه توريط قوات الولايات المتحدة ، أو يحول شعوب الشرق الأوسط بعيدا عن

القوى الغربية .. ما دامت لنا مصلحة أمن حيوية هناك . لقد كان القادة السياسيون هنا مهتمين أساسا ببترول الشرق الأوسط ، وبالاعتبارات طويلة المـــدى الناشئة من الخطر المترتب على ان العرب ــ يدفعهم فى ذلك العمل العدائى الغربى فى فلسطين ــ قد تصبح لهم قضية مشتركة مع روسيا » .

لقد كان هذا يمثل ــ بالطبع ــ مبررا أصيلا لاهتمام هيئة أركان الحرب الأمريكية .. مثلمـــا كان هناك قلق مشـــابه فى صناعة البترول .. حول مستقبل مركز الولايات المتحدة فى الدول صاحبة البترول .. وفى الحقيقة .. فان هذا الاهتمام كانت تشترك فيه أيضا هيئة أركان الحرب ، والحكومة ، فى لندن .

ولكن العملية لم تتوقف عند هذه النقطة . أننا لا نستطيع ان تحدد كيف تم هذا التوافق فى الأحداث : تحذير « رينور » الخاص بالبترول .. تحذير هيئة أركان الحرب الأمريكية للرئيس ترومان بألا يذهب بعيدا فى حماسه الصهيونى بسبب وجود عامل البترول العربى .. ازدياد الحافز لزيادة انتاج البترول .. نمو الوجود الاقتصادى الأمريكى فى الشرق الأوسط .. كل هذا ، هل كان بالصدفة ؟ من الجائز أن يكون الأمر كذلك مرة ، أو حتى مرتين ولكن .. ليس أربع مرات وأكثر . أن شركات البترول لا تميل للصدف .. الا اذا كانت هناك روح مرشدة .. تؤدى الى توجيه الأحداث فى هذا الطريق .

وهكذا نأتى الى الضرورات الســـياسية لأزمة الطاقة ، والتى استقرت مرة أخرى على كتفى الولايات المتحدة والعالم الغربى . فمرة أخرى يحدث ذلك من خلال الخدمات الطيبة لمجلس البترول القومى الأمريكى ــ فى ديسمبر ١٩٧٢ ــ قبيل إصدار نيكسون لبياناته السياسية الخـــاصة بمدة رئاسته الثانية . أن انفجـــار

أزمة الطاقة كن مدويا فى كل مكان . فى لندن أبرزت « الأوبزيرفر » المشكلة فى ١٧ ديسمبر ١٩٧٢ بعنـوان « أزمة الطاقة تهـدد أمريكا » . فى اسرائيل قامت صحيفة « الجيروزالم بوست » باعادة نشر تقرير من « وول ستريت جورنال » بعنوان يقول « احتمال الابتزاز العربى يخيف الولايات المتحدة » . كان هـذا فى أول فبراير ١٩٧٣ . وقبلهـا بأسبوع خصصت مجـلة « نيوزويك » الأمريكية قصة غلافها لـ « أزمة الطاقة الأمريكية » .

ومن حيث الخطوط الأسـاسية ، فان المناقشات والنتائج لم تكن تختلف كثيرا عن تلك التى كانت قائمة فى سنوات ١٩٤٦ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ . ان مجـلة « نيوزويك » لخصت النتـائج السـياسية للأزمة فى سنة ١٩٧٣ بشكل يكاد يكون متطابقا مع ما خرجت به هيئة أركان الحرب الأمريكية فى سنة ١٩٤٦ . قالت « نيوزويك » : « من الناحية الدولية .. يمكن للأزمة أن تجبر أمريكا على وضع قائمة جديدة من الأولويات فى الدبلوماسـيه الأمريكية . ان الولايات المتحـدة يمكن فى النهاية أن تجد نفسها مبتعدة ومتخلية عن حلفائهـا الاسرائيليين كجزء من محاولتهـا تحسين علاقاتها مع الدول العربية .. التى تسيطر على معظم احتياطى العالم من البترول » .

لقد كان هذا موقفـا مفهوما فى سنة ١٩٤٦ ، وظل كذلك فى سنة ١٩٧٣ . ان الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا ، وأوربا الغربية .. يجب أن تضع مصالحها فى المكان الأول .. ومصلحتها البترولية هى أساس هام جدا لأمنها ورفاهيتها الاقتصادية .

ولكن ما أخطأت فيه شركات البترول الكبرى الرئيسية ، كان افتراضها أن هناك طريقا سهلا لضمان علاقات طيبة مع الدول العربية صاحبة البترول .. عن طريق عدم مساعدة ـــ أو عدم

الاتجـار مع ـ اسرائيل . وحينما ـ مثـلا ـ زحفت شركة « شل » لكى تخرج من اسرائيل فى الخمسينات ، وباعت ممتلكاتها الثمينة وحقوقها لاسرائيل بسـعر بخس .. فان هذا لم يغير حقيقة مشـاعر الوطنيين العرب نحـو المؤسـسات البترولية الدولية .. ولم يقلل من عدائهم أو يخفض مطالبهم . وعلى العكس من ذلك ، لقد تصرفت الدول العربية على نحو أصبحت تمـارس معه ضغطا أكبر على شركات البترول . ان ما لم تفهمه شركات البترول فى أيام ترومان ـ وما زالت لا تفهمه فى أيام نيكسون ـ هو أن اسرائيل كانت ، الى درجة كبيرة ، شيئا منفصلا فى الشعور العربى عن شركات البترول الأمريكية والبريطانية . ان القضية هنا هى نفسها التى أدت الى أزمة البترول الايرانى فى سـنة ١٩٥١ : التقسيم غير العادل للغنائم فى السنوات المبكرة للصناعة .. وتصور الدول العربية أنها فى موقف يسمح لهـا بأن تطلب نصيبها ـ مع شىء من الزيادة .

والذى يجب أن يكون مفهوما لمديرى شركات البترول فى سنة ١٩٧٣ ، هو أنه بصرف النظر عن حجم التـأييد الذى تتلقـاه الحكومات العربية من أمريكا وبريطانيا ضـد اسرائيل .. فان هذا لن يؤدى الى أى فرق بالنسبة للضغط العربى على صناعة البترول العالمية . بل على العكس .. سـوف يؤدى هذا الى تشجيع القوميين العرب على ممارسة مزيد من الضغوط . اننى لا أقول هذا كيهودى فقط ، ولكن كبريطانى أيضا .

ولكن هذه لم تعد هى طبيعة توازن القوى فى الشرق الأوسط فى سنة ١٩٧٢ ، فحتى قبل أن تصبح أزمة الطـاقة الأمريكية قضية عامة فى نهـاية تلك السنة ، فان تحولا استراتيجيـا قد حدث فى الشرق الأوسط ، بنتـائج عميقـة تمس كل الأطراف

المعنية . اننا نحتـاج هنا الى أن نتذكر أن الحكومة البريطانية وصلت مبكرا ، فى سنة ١٩٢٢ ، الى نتيجة بسـيطة هى : انه لا الصهيونيون فى فلسطين ولا القوميون العرب .. يستطيعون ضمان أمن واستقرار المنطقة .. وبالذات بترولها الذى لا يعوض اقتصاديا واستراتيجيا . ان السـياسة البريطانية التالية رتبت نفسها على هذا الأساس . وبنـاء على ذلك فانها لم تضـع فى الاعتبار كلا من القوميين العرب والصـهيونيين . لقد أخذت فى اعتبارها فقط ضمان أمن واستمرار التدفق المستمر للبترول .. ومروره عبر المنطقة . كان هذا فى سنة ١٩٢٢ .

ولقد ظل هذا هو العامل السائد خلال الخمسين سنة التالية ، بما فى ذلك سنوات الحرب العالمية الثانية .. وبما فى ذلك أيضا العوامل التى دفعت ببريطانيا الى معارضة قيام دولة اسرائيل . وحينما أفسح البريطانيون الطريق أمام الأمريكيين — بعـد أزمة السويس وصدماتهم فى الأردن والعراق فى أواخر الخمسينات — فان السياسة الأمريكية ظلت تسير على نفس الخطوط الأساسية تقريبا .. فيما يتعلق باعطاء الأولوية المطلقة لتأمين تدفق البترول من الشرق الأوسط .

ان الامريكيين أعطوا أبعادا استراتيجية جديدة بالنسبة لدور الشرق الأوسط فى سياسة العالم .. وادخلوا الأسطول السادس فى البحر الأبيض كرمز للوجود الأمريكى والمصـالح الأمريكية . ولكن ، طبقا لهذه الاعتبارات العالمية .. فان الصهيونيين فى شكل دولة اسرائيل .. والقوميين العرب ممثلين فى مصر وناصر .. لعبوا مجرد دور هامشى ومحلى . ان أيا منهمـا لم يـكن عنصرا ضروريا زائدا أو ناقصـا فى نظـام الأمن الجـديد الذى أقامه الأمريكيون محل البريطانيين .

لقد ظل هـذا هو جوهر العـلاقة العـربية الاسرائيلية مع الأمريكيين خلال الستينات . وبشكل أساسى فان الموقف لم يكن مختلفـا فى اول يونيو ١٩٦٧ ، عن ذلك الذى كان عليه فى أول يونيو سنة ١٩٢٢ .. فلا القوميون العرب ولا الصـهيونيون كان شـيئا لا يعوض بالنسـبة للأمن الأمريكى والدفاع عن المصالح البترولية الأمريكية الضخمة فى الشرق الأوسط .

وحينئذ .. بدأ التحول .

ان التحول الجديد لم يحدث فورا عقب حرب الأيام الستة .. لأن تلك الحرب ـ مع كونها نصرا اسرائيليا ضخما ـ الا انهـا ما تزال محلية فى قيمتها ضد مصر وضد العرب .

ان هذا التحول لم يلاحظه أحد .. الى أن بدأ عبد الناصر فى سنة ١٩٦٩ يشن ما أسماه بـ « حرب الاستنزاف » عبر القناة .. وعندما بدأ الاسرائيليون يستجيبون لذلك بتصعيد التحدى.. اضطر السوفييت أن يسلموا بأن التغير الحقيقى فى ميزان القوى بالشرق الأوسط قد تم فعلا . فمع وجود المسـاعدات الأمريكية الضخمة فى المعدات والأسلحة وكنتيجة لتوسعها الصناعىالخاص .. فان اسرائيل أقامت حقيقة فى سنة ١٩٧٠ .. ما بدا كمجرد بريق من الصراع المحلى فى يونيو ١٩٦٧ . لقد أصـبحت اسرائيل عنصرا عسكريا رئيسيا فى الشرق الأوسط . بل انها أصبحت هى القوة الوحيـدة القادرة على اتخاذ اجراء حاسـم .. ما دامت القوتان الأعظم قد قبلتا موقفهما المتبادل من التعادل . ان هـذا الوضع كان يعنى أن أيا من أمريكا وروسـيا لا تستطيع التصرف فى المنطقة بغير التعـرض لعمل مضـاد تقوم به القـوة الأعظم الأخرى . أما اسرائيل فانها لم تكن تشعر بمانع فى هذا المجال .. وتسـتطيع أن تضرب حينمـا تريد .. دون حاجة الى أكثر من

الموافقة الضمنية لحكومة الولايات المتحدة على تأييدها . لقد كان هذا هو أهم تطوير يقع فى منطقة الشرق الأوسط منذ سنة ١٩٢٢ . فأخيرا جدا ، أصبحت هناك دولة واحدة فى المنطقة لا تستطيع الولايات المتحدة تعويضها . ان ما فشل حاييم وايزمان فىتحقيقه سنة ١٩٢٢ ، حققه موشى ديان فى سنة ١٩٧٢ . وكما سنرى فيما بعد ، فان ديان كان هو الذى فعل ذلك .. ليس مستر مائير ، ولا أى أحد آخر . انه أقام قوة ثالثة — قوة عسكرية حقيقية — فى الشرق الأوسط . هذه القوة كان لابد أن تصبح بطبيعتها عنصرا رئيسيا بالنسبة لأمن امدادات بترول الشرق الأوسط الى الولايات المتحدة ، وبدرجة مساوية الى أوروبا . أما اليابان ، فالواقع أن اعتمادها على بترول الشرق الأوسط كان كاملا بحيث أن ٩٠٪ من احتياجاتها يجىء من هذه المنطقة . ان هذا الوضع يؤدى بدوره الى مضاعفة المصلحة المباشرة .. وتوسيع منطقة اتفاق المصالح بين اليابان واسرائيل.

ان اسرائيل أصبحت هى أداة التأديب الوحيدة الممكنة .. التى يستطيع الأمريكيون والأوربيون واليابانيون استدعاءها عندما يريدون مواجهة العرب واثرياء البترول فى سنة ١٩٧٣ .. والذين تعتمد امدادات البترول لحقبة تالية .. على حسن نواياهم .

ان حكام ايران والسعودية والكويت وليبيا والعراق ، وسلاطين وشيوخ الخليج .. لم يعودوا هم الفقراء الذين يتعرضون لاستغلال العالم النامى . انهم أصبحوا ، مع قدوم سنة ١٩٧٣ ، يمسكون بأوروبا واليابان — وبدرجة ما .. أمريكا — كفدية . انهم يملكون البترول .. والآخرين يملكون الحاجة اليه . كانت تلك هى المعادلة القائمة فى الماضى . ولكن المعادلة لم تعد بمثل هذه البساطة بعد التطور الجديد . ان شركات البترول تملك

النقود ، وبارونات البترول يريدون النقــود و ــ ما هو أكثر من ذلك ــ يحتاجونها . انهم اعتادوا على أسلوب حياة لم يعودوا يستطيعون التخلى عنه الا على حساب المخاطرة بسلطاتهم وبرخاء شعوبهم وبأرباحهم .

ان هذه الأرباح بلغت أرقاما قياسية ، مع انتهاء سنة ١٩٧٢ . فخلال الحقبة من ســـنة ١٩٦٣ الى ســـنة ١٩٧٢ تلقى منتجو البترول الأربعة الرئيسيون فى المنطقة ٣٧ ألف مليون دولار .. كعائدات من شركات البترول العاملة فى بلادهم . ان شاه ايران حصل على ٩٥٠٠ مليون دولار ، ليبيا ٩٠٠٠ مليون،والكويت ٨٠٠٠ مليون ، السعودية أكثر من ١١٠٠٠ مليـــون . ان دخلهم المتوقع خلال السنوات الثلاث التالية من ١٩٧٣ الى ١٩٧٥ يصل الى٣٤٠٠٠ مليون دولار . وفى حالات السعودية وليبيا والكويت .. فان هذا الدخل البترولى يشكل ثلاثة أرباع أو أكثر ، من اجمـــالى دخل الدولة ، والثلثين فى حالة ايران . وبغير هذا الدخل ، وبصرف النظر عن مدخراتهم فى الخارج ، فان اقتصاديات البترول سوف تتوقف .. ونفوذهم سوف يتلاشى .

ان اعتماد العالم الغربى واليابان على بترول الشرق الأوسط لا يعادله فى الواقع سوى اعتماد حكام الشرق الأوسط على دخل البترول من الشركات الغربية وكذلك الوجود العسكرى الاسرائيلى فى الشرق الأوسط . ان اسرائيل هنا ليســـت وســـيلة دنيئة أو حقيرة كما قد يتصـــور البعض . فى الواقع أن هـــذا المزيج من الظروف التى لم تكن موجودة فى أية أزمة سابقة للطاقة .. هو الذى يحـــدد الآن مجرى المناقشة القـــائمة حاليا حـــول توفير احتياجات أوروبا وأمريكا واليابان من بترول الشرق الأوســـط .

ان كلا من اسرائيل والعرب يجب أن يعترفـــوا بما فشـــلوا فى تقييمه خلال فرصة السلام الأولى بينهما التى كانت قائمة فيما

بين سنتى ١٩١٨ و ١٩٢٣ . انهم كانوا جزءا من كل اكبر، وانهم لم يستطيعوا فصل مطالبهم القومية عن تلك التى يريدها المجتمع العالمى . فى ذلك الوقت ، والآن ، كان هناك الكثير مما يقال عن الأماكن المقدسة للأديان الثلاثة فى القدس .. ولكن الاهتمام الرئيسى حتى وقتها كان هو تأمين البترول .

ان ما فعلته أزمة الطاقة فى شتاء ١٩٧٢ – ١٩٧٣ هو انها ركزت مصالح واحدة أو أكثر من القوى العظمى على الشرق الأوسط .. وجعلت كل الأطراف المعنية تفهم أن هذه ليست مصلحة ثانوية .. وان هذه المنطقة لا تستطيع الولايات المتحدة أن تنسحب منها ، وكذلك لا تستطيع أوروبا ، ولا يستطيع الاتحاد السوفييتى ، ولا تستطيع اليابان .. أن تدعى عدم الاهتمام بها .

ومع اعلان أزمة الطاقة الأمريكية فى شتاء ١٩٧٢ أصبح واضحا أن القوى الأعظم تعود الى استعمار الشرق الأوسط ، بشكل جديد فى هذه المرة . ولأول مرة منذ سنة ١٩٢٢ ، يلوح السؤال الكبير فى الأفق من جديد : هل يكون العرب .. أم الصهيونيون .. هو الحليف الذى لا يعوض ؟ من – منهما – هو الذى يجب الاعتماد عليه ؟

فى سنة ١٩٢٢ وجد البريطانيون أن الاثنين – العرب والصهيونيون – يمكن الاستغناء عنهما بالنسبة للاستراتيجية العالمية ، وبالنسبة للمصالح البترولية البريطانية .

اما فى سنة ١٩٧٢ ، فقد وجد الأمريكيون معادلة جديدة تجيب على السؤال : انها الوجود العسكرى الاسرائيلى .

ولكن .. هل فهم الاسرائيليون هذا ؟ هل فهمه العرب ؟ هل فهمته الأطراف الأخرى ؟

للاجابة على هذا السؤال لابد أن نستدير الى التحول الذى وقع فى الوقت الذى بدات امدادات البتـرول تصـبح فيه عنصرا مسيطرا . كيف تعاملت كل من اسرائيل ومصر مع هذه الأزمة ؟

ان اسرائيل واجهت أخطر أزماتهـا ، ليس فى صـيف سـنة ١٩٦٧ ، ولكن فى الشتاء البارد لسنة ١٩٦٦ . وقتها كان البنـاء الاجتماعى والأيديولوجى والاقتصادى لاسرائيل معرضا كله للخطر وقتها أصبح اليهود المهاجرون من اسرائيل أكثر من اليهود المهاجرين اليها .. ووقتها بدت الحكومة وقد فقدت سيطرتها على الموقف المتدهور فى الداخل .. ووقتهـا توقفت الحـكومة عن أن تكون صريحة حول حقائق مشاكل اسرائيل مع شعبها ومع مؤيديهـا اليهود فى دول العالم . ان الجيش كان هو القطاع الوحيـد فى المجتمع ، الذى لم يتأثر بهذا المرض الشامل .

وفى مايو سـنة ١٩٦٧ واجهت حـكومة اسرائيل أزمـة أكثر اختلافا واقل حدة ، نشأت من التردد والافتقار الى القيـادة .. ومن عدم ثقة الجمهور بها ، بأكثر مما نشأت من طبيعة التهديد العـربى .

ثم جاءت حرب ١٩٦٧ ، ونتائجها التى لم تكن فى الحسبان .. لكى تشفى كل هذا فجأة .

وفى مارس سنة ١٩٦٩ تولت جولدا مائير رئاسة الوزراء خلفـا لأشكول . انها أصبحت رئيسة للوزراء ، بعد أسـابيع قليلة من تولى نيكسون منصـب رئيس الولايات المتحدة . لقـد كان هذا يمثل وقتا من عدم التأكد فى اسرائيل بالنسبة لمسـتقبل سياسة الولايات المتحدة .. ان هذا حدد نغمة المرحلة الأولى من الجرح الأمريكى الذى أصيبت به مسز مائير .. والذى جعل المسـألة كلها تبدو باعتبارها من أغرب العلاقات السياسية فى الدبلوماسية الجديدة .

ان جولدا مائير ورثت مع منصبها نتائج انتصار سنة ١٩٦٧.. وتلك النتائج كانت هى التى أملت عليها ، وشكلت ، تصرفاتها التالية مع الولايات المتحدة .. بالاضافة الى مشاعرها هى نحو أمريكا .

وفى تلك الفترة ، كان فشل اسرائيل فى ارغام أو اغراء الزعماء العرب على الجلوس على مائدة المفاوضات .. هو الشيء الذى ترك بصماته على السياسة الاسرائيلية ، وعلى نظرة وسياسة جولدا مائير ازاء المشكلة . لقد كان هذا هو السبب الذى أدى الى نفاد الصبر ، والى ادراك أن السلام لن يأتى . ان هذا الشعور شجع اسرائيل على الترحيب بالآثار الأخرى لانتصار سنة ١٩٦٧ .

ان أضخم آثار تلك الحرب قد جاء لاسرائيل فيما يشبه الصدمة . ان اليهودية العالمية استيقظت فجأة ، واندفعت فى مساندة اسرائيل اقتصاديا .. بشكل أخذ وقع الصدمة . انها صدمة كانت لها ردود فعل بعيدة على الحياة فى اسرائيل ، وعلى سياسات الحكومة .

ان الحكومة الاسرائيلية بدأت على الفور ، فى أعقاب حرب ١٩٦٧ ، فى فتح أبواب المرور أمام الفيضان العاطفى والمالى الذى تدفق على اسرائيل من يهود العالم .. بهدف مساندة اسرائيل المنتصرة ، وهو فيضان غمر الحكومة والمجتمع تماما . وحينما تولت جولدا مائير رئاسة الوزارة فى مطلع ١٩٦٩ ، فان هذا الانفجار القومى اليهودى العالمى .. كان قد بدأ طريقه فعلا .. فى استعمار اسرائيل منذ ١٩٦٧ . ومن نواح كثيرة فان هذا الموقف من جانب اليهودية العالمية .. كان له تأثير أعمق بكثير.. من تأثير الاحتلال العسكرى للأراضى العربية ، الذى حققه موشى

ديان . ان جيش الخلاص الاقتصادى اليهودى هذا ، والذى بدأ عمله مباشرة بعد يونيو ١٩٦٧ ، قد أدى الى نتائج الانتصـــارات العسكرية المفاجئة فى ١٩٦٧ .

لقد كان هذان العاملان ــ المســـاندة اليهـــودية العـــالمية ، والانتصار العسكرى ــ هما محور السياسة الاسرائيلية بعد سنة ١٩٦٧ . ان الأول كان أكثر أهمية من الثانى .. ولكن ، علينـــا الآن أن نبحث العاملين معا .. لأنهما اصـــبحا حجر الزاوية فى سياسة جولدا مائير ، التى مارستها فى علاقاتهـــا بواشنطن .. ولأنهما أديا الى تحديد شعورها بالنسبة للسيطرة داخليا على حركة العمل ، وبالتالى على اسرائيل ، وهى السيطرة التى سعت اليها مائير ضد موشى ديان وأصدقائه .

ان أول نقطة نلاحظها فى هذا الصدد هى الازدواجية الغريبة التى تميز بها الموقف الاسرائيلى بعد حرب ١٩٦٧ ، وبالذات بعد أن تولت جولدا مائير رئاسة الوزارة ، ان الحكومة الاسرائيلية ــ ابتداء من مسز مائير فما دونها ــ كانت تعلن أنها تريد باخلاص التوصل الى تسوية سلمية مع العرب ، وانها مســـتعدة لتقديم تضحيات لها اعتبارها من أجل الحصول على هذه التسوية .

وفى نفس الوقت فان نفس الحكومة ــ ابتداء من مسز مائير فما دونها ــ كانت مقتنعة تماما بأن اى خطـــوة مقترحة نحـــو التسوية ، ســـواء جاءت من صديق أو من عـــدو ، هى لا شىء اقل من افتتاحية تهدف الى تحقيق انسحاب اسرائيل من المناطق المحتلة . بناء على ذلك فان كل مشروع يتضمن انسحابااسرائيليا، سواء عرضهالمصريون أوالأمريكيونأوحتى الاسرائيليون «السذج» ومن بينهم ديان نفســـه ، كان يتعرض لشـــك كبير من جانب الحكومة الاسرائيلية . بل أن جولـــدا مائير كانت تـــرى أن مثل

هذا المشروع يجب تحطيمه فى كل مرة .. قبل أن يتحول الى تهديد لأمن اسرائيل أو لائتلاف الحكومة . بناء على ذلك .. فان الحكومة الاسرائيلية ــ وخصوصا مسز مائير ووزير خارجيتها أبا ايبان ــ كانت تتحدث دائما عن رغبة اسرائيل فى السلام . وعندما كانت تفعل ذلك .. فانها كانت تعطى صوتا لأمل .. بأكثر مما تقترح سياسة محددة . لقد رفضت مائير وزملاؤها الاتهام بأن هذا الموقف يتضمن عنصرا من النفاق .. ما دام يثبت أن السياسة الاسرائيلية لا تعطى الأولوية للسلام .. ولكن لمجرد الاحتفاظ بالأمر الواقع . ان أصحاب هذا الاتهام يقولون ــ ومعهم جانب كبير من المنطق ــ انه فى ظل الظروف الحالية السائدة فى العالم العربى .. وبالنظر لاتجاهات زعمائه .. فان اى تغيير يقع خلال هذه السنوات الخمس سوف يكون حاسما ومصيريا لمصالح اسرائيل .

هنا لابد أن نبحث الأسباب التى وقفت دائما خلف مقاومة جولدا مائير المستمرة لأى تغيير فى الأمر الواقع .

فى هذه النقطة لابد أن نعرف أن نتائج حرب ١٩٦٧ ، والحجم الباتر للانتصار العسكرى ، والحماس الذى خلقه بين يهود العالم ، والشعور السلبى من جانب الزعماء العرب نحو تسوية سلمية ، ونجاح سياسة ديان فى ادارة الاحتلال العسكرى ، والازدهار الاقتصادى فى اسرائيل الذى حل محل الكساد الاقتصادى السابق على حرب يونيو .. كل هذا خلق أساسا اجتماعيا جديدا لمفهوم ما بعد الحرب عن اسرائيل الكبرى ــ اسرائيل كما تتصورها جولدا مائير .

ان حماس يهود العالم لاسرائيل عبر عن نفسه فى شكل مساندة مالية وتأييد اقتصادى لم يسبق له مثل . ان هذا العامل الجديد

لم يترك بصماته على الاقتصاد الاسرائيلى فقط .. ولكنه أدى أيضا الى تغيير ضـــخم فى الأســـاس الاجتماعى والســـياسى للمجتمع الاسرائيلى . فبعد حرب ١٩٦٧ ، اصبحت اليهودية العالمية عنصرا فعالا لا يمكن تجاهله ، كما حدث قبل يونيو ١٩٦٧ . لقد أصبحت مساندة يهود العالم المالية عنصرا اكثر اهمية فى تشكيل السياسة الاسرائيلية .. اكثر أهمية من المهاجرين الجدد .. أو من برلمان اسرائيل . ان اليهودية العالمية ــ خصوصا القطاع الذى يمــد اسرائيل بالأموال ــ أصبحت عنصرا ضروريا فى المجتمع الاسرائيلى الجديد ، وفى السياسة الاسرائيلية الجديدة .

وبالطبع لم يكن هذا تحولا مفاجئا . أن عنـــاصر هذا التغيير كانت موجودة قبل الحرب . ان المجتمع الاسرائيلى أصبح منقسما بدرجة متزايدة بين الاقلية الغنيـــة .. والأقلية الفقيرة .. مع أغلبية رمادية اللون فى الوسط . ولكن ، قبل الحرب لم يكن الغنى يمثل سلطة سياسية كبيرة .. وكان هذا يصدق بالتأكيد ، وبدرجة اكبر ، على اليهودى الغنى الذى يعيش فى الخارج .. أما فى سنوات ما بعد حرب ١٩٦٧ ، فان سياسة مسز مائير أصبحت انعكاسا للصفقة الجديدة التى تمت مع اليهودية العالمية .. صفقة يكاد يكون معناها : ان عليكم ــ فى اسرائيل ان تستمروا فى التوسع العسكرى .. وعلينا ــ كيهود حول العالم ــ أن نقدم لكم الأموال . ان هذه الصفقة أصبحت أكثر أهمية فى نظر الحكومة الاسرائيلية .. من ضرورة الحاجة الى تسوية سلمية فى الشرق الأوسط .

لقد كانت هذه هى أول مرة منذ قيام اسرائيل فى سنة ١٩٤٨ ، التى يحدث فيها أن يعبر أغلبية يهود العالم ــ بما فى ذلك كثيرون بالاتحاد السوفيتى ــ عن تعاطفهم مع ــ ومساندتهم لـــ ــ اسرائيل .. علنا وبوضوح ، وان يفخروا بهذا التعاطف . انهم لم يكونوا

يخشون فى ذلك أية معارضة او ادانة بالولاء المزدوج ، أو بالتعصب الدينى . ان انتصار اسرائيل العسكرى بدا وكأنه قد أزال كل هذه الحواجز النفسية التى ظلت قائمة طوال ألفى سنة . ولقد عبرت هذه العواطف عن نفسها بطرق كثيرة .. أهمهـا تقديم مسـاندة مباشرة لاسرائيل و ـ الأهم من ذلك ـ تقديم مساهمة مالية ضخمة من يهود العالم . وبينما لا تقول الأرقام الرسمية كل الحقيقة .. فانها تقدم مؤشرا ممكنا لقياس الدرجة التى أصبحت حرب يونيو ١٩٦٧ عندها .. تمثل معجزة اقتصادية بقدر ما هى عسكرية .

ففى السنوات الخمس السابقة على حرب ١٩٦٧ ، بلغ اجمالى الهبات والمنح والتبرعات التى قدمها يهود العالم لاسرائيل، أربعمائة مليون دولار . وفى مقابل ذلك فان هذا الرقم ارتفع خلال السنوات الخمس التالية للحرب مباشرة الى ١٦٠٠ مليون دولار .. أى أربعة أضعاف .

ان هذه الاستجابة الديناميكية من يهود العـالم .. فى رد فعلهم بالنسبة لحرب الأيام الستة .. قد ادت الى ترطيب وانعاش كل قطاعات الاقتصاد الاسرائيلى .. واعادة شحنها بالحيوية . ان الأمر لم يقتصر على الهبات والمنح فقط ، وانما حدثت قفزة مماثلة فى الاستثمارات القادمة من الخارج . هذه القفزة سمحت بدورها أن تقفز الاستثمارات الاسرائيلية من ٣٢٠٠ مليون جنيه اسرائيلى فى سنتى ١٩٦٦ و ١٩٦٧ ، الى ٧٧٠٠ مليون جنيه اسرائيلى فى السنتين التاليتين للحرب .

وفى أعقاب هـذه القفزات .. امتد الانفجار الاقتصادى الى المؤسسات المالية والصناعية الأجنبية .. ان معظمها هو أسـاسا مؤسسات أمريكية وكندية وألمانية وفرنسية وبعضها بريطانية .

ان هذه المؤسسات والبيوت الدولية جاءت بأموالها الى اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ ، تشجعها فى ذلك بعض البنوك الكبرى فى الولايات المتحدة وأوربا . ان كثيرا من هذه المؤسسات لم تكن يهودية .. وتصرفت بناء على أسباب تجارية محضة فى قدومها الى اسرائيل .. ولكن الأغلبية الكبرى منها كانت تتمتع بضمانات قدمها اليهود الامريكيون ، أو قدمتها مؤسسات مالية يهودية دولية، مثل عائلة « روتشيلد » مثلا . وفى هذا المجال نجد أن شركة «فيرست بنسلفانيا » الأمريكية مثلا ، قد استثمرت فى اسرائيل ١٦ ١/٢ مليون دولار لاقامة أول بنك دولى فيها . ومع قدوم سنة ١٩٧٠.. وصل معدل الاستثمار السنوى لهذا البنك فى اسرائيل الى ١٥٠ مليون دولار .

ان هذا المزيج من الاستثمار المحلى الضخم ، زائد المصالح الاقتصادية الأجنبية .. قد أدى الى حدوث تدفق ضخم فى رأس المال .. مصاحب للتدفق المبدئى الذى جاء من يهود العالم. .ومن القروض والمساعدات الأجنبية . ولقد أدى هذا كله الى خلق نخبة اسرائيلية جديدة حلت محل النخبة القديمة . ان أصحاب النفوذ الاقتصادى بعد الحرب .. حلوا محل أصحاب النفوذ السياسى فى اسرائيل قبل الحرب . وقد أدى هذا الى تغيير أساسى فى المجتمع الاسرائيلى ، وهو تغيير لم يحدث مثله أبدا خلال السنوات الثلاثين السابقة . وهكذا ، الى جانب المؤسسات القديمة — مثل الأحزاب السياسية والوكالة اليهودية والهستدروت والكيبوتزات والجيش — أصبحت هناك نخبة جديدة غير محتاجة الى حماية وقيود السياسيين القدامى ان هذه النخبة الجديدة أصبح لها من القوة الذاتية والموارد المالية ما يكفى لأن تمارس هى بنفسها شكلها الخاص من النفوذ والحماية .

هكذا أصبح هناك « قباطنة للصناعة » فى اسرائيل .. يمتلكون

معظم المؤسسات الأكثر نجاحا .. ويمكن اعتبارهم «المائة عائلة» على الطريقة الاسرائيلية .. ولهم قدرة التصرف فى جزء كبير جدا من ثروة اسرائيل . مع ذلك فانهم مارسوا قدرا ملحوظا من ضبط النفس حينما كان الأمر يصل الى المسائل العامة . ولكن النتيجة الأخيرة كانت هى نفسها : تركيزا حادا فى الثروة يتمشى مع الفيضان المالى القادم الى اسرائيل من اليهود فى الخارج . ان هذه النتيجة كانت تشكل « كوبرى » يصل ما بين اسرائيل من ناحيـة وثروة اليهود فى أمريكا وبريطانيا والدول الأخرى من ناحية ثانية .

ان هذا الرخاء الاقتصـادى خلقه الانتصـار العسـكرى فى سنة ١٩٦٧ .. وقد كان انعكاسه هو أنه فى نهاية سنة ١٩٧٢ .. أصبح هناك تسع من كل عشر عائلات اسرائيلية تملك ثلاجة .. واربع من كل خمس لديهم موقد بوتاجاز ، ونصف السكان أصبحوا يملكون غسالات كهربائية . وباختصار .. فان ملكية هذه السلع المعمرة .. قد تضاعفت فى خلال ثلاث سنوات . والى جانب ذلك فان تطوير الاقتصاد الاسرائيلى لكى يصبح عصريا .. كان أمـرا يجرى بسرعة كبيرة فى ظل هذا التدفق المالى اليهودى العالمى .. وأيضا فى ظل التهديد العربى المستمر .

كل هذا كانت له نتائج سياسية عميقة . لقد أصبح هذا الاقتصاد الاسرائيلى المتسع يحتاج الى قاعدة متسعة ، والى احتياطى متسع من القوة العاملة ، والى العلاقات الضرورية مع الخارج ، انه اذن لم يعد دايان ، أو مائير ، اللذان يقرران سياسة اسرائيل فيما يتعلق بالمناطق المحتلة وبالحل السلمى . انها لم تعد رغبات مسز مائير ، أو المقاومة ضد الفلسطينيين أو حتى ضد دايان .. الذى أصبح يشكل سياستها . ان سياسة جولدا مائير أصبحت ملتزمة أيضا ، أمام اليهودية العالمية . ملتزمة بحكم الالتزام الاقتصادى الذى قامت على أساسه « اسرائيل الكبرى » كما تتصورها جولدا مائير .

ولكن الأمر لميقتصر فقط على ضرورة استمرار احتلال المناطق المحتلة ، والحدود الآمنة ، كشرطين اصـــبح الاقتصاد الاسرائيلى جائعا لهما . ان هذه الـــ «اسرائيل الكبرى» أصبحت فى حاجة شديدة أيضا الى الارتباط الامريكى . ان هذا الارتباط أصبح لابد من تأمينه والمحافظة عليه بأى ثمن ممكن . أى ثمن أقل من تحقيق سلام مع العرب سابق لأوانه .. أو مصـــحوب بتنازلات لامقابل لها ...

من أجل تأمين هذه المساعدة الأمريكية ، والتأييد الأمريكى ، فقد أصبح واجبا على اسرائيل أن تصمم مفهومها الخاص وتصورها الخاص بمنطقة الشرق الأوسط كلها. .بحيثيكون جذابا للأمريكيين ويضمن مساندتهم لاسرائيل .

ولكن التصور الاسرائيلى سرعان ما واجه المتاعب.ان الأمريكيين بدأت تصبح لديهم أفكارهم الخاصة عن مستقبل المنطقـــة ، وعن التخطيط لهذا المستقبل .. وهى أفكار تختلف عن تلك التى تتعصب لها جولدا مائير . ونتيجة لذلك ، فقد حدث خلال أيام من انتخاب نيكسون رئيسا لامريكا ، ان اصطدمت الخطتان بعضهما ببعض بعنف .. واتجهت العلاقة بين ويليام روجرز وزير خارجية نيكسون وبين مسز مائير ـــ حتى قبل توليها رئاسة الوزارة ـــ الى اتجاه خاطىء .

وفى نفس الوقت فان المصريين ـــ ناصر أولا ثم أنور السادات ـــ كانوا يضعون أيضا تصورهم الخاص بهم ، والذى يستهدفالولايات المتحدة هو الآخر ، ان هذا الاتجاه عرف باسم « تحييد أمريكا » فى الصراع العربى الاسرائيلى .

ان هذه الخطط الثلاث ـــ مع روسيا كقوة جانبية ـــ أصبحت هى السائدة خلال سنوات ما بعد حرب ١٩٦٧ . وقد أدى هذا ـــ

بالاضافة الى التردد وعدم التأكد من جانب الحكومة الاسرائيلية — الى الفشل فى تحقيق تسوية سلمية .

ولو نظرنا الى هذه السيمفونيات السياسية الناقصة بشىء من التفصيل .. فاننا سوف نكتشف أن يوم ٨ أكتوبر سنة ١٩٦٨ كان نوعا من المصفاة بالنسبة لمستقبل الشرق الأوسط . فعلى السطح .. قال السفير السويدى « جونار يارنج » مبعوث الأمم المتحدة .. أنه قام منذ بداية السنة بـ ١٢٨ رحلة جوية لمقابلة وزراء خارجية مصر والأردن واسرائيل .. ولم ير أسرته أو سفارته فى موسكو لمدة عشرة أشهر . ولكن ، من الناحية الفعلية ، تأكدت لدى « يارنج » انطباعات توصل اليها من قبل .. ولكن اسرائيل قدمت له فى ذلك اليوم الدليل على صدق تخميناته .

ففى ذلك اليوم قدم وزير خارجية اسرائيل مقترحات أمام الجمعية العامة للامم المتحدة بالنسبة لتصور اسرائيل للحل السلمى . لقد كانت مقترحات اسرائيل حذرة الصياغة ، وجيدة الاطار ، ولكنها كانت تفتقر الى المعلومات الضرورية والمحددة عن النوايا الاسرائيلية الحقيقية . انها مقترحات لا تقول شيئا عن عنصر الزمن ، ولا عن ماهية الحدود التى تراها اسرائيل آمنة ودائمة ، ولا عن أى حل بالنسبة لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين . لقد كانت الأجزاء الناقصة منها — بأكثر من الأجزاء المعلنة فيها — هى التى ستقرر مصير هذه المبادرة الاسرائيلية . ولكن الأكثر اثارة للدهشة من أى شئ آخر .. كان خلو هذه المقترحات من أى شىء عن مستقبل فلسطين .

وبالطبع ، لم يكن الأمر مفاجئا .. حينما رفض المصريون خطة السلام الاسرائيلية هذه بعد اعلانها بـ ٤٨ ساعة .. بسبب خلوها من التحديد .. ولأنها فى الواقع لا تضيف شيئا الى البيانات الاسرائيلية السابقة .

والذى كان اهم من العرض الاسرائيلى والرفض المصرى .. كان التطور الهام الذى وقع .. مغيرا كل الافتراضات السابقة . فلقد أعلنت أمريكا أنها سوف تبدأ فى اجراء مباحثات لبيع أول صفقة من طائرات الفانتوم الى اسرائيل .

لقد كان هذا يحمل معنى واحدا بالنسبة للقاهرة وموسكو : ان الولايات المتحدة قد قررت مرة ثانية (كانت المرة الأولى فى مايو سنة ١٩٦٧) الا تقيد اسرائيل . الولايات المتحدة قررت أن تضع على اسرائيل عبء الدفاع عن نفسها ، وأن تقدم لاسرائيل المساعدة اللازمة لضمان فعالية الموقف الاسرائيلى فى امتلاك قوة عسكرية رادعة . ولقد كان معنى هذا أن الولايات المتحدة قد طرحت جانبا اى احتمال لاتفاق الدول الأربع الكبرى علىسياسة موحدة بالنسبة للشرق الأوسط .

وبهذا القرار الأمريكى اصبحت الرسالة واضحة لكل من يهمه الأمر : ان الولايات المتحدة سوف تعتمد فى المستقبل على اسرائيل .. بقدر ما تعتمد اسرائيل على الولايات المتحدة . لقد تغير مركز اسرائيل من « زبون » لدى أمريكا .. الى شىء أقرب الى الشريك .

وفى البداية لم يستوعب المصريون النتائج الكاملة التى يعنيهـا هذا التحول الأساسى فى الموقف . فمن الآن فصـاعدا .. لم تعد الولايات المتحدة تستطيع أن تتحمل خسارة العنصر الاسرائيلى فى المنطقة . ومن المدهش أيضا ــ بدرجة متساوية ــ ان جولدا مائير لم تدرك هى الأخرى خطورة هذا التحول . لقد كان الذين أدركوا الأبعاد الكاملة للموقف الجديد هم الروس .. وموشى دايان .

ولكن هذا التدهور فى الموقف لم يطرأ عليه أى تحسن قبل ١٩ يونيو سنة ١٩٧٠ ، حينمـا أعلن ويليام روجرز وزير الخـارجية

الأمركية مبادرته المشهورة من أجل وقف محدود لاطلاق النار .. التى كانت مستمرة فيما يسمى بحرب الاستنزاف .

ان الحكومة الاسرائيلية أصرت على الا توافق على المشروع الأمريكى قبل الحصول على ايضاحات من نيكسون . وبناء عليه فقد وضعت اسرائيل مجموعة أسئلة ، حدد موشى ديان مضمونها .. وصاغها أبا ايبان ، وأرسلتها جولدا مائير الى واسنطن .. وأجاب عليها الرئيس نيكسون . وكانت توضيحات نيكسون تشمل التأكيدات التالية :

١ – ان أمريكا لن تضغط من أجل انسحاب اسرائيل من المناطق المحتلة قبل الوصول الى تسوية سلمية .

٢ – ان أمريكا لن تطلب عودة على نطاق واسع للاجئين الفلسطينيين الى اسرائيل كجزء من حل مشكلة اللاجئين .

٣ – ان أمريكا سوف تستمر فى تحقيق توازن فى الأسلحة بين أطراف الصراع ، أو بكلمات أخرى – سوف تستمر فى امداد اسرائيل بالأسلحة التى تحتاجها ما دامت روسيا تفعل نفس الشىء مع مصر .

وبهذه الضمانات التى قدمت فى حينها ، أصبح على جولدا مائير أن تختار بين الانضمام الى كتلة جحال اليمينية فى اسرائيل ، والتى تعارض المبادرة الأمريكية .. وبين التحالف مع الولايات المتحدة فى المبادرة الأمريكية . ومع ذلك فان مائير احتاجت الى ثلاثة عوامل اضافية .. كانت هى التى أرغمتها على قبول المبادرة الأمريكية . وكانت تلك العوامل هى : الضغط الخارجى ، التورط السوفيتى ، والسخط العالمى .

وكان معنى حاجة اسرائيل الى هذه العوامل الاضافية ، دون اكتفائها بالمبادرة الأمريكية ، هو قراءة خاطئة من جانب جولدا مائير للموقف الأمريكى . قراءة لم تضع فى اعتبارها أنه ما دام قد حدثت حالة تعادل فى القوة الاستراتيجية بالشرق الأوسط بين روسيا وأمريكا .. فان استمرار امداد أمريكا لاسرائيل بالسلاح معناه اتجاه الميزان العسكرى باستمرار لصالح اسرائيل . ان جولدا مائير وزملاءها لم يفهموا هذا .. ولكن موشى دايان والعسكريين فى اسرائيل هم الذين فهموا ، بطريقة صحيحة .

ونتيجة لذلك ، فقد رفضت اسرائيل العودة الى مباحثات يارنج، بينما كان الموقف الأمريكى يطلب ضرورة استئنافها . ومع ذلك .. فان استئنافها لم كن يعنى أى تقدم فى الموقف الاسرائيلى . فبينما انشغلت اسرائيل فى كيفية مواجهة المبادرة المصرية التى قدمها الرئيس أنور السادات فى ٤ فبراير سنة ١٩٧١ لفتح قناة السويس وانسحاب اسرائيل كمقدمة لحل سلمى شامل .

وبينما اسرائيل مشغولة بالرد على هذه المبادرة ، وصلت رسالة من الدكتور جونار يارنج سلمت الى كل من مصر واسرائيل. ان يارنج وضع لأول مرة أسئلة محددة فى خطابه يطلب الاجابة عليها .. وتتعلق كلها بمدى استعداد كل طرف لتحقيق الالتزامات المنصوص عليها فى قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ سنة ١٩٦٧ . وبينما أجابت مصر ، فان اسرائيل لم تجب .. بل وغضبت للغاية من تصرفات يارنج ، وقررت مقاطعته الى أن يسحب خطابه .. ولم يسحب يارنج خطابه .

وعلى الفور نشأت أزمة مصطنعة بين اسرائيل وأمريكا بسبب تصور مائير لوجود تحالف بين روجرز ويارنج والمصريين ضد اسرائيل . ورغم تصفية هذه الأزمة بسرعة ، الا أن الصحافة

الاسرائيلية كانت قد ذهبت بعيدا فى الحملة على مستر روجرز .. وفى افشال محادثاته التى أجراها فى اسرائيل خلال شــهر مايو سنة ١٩٧١ . ولم تستقر المسألة الا أثناء زيارة مائير لواشنطن فى اكتوبر من نفس السنة . فخلال تلك الزيارة كان اجتماع نيكسون هو أهم اجتماع عقدته مائير خلال تاريخها الطويل ، وربما أكثر أهمية بالنسبة للعــلاقات الاسرائيلية الأمريكية . فى تلك الزيارة قرر نكســـون ومستشاره للامن القومى كســـنجر ان الوقت قد حان لجعل الاسرائيليين يفهمون ويقبلون الموقف الأمريكى .

لقد عادت مائير من الولايات المتحدة لتعلن انها نجحت فى تغيير الموقف الأمريكى ، مع أن ما حدث هو العكس تقريبا . وسرعان ما تبين الخطـــأ الضخم الذى انعكس على ســـير الأحــداث . فخـــلال شـــهر ينـــاير ســـنة ١٩٧٢ أصـــبح واضحا ان اسرائيل قد وقعت فى خطـــأ تصـــديق دعايتهـــا هى . لقـــد أشـــاعت مصادر قريبة من جولدا مائير ان رئيسة وزراء اسرائيل قد أبلغت الرئيس الأمريكى انه ما لم ترفع الولايات المتحدة حظرها الذى قررته على تزويد اسرائيل بمزيد من طائرات الفـــانتوم ، فـــان الحكومة الاسرائيلية لن تقوم بأية خطوة نحو الانسحاب الجزئى أو الـــكلى .

ولم يكن هذا ما أبلغه الرئيس نيكسون الى زملائه فى الحكومة عن محادثاته مع مائير . لقد أبلغهم أن مائير قد وافقت على أن تبحث اتخاذ اجراءات عسكرية عملية تؤدى الى اعادة فتح قنـــاة السويس والتفكير فى مشروع روجرز من أجل الوصول الى تسوية سلمية . وكجزء من هذه الصــفقة الاجمالية .. فان الولايات المتحدة سوف توافق على استئناف امداد اسرائيل بالفانتوم .

ومع ذلك فبمجرد عودة مائير الى اسرائيل ، لاحظ البيت الأبيض الأمريكى اختفاء هذه الاشارة من كل المناقشات العامة حول الزيارة . وعندما أوضح الأمريكيون ذلك للجنرال موشى دايان اثناء زيارته لأمريكا خلال الشهر التالى ، عاد دايان الى اسرائيل لكى يعلن على شاشة التليفزيون ، بكلمات مختارة ، حقيقة المسألة . لقد قال دايان : لا أريد من الجمهور هنا — فى اسرائيل — أن يصدق أن كل شىء سوف يتم بنفسه لمجرد أن اسرائيل تجلس على القناة وتحصل على الأسلحة التى تريدها .. ولأن الأمريكيين يحبوننا كما يقال . ان اسرائيل لا تستطيع تحمل الاستمرار فى الجلوس بأسلحتها مطوية ، فمازال ضروريا لنا بالحاح أن نتقدم نحو تسوية سياسية .

ان دايان كان يحاول فى الواقع أن يخبر زملاءه الوزراء ، بقدر ما يخبر الجمهور ، بأن أمريكا ترى أن الاختبار الحقيقى ما زال هو التسوية السلمية ، وليس هو استمرار تدفق السلاح ، ان السلاح سوف يستمر فى التدفق .. والفانتوم سوف تصل .. ولكن بمفهوم التقدم نحو تسوية سلمية .

ولكن مائير تجاهلت هذا الجزء تماما ، ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى حاولت فيها أن تكون ماهرة بأكثر مما ينبغى . ففى ديسمبر سنة ١٩٧١ فوجىء المراقبون بوجود اختلاف أساسى بين التسوية السياسية كما يراها أبا ايبان ، وبين التسوية كما يراها الرؤساء الأفريقيون الأربعة الذين ذهبوا الى اسرائيل كوسطاء .. ان الرئيس السنغالى « سنجور » اعلن أن مائير أخبرته بأن اسرائيل لا تفكر فى ضم أراض عربية .. ومع ذلك فان وزير خارجيتها يعلن العكس أمام الأمم المتحدة .. وقال سينجور أن اسرائيل اما أنها خدعته ، أو أنها تراجعت كلمتها .

مع ذلك فلقد كان موقف مائير وحكوماتها – ومعهم الرأى العام الاسرائيلى – هو ضرورة الاحتفاظ بالخط المتشدد فى التعامل مع العالم الخارجى . لقد رأت مائير أن اسرائيل لم تكن تتمتع فى أى وقت مضى بمثل هذا التحسن فى موقفها السياسى والعسكرى والدبلوماسى . انه تحسن يعتمد على تشدد اسرائيل مع العالم الخارجى .. انه تشدد وصل بالمساعدات الأمريكية الى حجم لم تصل اليه مطلقا .. ووصل بالجيش الاسرائيلى الى نقطة أصبح عندها سيدا للشرق الأوسط .. ووصل بحدود اسرائيل الى أقصى درجات الأمن التى كانت تحلم بها لماذا اذن – هكذا سألت مائت زملاءها – تضحى اسرائيل بهذا المركز القوى .. عن طريق تقديم تنازلات لمصر أو لأى أحد آخر .. خصوصا مع التحول الأمريكى الواضح الى جانب اسرائيل ؟

وهكذا أصبح شعار عام ١٩٧٢ فى اسرائيل هو « لماذا التغيير ؟ » . ان اسرائيل سوف تستمر فى التغنى بكلمة السلام والتسوية السلمية .. بغير أن تورط نفسها فى أى شىء محدد . واذا حدث الأسوأ وقدمت أمريكا مبادرة جديدة .. فان اسرائيل سوف تعتمد تماما على الزعماء العرب فى رفض مثل تلك المبادرة .. بما يعفى اسرائيل فى النهاية من أى شجار جديد مع أمريكا .

ولقد بدا أن الأحداث كلها تساند هذا المنطق الاسرائيلى . لقد تم اجتماع القمة بين نيكسون وبريجنيف فى موسكو بغير أى صفقة روسية أمريكية عن الشرق الأوسط ، وأعيد انتخاب نيكسون .. وسار كل شىء على ما يرام وفقا للافتراضات الاسرائيلية السابقة .

ولكن بعض الرياح كانت قد هبت على الموقف الأمريكى . وكان موشى دايان أول من لاحظ ذلك حينما زار واشنطن فى أواخر

سنة ١٩٧٢ ، وبعدها جولدا مائير فى فبراير ١٩٧٣ . ان الامريكيين يريدون من اسرائيل ان تفهم ان القوتين الأعظم — روسيا والولايات المتحدة — تريدان شرقا أوسط بغير حروب أو أزمات ، وهما مصممتان على تحقيق ذلك .. وسوف يكون من الأفضل كثيرا لاسرائيل أن تعيد « تفصيل » سياستها لكى تكون جزءا من هذه العملية ، بأكثر مما تحاول الوقوف ضدها .

وهنا أصبح المعترض على هذا الموقف الجديد موشى دايان . انه لا يحبذ فكرة حل أمريكى سوفيتى بالنسبة للشرق الأوسط . وهكذا أصبح المخرج الاسرائيلى لذلك هو اجهاض مثل هذه التسوية مقدما ، بغير الاشارة الى العلاقات مع أمريكا . ولتحقيق ذلك .. لابد من البحث عن اقامة نوع من المواقف التى تجعل تدخل القوى الأعظم غير ضرورى .. وكانت هناك مشكلتان لابد من التغلب عليهما اذا أرادت اسرائيل ان تصل الى تسوية واقعية بغير املاء من القوى الأعظم :

المشكلة الأولى : هى التركيز المتزايد من أمريكا وروسيا على الاهتمام بدور الشرق الأوسط .. وهو الأمر الذى يتم منفصلا عن الصراع العربى الاسرائيلى .

المشكلة الثانية : اقناع أجهزة المخابرات الاسرائيلية — ومعها الأمريكية — بانه لا توجد حكومة عربية واحدة تستطيع تنفيذ أو تريد اى نوع من التسوية السلمية مع اسرائيل — جزئية أو شاملة — وفقا لشروط ملائمة لاسرائيل .

وفيما يتعلق بالمشكلة الأولى فان ما أريد أن أؤكده مرة بعد مرة فى هذا الكتاب هو ان البترول أصبح هو القوة الثالثة الهامة جدا فى الشرق الاوسط . القوة الثالثة التى قام القوميون العرب

والصهيونيون أما بأساءة فهمها .. أو بالتقليل من شأنها . وكما هى الحال مع أسباب النزاع العربى الاسرائيلى ، ومع أسباب النــزاع بين شركات البترول والدول المنتجة .. فان العنصر الأساسى الذى يهم الآن لم يعد هو مظالم المــاضى .. ولكن الأهمية الحالية ، والنفوذ الحالى لعنصر البترول . ان معادلة البترول الجديدة يمكن وضعها بهذا الشكل : ان الدول العربية (وايران) تملك البترول .. أما الغــرب فيملك الأمــوال التى تحتاج اليها الدول العربية (وايران) .. والدنيا كلها ـــ خصوصا أوربا واليابان وبدرجة متزايدة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ـــ يجب أن تتجه الى الشرق الأوسط للحصول على امدادات البترول خلال الحقبة القادمة .

بنــاء على ذلك فان عــامل البترول ـــ وليس الصــهيونية أو القومية العربية ـــ هو الذى غير شــخصية الشرق الأوسط بشكل أســاسى .. وجعل اسرائيل والدول العربيــة لا تعوض بالنسبة لأمريكا وروسيا (وأيضــا بالنسبة لأوروبا واليابان) فى سنة ١٩٧٣ . ان هــذا لم يكن صــحيحا فى سنة ١٩٢٣ أو فى سنة ١٩٦٧ . ان الامريكيين أصبحوا متنبهين لهذا التحول فى القيمة الاستراتيجية للشرق الأوسط . وبشكل ما .. فان زيارة جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل ، وحافظ اسماعيل مبعوث الرئيس السادات الى واشنطن فى فبراير سنة ١٩٧٣ .. كانتا نوعا من اغنية البجع للسياسة القديمة ، التى يبدو فيها الصراع العربى الاسرائيلى وكأنه العنصر الرئيسى فى صراع القــوى العظمى فى الشرق الأوسط . ان الاختلاف داخل المعسكر الغربى ، وعدم التأكد من هدف ونية البريطانيين والفرنسيين والأمريكيين .. أصبح واضحا فى الحقبة التى تلت حرب السويس سنة ١٩٥٦ ، ووضع الأساس لأزمة اسرائيل فى ١٩٦٦ وليس فى سنة ١٩٦٧ .

حينذاك بدأت الرياح تعصف بقــوة ضــد اسرائيل .. وضد الاحتفاظ بالنفوذ الغربى فى المنطقة . ان التحالف العربى السوفيتى قد حقق مكاسب ضــخمة .. وبدأ عليه التفوق فى دنيــا الشرق الأوسـط .. ثم متجها الى أن يصبح أكثر قوة فى افريقيا والبحــر الأبيض . ان الغرب – من خلال حلف الأطلنطى أو أكثر مباشرة بواسطة الولايات المتحدة فى البحر الأبيض وبواسطة البريطانيين فى الخليج العربى – بدا اما غير قادر على .. أو غير راغب فى التدخل . ان شركات البترول كانت خائفة وتميل الى التراجع . وقتها بدأ وجود اسرائيل بالنسبة لكثيرين ، باعتباره ليس أكثر من رحلة عابرة فى التاريخ العربى للشرق الأوسط ، بمثل ما كانت المملكة الصليبية ، وربما لفترة أقل كثيرا .

أما الموقف الاسرائيلى من الداخل .. فقد تميز بأوجه قــوة وضعف .. وبفاصل رفيع بين الاثنين .. خلال الأزمة التى سبقت حرب الأيام الستة . ان « عصر جولدا مائير » .. وجذور عجزها فى الحصول على اتفاق سلام مع جيرانها .. أو انســجام أكبر داخل المجتمع الاسرائيلى .. كانت أمورا تميز سنوات ما بعــد ١٩٦٧ . ان قيما جديدة قد تم ادخالها الى صهيونية ما بعــد حرب يونيو .. وهى قيم تؤكد على الثراء المــادى وعلاقته بيهود العالم ان هذا الوضع حقق تضامنا جديدا بين يهود العالم ، ولكن مع خطر يصاحبه – لم يعد افتراضا – لاتجاه قومية يهــود العــالم الى الانسكاب فى تعصب وطنى . ان ثمن الاعتماد المعاصر لاسرائيل على الولايات المتحدة واضح .. ولكن فوائده أيضا واضــحة فى ضوء العــلاقة الخاصــة التى أصبحت تربط اسرائيل بالولايات المتحدة . ان اسرائيل لم تعد مجرد « زبون » لدى أمريكا .. ولكنها أصبحت شريكة لها . ان تحول الدول الأعظم من سياســة التعايش العدائى الى سياسة التعادل الاستراتيجى ، خصوصــا

بعد اجتماع القمة بين روسيا وأمريكا ــ أصبح عنصرا جديدا . ان هذا الوضع الجديد قد أصاب القوى العظمى بالشلل فيما يتعلق بقدرتها على العمل المنفرد فى الشرق الأوسط ، وأرغمهــا على اعادة النظر فى أسس علاقاتها مع حلفائها بالمنطقة .

ففى موقف عالمى أصبحت روســيا مشغولة فيه بظهور قوتين جديدتين ، هما الصين فى الشرق .. والمجتمع الأوربى فى الغرب ، بأكثر من انشغالها بالنفــوذ المتدهور لأمريكا .. فان مركز الشرق الأوسط أصبح رئيسيا بكلا المعنيين : الاستراتيجى والبترولى .

وكنتيجة لذلك .. فاننا شاهدنا انعكاسا مثيرا فى أدوار هؤلاء الذين كانوا على المسرح عندما صدر وعد بلفور فى سنة ١٩١٧ . وقتها فهم حاييم وايزمان ــ وكذلك الزعماء القوميون العرب ــ أن عليهم أن يحجزوا قضاياهم لحساب واحدة أو أخرى من القوى العظمى . وفهموا أيضا أنهم اذا كانوا يريدون تحقيق أهــدافهم القومية ــ العربية أو الصهيونية ــ فانهم يجب أن يتحالفوا مع من يتوقعون انتصاره من بين الدول العظمى . ان كلا من العرب والصهيونية قد حصل ــ بدرجة أو بأخرى ــ على ما أراده .

أما الوضع بعدها بخمسين سنة ، فقد أصبح عكســيا . ان القوتين الأعظم تفهمان الآن انهما اذا أرادتا أن تحافظا على نفوذها ومصالحهما فى الشرق الأوسط .. فان عليهما أن يحجزاها لحساب واحد أو أكثر من الفريقين المتنازعين فى الصراع العربى الاسرائيلى وللطرف الناجح اذا أرادتا النجــاح لأهدافهمــا . ان الأمريكيين اختاروا اسرائيل .. والروس اختاروا مصر . ولكن الظروف فى

هذه المرة كانت مختلفة عن تلك التى كانت قائمة فى سنة ١٩١٧ . ان انتصار اسرائيل فى سنة ١٩٦٧ كان شاملا بالمعنى العسكرى .. ولكن لم يكن كذلك بالمعنى السياسى . وكنتيجــة لذلك .. فان القوى العظمى كان عليهــا أن تضبط أهدافهــا بموازاة أهــداف « القوى » المحلية .. من أجل أن تحقق توازنا جديدا فى القــوة والردع تنطبق بدرجة متشابهة مع كل من القــوى الأعظم .. والقوى المحلية . ان عليهما الآن تضمنا شكلا من أشكال الأمر الواقع ، بالنسبة للتعايش السلمى بين اسرائيل وجيرانها العرب .. ثم بين منتجى البترول العرب ودول العالم المستهلكة .

وكما فى البداية ، كذلك فى النهاية ، فان مجموعتى القــوة كانتا مرتبطتين فى تفاعل معقد .. لا أحد منهما يستطيع أن يتحمــل أن يتجاهل الآخر .. وكلاهما يجب أن يتعلم من فشــل المــاضى .. أن الشىء الوحيد الذى تغير فى الخمسين سنة السابقة هــو ان الشرق الأوسط قد أصبح محل اهتمام عالمى بسبب اعتماد رفاهية العالم على سلامه المستمر واستقراره و ــ الأهم من ذلك ــ بتروله . ولهذا السبب فان الصراع العــربى الاسرائيلى فى ســنة ١٩٧٣ لم يعد طرفا هامشيا ــ ولــكن رئيســيا ــ فى استراتيجية وسياسات القوى الأعظم ، والسبب الرئيسى فى هذا كله هــو : البترول .

وبالنسبة لاسرائيل ، فانها احتاجت الى خمس سنوات بعــد حرب يونيو لكى تصل الى نقطة أساسية هى : ان الرغبة الروسية الأمريكية المشتركة فى التعايش والانفتاح والتعادل والاستقرار فى الشرق الأوسط .. يمكن تحقيقها فقط ما دام كل من اسرائيل ومصر تشعران بأن أمنهما غير مهدد .

وبقـــدوم سنة ١٩٧٣ أصبح معـــروفا للأمريكيين والروس ، وللمصريين والاسرائيليين ، انه بالنسبة للمرحلة الراهنة .. وربما للحقبة التالية .. فان افضل سياسة ممكنة هى المحافظـــة على الأمر الواقع .. وليس البحث عن تسوية سلمية كاملة .

وبكلمات أخرى فان السياسة المطلوبة الآن هى : لا ســلام ولا حرب . أما لغز البحث عن تفاهم وسلام فسوف تستمر كل الأطراف المعنية فى لعبه .. كما استمرت تلعبه طوال الخمســـين سنة السابقة .. ومن حيث أنه لن يكون هناك سلام .. فهذا أمر مؤكد . أما من حيث أنه لن تكون هناك حرب .. فهـــذا أمر أقل تأكيـــدا .

* * *

ولكن .. هل مثل هذه التسوية ممكنة فى سنة ١٩٧٣ ، بعد أكثر من خمس سنوات من النصر الاسرائيلى ؟ .

ان الاجابة يجب فى التحليل الأخير أن تأتى — ليس من القدس ولا من واشنطن ولا من موسكو — وانما من القاهرة ودمشـــق وطرابلس .. ومن الفلسطينيين .. ان هذا كان هو مقياس فشل الدبلوماسية الاسرائيلية فى ظل أشكول ومائير . فمع أن اسرائيل احست بالرخاء ، ومع أن قوتها العسكرية تضاعفت ، فان هـــذا ما زال هو السؤال الرئيسى الذى يواجهها فى سنة ١٩٧٣ ، كما كان هو نفسه فى سنة ١٩٢٣ . ولـــكن اسرائيل فى هـــذه المرة تستطيع أن تفرض هى السلام الذى تريده على جيرانهـــا العرب .

ان المبادرة ليست — مع ذلك — فى يد اسرائيل . فبرفض مائير أن ترسم المستقبل لاسرائيل ، وبدخولها الانتخابات فى نهـاية سنة ١٩٧٣ — فان مسألة التفاوض مع العرب عن السلام ما زالت بعيدة . . كما كانت بعيدة أيام وايزمان منذ خمسين سنة .

ان البديلين الوحيدين القائمين الآن ، وفى الوقت الحاضر هما : سلام تفرضه القوى الأعظم . . أو سلام تفرضـــه اسرائيل . ان القوى الأعظم لم تعد تستطيع ولا تريد أن تحقق الحل الأول . اذن — لا يبقى — سوى حل واحد يجب أن يشهده الشرق الأوسط : السلام . . بالشروط التى تريدها اسرائيل .

اليهودي الأمريكي

◇ روجر كان

هذا الـكتاب ..

وهذا المؤلف ..

● كان الزعيم اليهودى الصهيونى « حاييم وايزمان » يقول دائما: « ان اليهودى يحمل فى حقيبته اينما ذهب .. كل العوامل التى تثير العداء نحوه .. والتى تحول مشكلته الى مشـكلة سياسـية واجتماعيـة » .

وهذا الكتاب الذى أقدمه اليوم هو أصدق تطبيق لذلك

الكتاب مؤلفه يهودى أمريكى — اسمه روجر كان — وعنوانه غير يهودى « الناس الانفعاليون » .. ومع ذلك فان الـكتاب هو نموذج من أعمال العلاقات العامة التى يقوم بها اليهود الأمريكيون داخل المجتمع الأمريكى . وحتى فى هذه الحدود فان الكتاب يظل مقبولا .. لو أنه يتناول فقط النشاط الدينى أو الاجتماعى أو الثقافى لليهود الأمريكيين .

ولكن الكتاب يريد تحقيق هدف سياسى أولا .. وتلك هى مشكلة اليهود دائما — انهم يتصرفون كأقلية سياسية .. وليست دينية ..

ان لهم أهدافهم الخاصة غير المعلنة .. وهم يبحثون عن مراكز السلطة والتأثير داخل المجتمع .. وهم يريدون اعادة ترتيب جدول الأصدقاء والأعداء أمام المجتمع كله لحسابهم .. وهذه كلها أهداف سياسية وليست دينية .

لقد انتهت الحضارة الانسانية منذ وقت طويل الى حل مشكلة الصراع الدينى : لم يعد الخلاف بين دين وآخر صداما يحله السيف .. وانما أصبح مجرد خلاف فى الرأى .. انت لك وجهة نظر خاصة .. وأنا لى وجهة نظر أخرى .. والخلاف بين وجهتى النظر ليس خلافا بين الصواب والخطأ .. ولكنه خلاف بين اجتهادين يتضمن كل منهما صوابا وخطأ فى وقت واحد .

ولكن اليهود لا يريدون ذلك — ، أو — على الأقل — هذه هى الصورة التى يعطونها لأنفسهم .. كما تبدو من هذا الكتاب . ان المؤلف يهودى أمريكى ، ويعيش عضوا فى المجتمع الأمريكى . ومع ذلك ففى كل فصل من فصول الكتاب يقوم المؤلف — أو ابطاله — بتوبيخ المجتمع الأمريكى . توبيخه لأنه لا يعطيهم مراكز أكبر ، ونفوذا أكبر ، وفرصا أكبر ، هذا مع العلم بأنه لا يوجد مجتمع آخر أعطى لليهود فرصا أكبر مما فعل المجتمع الأمريكى . ان المؤلف يوبخ المجتمع ، ويتهم الطبيب المسيحى الأمريكى مثلا بأنه أقل عناية بمرضاه من الطبيب اليهودى الأمريكى . وحينما تصر بعض الجامعات على أن يكون قبول الطلبة اليهود متمشيا مع نسبتهم فى اجمالى السكان .. فان المؤلف يسرع على الفور الى تعليق التهمة الجاهزة دائما : العداء للسامية . وحينما يشكو السود الأمريكيون من سكان حى هارلم المشهور فى نيويورك من استغلال التجار اليهود لهم .. فانهم بذلك يثبتون — فى رأى المؤلف

طبعا ــ انهم معادون السامية . وحتى حينما يشكو بعض اليهود مع التعسف فى تفسير واجبات اليهودى .. فانهم يتســاوون أيضا مع الد أعداء السامية .

لماذا هذا التناقض؟ هذا الارهاب؟

لسبب واحد : أن الصهيونيين حينما يتكلمون عن اليهــودية فانهم لا يتكلمون عن ديانة .. ولكن عن عقيدة سياسية . انهــا ليست نظرة خاصة الى الله والناس والأشياء .. ولكنها دستور سياسى ينطبق على المؤمنين به كل ما ينطبق على أعضاء الحــزب السياسى . هنا بالضبط يصطدم معهم المجتمع الذى يعيشــون فيه . هنا بالضبط يحاول المجتمع أن يعيدهم الى حجمهم الحقيقى . لانهم غيروا من قواعد اللعبة بغير أن يعلنوا ذلك .

انهم يفعلون ذلك ، حتى مع اليهود أنفسهم . ان المنظمــات الصهيونية فى أمريكا تقوم بحالة ابتزاز مستمر ليهــود أمريكا من أجل أن يدفعوا أكثر وأكثر وأكثر . ابتزازا تتراوح أســاليبه بين الترغيب والتهديد .. لكى يكون من المستحيل فى النهاية أن يتهرب يهودى واحد من التبرع . ثم .. أين تذهب حصــيلة التبرع فى النهاية؟ الى اسرائيل ..

وغزوات اسرائيل .. وجيش اسرائيل . وهل جاء ذكر موشى ديان فى التوراة؟ نعم ، والا .. فأنت لست يهوديا .. ولا أمريكيا .. ولا واحدا من هؤلاء « الناس الانفعاليون » .. الذين يتحدث عنهم هذا الكتاب ! انها حرب عصابات ــ على الطريقة اليهــودية ضــد المجتمع الأمريكى ! ●

بالنسبة لنا ــ نحن اليهود الأمريكيين ــ فان أمريكا تمثل لنا نهاية المطاف ، ليست أمريكا يوما ما . . ليست أمريكا فيما بعد . . ليست ــ حتى ــ أمريكا فى القريب العاجل . . ولكنها أمريكا الآن ، وهنا ، وفى هذه اللحظة ، حيث يعيش ملايين اليهود بحرية ، وأسلوب فوق ما كان يحلم به أجدادنا المزقون . ان هذا شيء طيب ، ولكنه فى نفس الوقت شيء مزعج . ان من السهل علينا أن نتأمل أرضا موعوده ، ومن السهل علينا أن نحلم بها . . بأكثر من أن نعيش فيها فعلا .

ان الحاخام « أرنولد جاكوب دولف » كان يقول دائما فى اجتماعه الدينى بمعبد « هايلاند بارك » شمال شيكاغو : « اننى حاخام بالنسبة لليهود الناجحين . ولكن الناس هنا لديهم زخارف النجاح فقط . ان اليهود الذين نجحوا فى الولايات المتحدة هم فى ورطة . ان الجنازات الستة اليهودية الأولى التى حضرتها هنا كانت حالات انتحار . وفى بعض الحالات انتحرت الزوجة عقب انتحار زوجها . هذه قد تبدو حالات متطرفة ، نعم ، ولكن اذا قلت لكم أنها أيضا مزعجة . . فربما تفهمون ما أقصده » .

ان النجاح ، محسوبا طبقا لمقاييس هؤلاء الذين لم ينجحوا مطلقا ، يؤدى الى نتائج جانبية مضرة للعقل والروح . والنجاح هو حقيقة أساسية فى الحياة اليهودية الأمريكية . ان الأسرة اليهودية الأمريكية ــ اذا كانت هناك أسرة كذلك ــ قد عاشت فى الولايات المتحدة لمدة جيلين تقريبا . ان النجاح يحيط بها ويصبغ فى حياتها . النجاح فى التجارة ، النجاح فى تعليم الأطفال ، والنجاح فى تلبية أكثر الاهتمامات سخونة . اننا ــ نحن اليهود الأمريكيين ــ قد أصبحنا الآن أصحاب متاجر ، ومديرى أعمال ، وخبراء ، وكتابا ، وفنانين ، ان قليلين منا عمال ، ولا أحد منا يعمل مزارعا

مطلقا ــ هذا شىء مفترض . ان المجموعة التى تساوينا فى مستوى النجاح وحجمه لابد أن تكون قد عاشت فى أمريكا أجيالا كثيرة أطول . ولو حكمنا على أساس الدخل والتعليم ونوع العمل . فان اليهود الأمريكيين قد أصبحوا الآن يشبهون الأساقفة الأمريكيين ، أو هم الارستقراطية الأمريكية الجديدة .

ولو أخذنا فى الاعتبار تصرف المسيحيين معنا فى هذا القرن والقرن السابق ، فان الانسان يميل الى أن يفكر فى اليهود على أساس معاداة السامية . ان المسألة يتباطأ شفاؤها رغم كل العلاج الحديث مثل مرض الورم الأسود . ان من الحقيقى اننا ــ نحن يهود هذه الأيام ــ يتم استبعادنا من مجموعة مختلفة من النوادى الأمريكية بالمدن والقرى ، ومن مدارس ، وأعمال ، ووظائف ، ومنتديات ، ومنازل ، و ــ كحقيقة مؤكدة فوق هذا كله ــ من الفوز بتأييد حزب رئيسى للترشيح لمنصب رئيس الولايات المتحدة . ولكن حتى فى هذه المنطقة المعيبة والرذلة ، فان الدلائل تشير الى نجاح يتحقق . ان مدرسة كورنيل الطبية مثلا لم تعد تعترف ان لديها ، حصصا تحدد عدد المقيدين من اليهود ومن ثم لم تعد تطبق هذه الحصص .

مع ذلك فلا شىء من هذا يكفى ، فبعد حقيقتين من سقوط النظام النازى لأدولف هتلر ، فان أى عداء للسامية هو وصمة فى جبين أمريكا والديمقراطية والانسانية ، ووسط نقص التجربة الأمريكية ، وعدم اكتمال النجاح الأمريكى ، فان الانسان تريحه حقيقة ان عشرات ، ربما مئات ، من الحواجز المضادة لليهود ــ التى لم يكن يجب بناؤها أصلا ــ هى الآن . . تتساقط .

ان دراسة حديثه أجراها مجموعة من اليهود . . بهدف فحص الفرص القائمة أمام اليهودى الأمريكى لكى يصبح رئيسا لكلية أو جامعة أمريكية . انها ليست فرصا كبيرة ، فحتى الآن ، هناك

اربعة يهود فقط هم رؤساء لكليات جامعية فى أمريكا .. بما فى ذلك كليتان خاضعتان للاشراف والتمويل اليهودى . ويعلق أحد اليهود الأمريكيين على هذه الحقيقة بقوله : « لكن ما دامت المشكلة هى رئاسة الكليات ، فهذا عظيم ، منذ عشرين أو حتى ١٥ سنة مضت ، لم نكن نستطيع أن نمارس رفاهية التفكير فى القمة . لقد كان علينا أن ندق الأبواب ليلا ونهارا .. نتوسل ونهدد ونفاوض .. لكى نجعل بعضا من هذه الكليات يأخذ اليهود .. كمجرد مدرسين » .

* * *

وطبقا للتقديرات والاحصائيات ، التى تم تصنيفها تحت توجيه اللجنة اليهودية الأمريكية ، فان السكان اليهود بالولايات المتحدة يبلغ عددهم خمسة ملايين و ٦٦٠ ألفا . ان الرقم غير دقيق . فمن الناحية الديموجرافية ، يعتمد الرقم على التخمين بدرجة ما . ولكنه على أى حال أحسن رقم نملكه أو نتوقع أن نملكه . فلكى يتم تحديد عدد اليهود عن طريق الاحصائيات الفيدرالية فان هذا سيكون عملا غير دستورى وعرضة للجدل . وبالرغم من أننا — نحن اليهود — لدينا حب استطلاع بالنسبة لأنفسنا .. بل ونقوم بمجهود كبير لدراسة أنفسنا .. فاننا لن نرحب بتحريات تقوم بها الحكومة . ان حكومات كثيرة جدا عبر قرون طويلة جدا . استدارت ضدنا .

ان أمريكا هى ، اذن ، تضم سكانا لا يمثل اليهود أكثر من ثلاثة فى المائة منهم .. وهذا أمر غريب . ان الشىء الغريب هو أن ثلاثة فى المائة فقط تعطى هذه المساهمة الكبيرة للتجارة الأمريكية والثقافة الأمريكية والحيوية الأمريكية .

ان أضخم الصحف الأمريكية — وهى النيويورك تايمز — تملكها أسرة يهودية منذ أكثر من ثمانين عاما . وبالاضافة الى ذلك فان اليهود فى أمريكا يديرون حوالى نصف الدور الكبرى لنشر الكتب . ان « راندوم هاوس » و « سيمون وشوستر » و « نيو أمريكان ليبرارى » و « الفريد نويف » و « أثينيوم » .. هى مجرد قلة من الدور التى تعمل تحت اشراف اليهود . ان ثلاثة من رؤساء المحطات التليفزيونية الضخمة هم يهود : ويليام بيلى فى « سى . بى . أس » و « روبرت سارنوف » فى « ان . بى . سى » .. وليونارد جولدنسون فى « أ. بى. سى » . ونفس الحال أيضا بالنسبة للممثل الكوميدى الذى يستجمع شجاعته مرة فى السنة ويلقى بنكتة عن نواحى قصور المحطات الثلاث الضخمة .. الذى هو أيضا يهودى . ان اليهود الأمريكيين يسيطرون على الكوميديا الأمريكية بشكل غالب ، وقد خرجت عدة عشرات من الكلمات العبرية واليديشية من المسرح الى الاستعمال العام .

وفى مجال آخر — التعليم — نجد أن اليهود يمثلون ربع العدد الاجمالى لطلبة جامعة هارفارد ، ومن الناحية العملية فان كل اليهود يحصلون على نوع ما من التعليم الجامعى ، وكثيرين يحصلون على درجات متقدمة .

وفى الموسيقى ، نجد أن فرق الأوركسترا الأمريكية الأربع المتفوقة .. يقودها يهود .

وفى الكتب ، سجل أحد الباحثين قائمة بالكتب التى تهتم بالمسائل اليهودية والتى نشرت بأمريكا ، ان القائمة وصلت الى ٢٥٨ كتابا ، نشرت فى سنة واحدة .

وحيثما تصدر الكتب ، يوجد النقاد ، ان النقاد اليهود هنا

— فى أمريكا — يتزايدون ويتناسلون بمنتهى الحرية ، الى الدرجة التى جعلت أحد الكتاب الأمريكيين يقول متهكما : « ان المؤلفين والروائيين اليهود يحققون الثروات الطائلة بسبب مديح النقــاد اليهــود » .

* * *

مع ذلك فان اليهود ما زالوا يحاولون يوما بعد يوم التعرف على أنفسهم . ان اللعبة تبدأ بسؤال يوجهه اليهودى الى نفسه : من أنا ؟ بعدها تبدأ المناقشات .

ان المجلس القومى للنساء اليهوديات أصدر كتيبا يتساءل فيــه أحد الكتاب اليهود : « ما هو معنى أن تكون يهوديا ؟ هل هــذا يعنى مجموعة من القيم ؟ هل يعنى نظرة محددة الى الله والانسان والدنيا ؟ أم .. هل هو يعنى فقط أن يكون لك أصدقاء يهود ؟

ولكن سيدة يهودية فى نيويورك تعتبر هذه أســئلة ناقصة . انها تقول: « أنا لا أعرف ما اذا كان هناك اختلاف حقيقى بينى وبين الفتاة المسيحية التى تسكن فى الحى المجــاور .. ولكننى على أى حال أحس براحة أكبر من صحبة اليهود أمثالى . ربمــا يكون هذا هو ما أعنيه من كونى يهودية » .

ويرد صديق السيدة اليهودى هو أيضا : « لا ، لا .. لابد أن تكون المسألة أكبر من ذلك » .

فبالنسبة لقضية الشخصية اليهودية فى أمريكا ، يقــول الدكتور « جون سلاوسون » النائب السابق لرئيس اللجنــة اليهــودية الأمريكية : ان التقليد اليهودى لا يخاطب اليهود فقط ، ولــكنه يخاطب كل المجتمع . ان اليهود حاولوا دائما وكثيرا عدم تســليط

الضوء على السمات اليهودية ، وهو احساس يرجع الى العزلة .

وفى نفس الوقت نجد أن المجلس الأمريكى للديانة اليهودية ــ المعادى للصهيونية ــ يوزع تسجيلا مطبوعا لمناقشته بين ثلاثة أساتذة عن «ما الذى تقدمه اليهودية لأمريكا المعاصرة» . ان الدكتور « جاكوب بيتوشوسكى » الأستاذ بالكلية العبرية يؤكد أنه اذا كان اليهود الأمريكيون يريدون مفهوما أوضح لأنفسهم ، فان عليهم أولا أن ينتزعوا الاشراف على التعليم اليهودى من أيدى الصهيونيين . انه يرى أيضا أن « .. الصهيونيين يسيئون استخدام المدارس .. وقد استطاعوا أن يجعلوا الشباب اليهودى يؤمن بأن الصهيونى هو الذى يملك المفتاح الحقيقى لكنوز اليهودية » .

ولكن ، يرد على ذلك يهودى من ديترويت ، فيقول غاضبا : « ان الصهيونية هى أعظم شىء على الاطلاق بالنسبة لليهود الأمريكيين . فحينما كسبت اسرائيل كل تلك المعارك .. فان العالم كله وجد الى الأبد أن اليهود يستطيعون أن يحاربوا » .

وبالاضافة الى ذلك فاننا نجد أن مجموعات من علماء الاجتماع والنفس قد نشروا أبحاثا تدرس اليهود كناخبين ، كرجال أعمال ، كمشاغبين ، كمواطنين ، كمومسات ، كآباء وسكيرين . ان كثيرين من المؤلفين يبحثون عن مفتاح موحد للشخصية اليهودية . ان من الممكن ، بعد دراسة تقاريرهم ، أن نستخلص أن اليهود .. بمقارنتهم مع غير اليهود .. هم على اليسار قليلا من الوسط ، ولكنهم يتحركون الى اليمين ، انهم لا يعملون لدى الغير ، ولكنهم يتجهون بنسبة متزايدة الى العمل فى المؤسسات الكبيرة . انهم يرتكبون جرائم عنف أقل نسبيا .. ويساهمون

بقدر أكبر فى الأعمال الخيرية . انهم يكرسون جزءا كبيرا ، ان لم يكن الوقت الرئيسى ، من وقتهم .. لأطفالهم . انهم لا يشربون الخمور بالمعدل المرتفع الذى يفعله المسيحيون بالرغم من أنهم يتجهون الى أن يصبحوا كذلك .

وبعد هـذا كله ، فمن الممكن أيضـا أن نستخلص من هـذه الدراسات أن علماء النفس اليهود تتسلط عليهم فكرة دراسـة اليهود . ان اللعبة تستمر والسؤال يتم طرحه دائمـا : ما هو معنى أن تكون يهوديا ؟

أن العالم فيه ١٢ مليون اجابة محتملة ــ ١٢ مليـون يهودى محظوظون بالحيـاة فى الثلث الأخير من القـرن العشرين للعصر المسـيحى .

وباعتبارنا يهودا ، فان أمامنا عدة أسئلة لابد أن نراجعها .

مثلا : هل « سامى ديفيز » المطرب الزنجى ، يهودى فعـلا ؟ ما الذى سيحدث لو انه حاول شراء منزل فى حى يكون كل سكانه من اليهود البيض ؟ هل « اليزابيث تايلور » يهودية ؟ كيف يمكن تعريف أطفالها ؟ هل تصدق أسرة « مايك تود » أن له زوجـة يهودية ؟ ان والد « كارل ماركس » تحول الى اليهـودية سـنة ١٨٢٤ ، حينما كان ماركس ما يزال فى السادسة من عمره . هل كان كارل ماركس ، الرجل ، يهوديا ؟ و « هين » .. الشـاعر الذى اختار التنصير باعتباره « باسبورا الى الثقـافة » .. هل كان يهوديا ؟ هل كان « تروتسكى » .. الملحد .. يهـوديا ؟ وبارى جولد ووتر ؟ و .. المسيح ؟

ان الاسترسال فى المنطق يضيف صعوبات جديدة بالنسبة لتعريف الشخصية اليهودية . وفى النهاية نصل الى السؤال الرئيسى مرة أخرى : من هو ــ بالضبط ــ اليهودى ؟

ان اليهود ليسوا جنسا . ليست لهم ملامح جسمانية مشتركة ، ولا لغة مشتركة . انهم ربما يتحدثون الانجليزية أكثر من اية لغة أخرى . ان اليهود سمر وبيض ، طوال وقصار ، يتكلمون الانجليزية أو اليديشية أو الفرنسية أو العبرية ، أو ربما اللغات الأربع . انهم يصلون لله ثمانى مرات فى اليوم ، وفى نفس الوقت يدافعون بانفعال عن الالحاد . ربما كان هذا هو ما جعل شخصا ما يصيح متعجبا : « اليهود ؟ لا يوجد شىء اسمه اليهود » !

ولكن معظم اليهود ، أو معظم الزعماء اليهود ، يقولون أن مسألة الوصول الى تعريف ذى مغزى هى مسألة هامة وصحيحة فى الولايات المتحدة اليوم مع ذلك فان التعريف ينفجر متعديا حدود الزمان والمكان بل ان مشكلة الوصول الى مثل هذا التعريف أصبحت قضية سياسية جديدة فى اسرائيل نفسها .

ان اسرائيل هى هيكل أو ملجأ . ان هذا المفهوم حرج بالنسبة للجمهور الاسرائيلى الحالى بمثل ما كان الاستقلال حرجا وحساسا للولايات المتحدة فى بدايتها .

وفى ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٠ تبنى الكنيست ــ وهو البرلمان الاسرائيلى ــ هذا المفهوم رسميا .. عندما أصدر ما يسمى بـ « قانون العودة » . ففى ظل ذلك القانون .. يصبح من حق كل يهودى يعيش فى الدنيا أن يحصل فورا على الجنسية الاسرائيلية . وبهذا الشكل فان « قانون العودة » يجعل من اسرائيل وطنا قوميا يهوديا .

ان « الكنيست » .. باعتباره جهازا سياسيا وليس فلسفيا .. اختار عدم تعريف كلمة « يهودى » . ونتيجة لذلك فان « قانون العودة » يقدم بالتحديد أرضا موعودة لمجموعة هى فى حد ذاتها بغير تحديد ولا تعريف . ولأن القانون السيىء يخلق بدوره حالات صعبة ، فان هذا هو ما بدأ يحدث فعلا . مثلا : هل المرأة المسيحية بالولادة .. تستحق الجنسية الاسرائيلية عندما تتزوج يهوديا ؟ هل يستحقها اطفال الزواج المختلط ؟ هل يحصل عليها اليهود المرتدون الى اليهودية ؟ ان « الكنيست » لم يعرف .. أو اختار أن يظل صامتا .

وبعد صدور القانون بسبع سنوات ، أى فى ١٨ يوليو سنة ١٩٥٧ ، فان « دافيد بن جوريون » .. الذى كان حينئذ رئيسا لوزراء اسرائيل .. اختار أن يقضى على هذا التشوش بتقديم تعريف متماسك عبر عنه هو بأنه يمثل « عقيدته الخاصة » .

فعندما كان « بن جوريون » يخاطب منظمة صهيونية عالمية .. قال عن نفسه أنه « يهودى أولا .. واسرائيلى بعد ذلك » . ثم قال بن جوريون : « ان اليهودى هو عضو فى الشعب اليهودى . ان هناك وحدة قومية بين يهود العالم ، تقوم على أساس المصير المشترك والتراث المشترك والأمانى المشتركة بالنسبة للمستقبل » .

هنا بدأت آراء بن جوريون تتعرض للجدل . فعلى سبيل المثال .. هل تعنى كلماته أن المدير اليهودى الشيوعى لمصنع فى « لينينجراد » وسمسار البورصة اليهودى الرأسمالى فى « كليفلاند » يعملان نحو هدف مشترك و — بشكل ما — يهودى ؟

ان بن جوريون لم يرد ، ولكنه استمر فى كرسيه فى رئاسة الوزارة يثير العواصف والغموض فى تفسيراته . انه قال : « ان

الذى ضمن بقاء الشعب اليهودى هو الرؤيا المسيحية لأبناء بنى اسرائيل . رؤيا الخلاص للشعب اليهودى للانسانية . ان دولة اسرائيل هى أداة من أجل الوصول الى هذه الرؤيا المسيحية .. ان الشعب اليهودى فى كل أنحاء العالم هو طليعة دولة اسرائيل وأكثر حلفائها اخلاصا » .

ان كل اليهود — هكذا كان بن جوريون يؤكد — لابد أن يدينوا بالولاء لاسرائيل . ان عليهم أن يقدموا هذا الولاء ، بصرف النظر عن أين يعيشون أو ماذا يعملون أو كيف يتعبدون . وبهذا فان اليهود خارج حدود اسرائيل ، فى لينتجراد وكليفلاند وكل مكان آخر سوف يكونون مشوشين دائما بالنسبة لشخصياتهم . ان التشوش هو حالة دائمة ولكنها موحدة لهم . فطبقا لآراء بن جوريون ، فانهم يعيشون فى عالمين — يهودي وغير يهودى — وليست لهم جذور حقيقة فى اى منهما . ان بن جوريون يقول فى هذه النقطة : « انه فى اسرائيل فقط .. يكون اليهود أحرارا كرجال .. وكيهود » .

ان هذه الآراء فشلت فى ارضاء أحد ، حتى قائلها نفسه .. فخلال خمسة عشر شهرا .. اعترف بن جوريون انه برغم كل سلطته ، وكل ايمانه باسرائيل ، فانه هو نفسه لم يستطع تعريف اليهودى .

وفى ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٥٨ ، كتب بن جوريون خطابا الى « حكماء اسرائيل » . ان مجموعة بهذا الاسم لا توجد رسميا . ولكن بن جوريون إختار الباحثين اليهود فى أنحاء العالم وطلب منهم أن يصلوا الى تعريف أخير لليهودى .

ان هذا الطلب استجاب اليه ٤٣ حاخاما وباحثا وكاتبا يهوديا ،

من بينهم ١٢ أمريكيا . ان اجاباتهم صدرت فى مجلد من ٤٢٠ صفحة باسم « الهوية اليهودية » . ومن هذا المجلد نخرج بأن حكماء اسرائيل لم يتفقوا على كيفية تعريف اليهودى .

وطبقا لما يقوله « الهالاشاه » .. الذى هو جهاز القانون الدينى اليهودى فى اسرائيل .. فان اليهودية لا تتحقق الا عن طريق الأم ، وليس عن طريق الأب . فمن وجهة النظر اليهودية — طبقا لهذا المفهوم — فان الطفل الناتج عن زواج مختلط يأخذ دائما ديانة الأم . وكما يشير بعض علماء النفس ، فان هذا التأكيد اليهودى الحالى على دور الأم يشير الى مجتمع أموى . ويضيف « الهالاشاه » كذلك ان الطفل الناتج عن الهجر أو الاغتصاب أو البغاء يتمتع دائما بمركز كامل كيهودى .. ما دامت الأم فى كل حالة كانت يهودية .

وبالاضافة الى ذلك ، فان « الهالاشاه » يقدم حلا بالنسبة لمن يتحولون الى اليهودية . فلكى تكون المرأة يهودية ، يجب عليها أن تخضع لطقوس خاصة تتضمن تغطيسا يسمى « تيفيلاه » ان هذا التغطيس يجب أن يكون كاملا .. والمرأة يجب أن تكون عارية حتى من الخواتم . أما الذكر ، فلابد له أيضا من التغطيس .. وفوق ذلك يجب تطهيره .

وطبقا لما يصر عليه « الهالاشاه » .. فان الولادة كيهودى تجعل الانسان يهوديا دائما . ان اليهودى لا يستطيع أن يتوقف عن كونه يهوديا باختياره ، فالاختيار الشخصى لا صلة له باليهودية . ان اليهودى الذى يتحول الى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يرتكب خطيئة ، لكن نفس الشىء أيضا بالنسبة لليهودى الذى يهمل فى أداء الصلاة . ان كلا التصرفين لا يلغى يهودية الفرد . ان هذا يجعله يهوديا سيئا فى نظر الآخرين . ولكى يهوديته لا تتأثر

وكما صاح حاخام مؤخرا فى وجه يهودى ملحد : « أن تكون يهوديا .. فهذا شيء يلتصق بك ، سواء أردت أو لم ترد . انك لا تستطيع أن تتوقف عن كونك يهوديا ، بصرف النظر عن النقطة التى تذهب اليها . ان الله فقط يستطيع أن يفرج عنك .. وهو لن يفعل ذلك » !

وفى النهاية فان المحكمة العليا فى اسرائيل لم تصدر تعريفا لليهودى ، وربما كان السبب هو أنها عجزت عن ذلك . ويقول المدير التنفيذى للمؤتمر اليهودى الأمريكى : « نحن نوافق على عضوية أى شخص يقول انه يهودى ولا يمارس أية ديانة أخرى . ولكننا لا نقول مطلقا أن اليهودى يمكن تعريفه » .

. . . .

واذا انتقلنا الآن الى الجانب التنظيمى فى حياتنا — نحن اليهود الأمريكيين — فاننا سوف نجد انه توجد الآن ٢١٢ منظمة يهودية تعمل فى الولايات المتحدة . وفى هذا الصدد . لا توجد وجهة نظر يهودية أمريكية واحدة بالنسبة لحرب فيتنام ، أو بالنسبة لستوكلى كارمايكل ، أو علاقات الجنس قبل الزواج مثلا . ومع أنه لا يوجد موقف يهودى أمريكى واحد بالنسبة لأى شيء .. الا أن الاستثناء الوحيد لذلك هو محاربة العداء للسامية .

واليهود الأمريكيون فى اتحادهم بالنسبة لهذا الموقف .. الا أنهم هم أنفسهم يعيشون حياة مختلفة ومتنوعة . ان الاستفتاءات خادعة بالنسبة لهذه النقطة . فمن الاستفتاءات والاحصائيات المتاحة نعلم أن نسبة كبيرة من اليهود يعملون فى الوظائف المحترفة والمتخصصة والفنية ، وان اليهود فى أمريكا يكسبون نقودا أكثر مما يكسبه الأمريكى النموذجى . بعد ذلك نجد أن تباين الحياة

اليهودية فى أمريكا يتجاوز الأساليب العلمية الحديثة فى البحث والتقصى . وكثير من المنظمات اليهودية الكبيرة والضخمة قضت أوقاتا صعبة فى قبول التنوع والاختلاف بين أعضائها . عندما نقرأ الآن البيانات الصحفية التى تصدرها المنظمات اليهودية فى الولايات المتحدة . فاننا نحس بتزايد المصلحة المشتركة والاحساس المشترك بالالتزام اليهودى فى أنحاء الولايات المتحدة . ومع كل جيل يهودى أمريكى جديد .. فان الحياة اليهودية تنمى مصالح مشتركة والتزامات جديدة .. أيا كانت هذه الالتزامات .

ان معظم المجموعات اليهودية والمنظمات اليهودية الكبرى فى الولايات المتحدة تصف نفسها بأنها « منظمات دفاعية » . انها موجودة للدفاع عن اليهود ضد معاداة السامية .

والمنظمة الأولى فى هذا الصدد هى « البناى بيرث » .. التى يعود تاريخها الى سنة ١٨٤٣ . انها منظمة تصف نفسها بأنها « اجتماعية وانسانية » . وفى نفس الوقت تشرف على عصبة تعمل لمحاربة كل من يسىء لليهود ، والتى تستهدف بدورها « استئصال الاساءة لليهود » .

والمنظمة الثانية هى « اللجنة اليهودية الأمريكية » .. التى تأسست فى سنة ١٩٠٦ .. بهدف « السعى الى منع انتهاك الحقوق الدينية والمدنية لليهود فى أى مكان فى العالم . وهذه اللجنة اقامها أصلا اليهود الامريكيون الاثرياء — القادمون من أصل المانى — وما زالوا حتى الآن يسيطرون على سياساتها .

والمنظمة الثالثة هى « المؤتمر اليهودى الامريكى » .. الذى ظهر أصلا فى العشرينات من هذا القرن .. كمجموعة منشقة عن «اللجنة اليهودية الأمريكية» . وحسب تعريف «المؤتمر» لنفسه ..

فانه « .. يسعى الى استئصال كل النشاط العنصرى والتعصب الدينى ، والدفاع عن انفصال الكنيسة عن الدولة ، وتنمية البناء الخلاق للشعب اليهودى .. ومساعدة اسرائيل فى النمو بسلام وحرية » . و « المؤتمر » أقل ثراء من « اللجنة اليهودية الأمريكية » وهو يعكس حماس ونشاط المهاجرين من أوربا الشرقية الذين تبعوا يهود المانيا فى القدوم الى أمريكا . ان صحيفته تصدر كل أسبوعين .. وهى تنشر المقالات ذات الاهتمام اليهودى .

هناك بعد ذلك « لجنة العمل اليهودى » التى تسعى الى « مقاتلة العداء للسامية ومساعدة منظمات العمل اليهودية وغير اليهودية فيما وراء البحار » ثم هناك « المجلس الأمريكى للديانة اليهودية » .. وهو يسعى الى « .. تنمية المبادىء العالمية لليهود متحررة من القومية » .. والتزامه الواضح هو محاربة الصهيونية .

وبالنسبة لهذه المنظمات ، وكثير غيرها ، فان « البناى بيرث » هى أكبرها .. حيث تقول ان عدد أعضائها يصل الى أربعمائة ألف يهودى .

ويقول الروائى اليهودى « بول جاكوب » ان اليهودى الأمريكى عندما يتعرض لأى اساءة .. فان أربع منظمات يهودية على الأقل تهب للشكوى نيابة عنه . وهو يضرب مثلا ساخرا على ذلك بأنه اذا حدث مرة ودخل يهودى أمريكى الى دورة مياه فوجد عبارة نابية ضد اليهود مكتوبة على الحائط فان ما يحدث فورا ما يلى : تسرع منظمة « البناى بيرث » الى ارسال ممثل عنها ينتقل الى مكان دورة المياه لكى يأخذ البصمات من هناك ، ويلتقط لها عدة صور .. ثم تقوم المنظمة بفحص هذه البصمات من واقع اللفات التى تحتفظ بها لبصمات مليونين من الأمريكيين الذين اعترفوا

بعدائهم للسامية . وعلى الفور تنشر المنظمة البصمات فى صحيفتها .. لكى تبين أن العداء للسامية ينتشر ويتزايد .. وان على كل يهودى ان ينضم لعضوية المنظمة .

فى نفس الوقت يقوم مسئول من « اللجنة اليهودية الامريكية » بدراسة دورة المياه بدقة ، وسرعان ما تقرر اللجنة اعطاء منحة لجامعة كولومبيا لدراسة العداء للسامية كما تعبر عنه كتابات الحائط عبر التاريخ . كما تقوم اللجنة باصدار كتيب تثبت فيه ان مشروب المارتينى (الذى يحبه الأمريكيون) هو اختراع قام به أصلا رجل يهودى . وفى النهاية تخبر اللجنة أعضاءها ان شخصية طبية كبيرة سوف تتحدث فى الاجتماع السنوى القادم عن العلاقة بين شرب المارتينى وبين معاداة السامية ـ مناقشة طبية سوف تعقبها مناقشة علمية .

فى نفس الوقت يصل الى مكان الحادث مسئول من « المؤتمر اليهودى الأمريكى » .. حاملا فى أعقابه لافتات تعلن : « مزقوا الحائط » . أما فى مكاتب المؤتمر فان ستة من المحامين يكونون قد بدأوا فى التحضير لدعوى يرفعونها أمام المحكمة الأمريكية العليا ، بهدف المطالبة بمنع بيع الخمور الى اى شخص تصدر عنه ملاحظة تحمل معنى العداء للسامية .

وبينما يجرى كل هذا ، تكون « لجنة العمل اليهودية » قد رتبت سلسلة من المحاضرات الأسبوعية لأعضاء اتحاد عمال البارات ، وتكون قد أعدت مشروع قرار لعرضه فى الاجتماع السنوى التالى ، المشروع يأمر أعضاء اتحاد البارات بألا يتبولوا فى دورات المياه المعادية للسامية .

فى النهاية يصدر « المجلس الأمريكى لليهودية » بيانا . ان ممثله يجتمع بالصحفيين لتلاونه عليهم ، بينما يحيط به اثنان من العرب ارسلتهما جمعية أصدقاء الشرق الأوسط . ان المتحدث باسم المجلس ينكر أن تكو العبارة قد كتبت أصلا لأنه « لا يوجد يهود .. ولكن يوجد فقط أمريكيون من أصل يهودى » . وحينئذ .. يرسل المجلس ينكر أن تكون العبارة قد كتبت أصلا لأنه « لا يوجد يهود .. ولكن يوجد فقط أمريكيون من أصل يهودى » . وحينئذ .. يرسل المجلس نداء الى الرئيس الأمريكى ووزير الخارجية وحكام الولايات الخمسين ، لكى يدينوا مجهودات اسرائيل والصهيونيين التى تهدف الى لصق اسرائيل باليهود الأمريكيين .

＊＊＊

ولكن ، بالرغم من وجود هـذا المجلس .. فان معظم اليهود الأمريكيين معجبون باسرائيل تماما . وبالرغم من أن معاداة الصهيونية لها تاريخ قوى ، خصوصا بين اليهود القادمين من أصل المانى ، فان كل اليهود الامريكيين .. ما عدا نسبة صغيرة جدا .. يجدون أنفسهم مساندين لاسرائيل ضد أعدائها سـواء كانت على خطأ أم على صواب ، ان هذا الشعور موجود بشكل طاغ لدى اغلبية اليهود الامريكيين ، وهو شعور فوق أى جدل أو مناقشة . ان الكل يرى اسرائيل باعتبارها تقوم بأعمال مدهشة .. ولهذا فان الـ ٥ر٦ مليون يهودى أمريكى قد قدموا أكثر من الف مليون دولار تبرعات لاسرائيل منذ قيامها . وحتى بعد أن نخصم جزءا معينا من هذا القدر بسبب الضغوط القوية التى يتم ممارستها فى الحصول على الأموال .. فان الرقم يظل قابلا للتصديق . وبالمقارنة الى ذلك ، فان المانيا الغربية دفعت لاسرائيل تعويضات لا تزيد عن ٨٦٠ مليون دولار .. بالرغم من أن بلايين أكثر قد تم دفعها لأقارب ضحايا النازى من اليهود .. والذين أصبح معظمهم اسرائيليين . وبمزيد من المقارنة ، فان الهبات والتبرعات التى قدمتها الجاليات

الأخرى فى أمريكا هى شىء تافه للغاية . وحينما صارعت اسرائيل أربعا من الدول العربية سنة ١٩٦٧ ، فان استجابة اليهود الأمريكيين .. بالمال والاهتمام والدموع .. قد أدهشت كثيرين من بينهم اليهود الامريكيون انفسهم . فمع بدء تحرك دبابات الجنرال « رابين » .. اكتشف ملايين اليهود الامريكيين فجأة انهم .. صهيونيون .

* * *

ان هناك فروقا سلوكية مختلفة تميز اليهود عن الآخرين . ان المحلل النفسى « كارل مينجز » لاحظ أن الايرلندى يقذف بالطوب والايطالى يقذف بالسكاكين .. ولكن اليهود عندما يتشاجرون فانهم يقذفون بالكلمات . ان اليهود فى أمريكا لا يلعبون الملاكمة ، ولا يهاجمون رجال البوليس . وعلى امتداد قرون طويلة .. فان العنف الجسمانى قد أصبح مرادفا للكارثة اليهودية . والى أن نشبت حرب الاستقلال الاسرائيلية .. فلقد كان على اليهود أن يعيشوا بغير أن يجربوا الفرحة الطاغية التى تحقق من كسب معركة .

ان تقاليدنا قد حولتنا بعيدا عن العنف الجسمانى . بينما أصبح التعليم اهتماما رئيسيا لنا . ان اليهود — أكثر من أى مجموعة اخرى — قد اقتحموا حصون النظام التعليمى الأمريكى الذى كان رد فعله — خصوصا على مستوى الجامعات — هو اقامة حصون اعلى لمنعهم وفى البداية ، كان ارتفاع عدد اليهود فى الكليات بشكل لافت ينسب الى وجود تعطش يهودى للمعرفة . ولكنه الان يرجع الى أسباب أكثر تعقيدا . ان اليهود يأتون من خلفية تؤكد أهمية التعليم ، وهم أيضا يعيشون فى المجتمع الأمريكى .. حيث على كل انسان يريد أن يكون ناجحا .. أن يتعلم أكثر وأكثر .

ومن ناحية أخرى فان النشـــاط الخيرى يهمنا ــ نحن اليهود الأمريكيين ــ بأشكال متنوعة ومختلفة . ان من الصحيح أن بعض اليهود هم تجار حى هارلم .. وصحيح أن هؤلاء التجار اليهود يبيعون السلع الرخيصة للمواطن الأمريكى الأسود بأسعار مبالغ فيها وبنسبة أرباح ضخمة . وصحيح أيضا أن اليهود ــ باعتبارهم أصحاب معظم محلات بيع الخمور ــ يقومون بنشرها فى هذا الحى الفقير مما يجعلهم يبدون كمستغلين للفقراء .

كل هذا صحيح . ولكن يرد على ذلك « نيلسون جلوك » رئيس الاتحاد العبرى الجامعى ، بقوله : «فمقابل كل يهودى يملك شقة فى حى زنجى ويستخرج كل بنس من جيوب ١٢ فردا يســكنون الحجرة .. فاننى أضمن وجود مائة يهودى يعتقدون أن هذا عمل دنىء . ان هذا شىء موجود ، هذا شىء قذر ، هذا شىء لا يمكن غفرانه ، أننى خجول منه. ولكننى لست خجولا الى درجة القول بأنه شىء يلتصق باليهود فى أمريكا . اننى لا أعتقد ذلك . أن ماهو ملتصق بهم حقا هو رغبتهم فى الصراع من أجل حقوق الانسانية » .

ان اليهودى ــ او اغلبية كبرى منا كيهود امريكيين ــ يتعاطف مع المواطن الأمريكى الأسود .. مع الزنجى المضطهد . ان اليهودى يرى جزءا من نفسه فى هذا الزنجى الضحية .. ولكن ، حينما يســتدير الزنجى الحقيقى ليصبح شــخصا مختلفا ، حينما تكون استجابته غير يهودية ، فان اليهودى الذى تعاطف معه من قبل يصاب بخيبة أمل . انه يشعر بالحنق عليه والغيظ منه .

ان الصعوبة الرئيسية فى الفتور المتزايد بين اليهود والســود فى الولايات المتحدة تنشأ بحدة اكبر على الجانب اليهودى .. حيث يطغى على اليهود شعور أقوى .. هو الخوف من العنف ..

فبالنسبة لليهود ، لا يبدو الزنجى المشاغب كطرف يستحق التعاطف معه . أنه يبدو فقط كمخالف للقانون ، ومشاغب ، وعربيد ، وفى النهاية يبدو كتهديد . ان اليهود لا يشعرون بعد أنهم آمنون فى أمريكا من التهديدات .. كما قد يتصور البعض ..

فبرغم الايمان الكامل بتوماس جيفرسون والدستور ، وبرغم الدراسات العديدة التى تبين اضمحلال العداء للسامية ، وبرغم التزايد السريع للنجاح اليهودى .. فان البقاء يظل هو الاهتمام الشديد والزائد ليهود أمريكا . ان التصميم اليهودى على البقاء كيهود هو واحد من التطورات الفريدة هنا . انه تصميم يسيطر بغير جدال على مناطق ضخمة من التجربة اليهودية فى أمريكا .. التى هى البلد الغربى الوحيد تقريبا .. الذى لم يشهد مطلقا مذبحة ضـــد اليهود .

ان البقاء يزعج اليهـــود الأمريكيين حينما يتزوج أبناؤهم من مسيحيات . هل يفقد احفادهم تراثهم ؟

والبقاء يزعج طبيب الاسنان اليهودى الذى يفشل ابنه فى دراسة الطب ، ومن ثم فانه يصيح فى ابنه قائلا : « انك تجرنا خلفا الى حارة اليهود ! » .

والبقاء يهز كاتبا يهوديا ، حينما يتزوج لفترة قصيرة من امرأة تتبع الكنيسة الانجليكانية ، فينظر الى ابنتهما المولودة حديثا لأنها سوف تكون يهودية بدرجة أقل .

وعلى المستوى العام .. فاننا نجد اننا ــ كيهود امريكيين ــ تميزنا أشياء أخرى أكثر من ذلك . انك لا تجد اليهود الامريكيين أبدا فى الأعمال اليدوية أو الرخيصة . انهم ينفرون من جمع القمامة أو كنس المصانع أو تنظيف دورات المياه . أنهم يسعون نحو شىء أعلى ، ويعملون بمشقة أكبر ، ويريدون أكثر ، ويستريحون أقل ..

من الأمريكي العادى أو المتوسط . ان اليهود انتظروا طويلا من أجل هذه الفرصة الامريكية . انهم يريدون أن ينجحوا . انهم يريدون ذلك بسرعة ، وبيأس . انهم يطلبون السلطة والمركز والنفوذ والاستقلال والاحترام . وفى المجتمع الامريكى .. فان الطريق النموذجى أمام اليهودى لكى يحقق هذه الأهداف الخمسة معا .. هو أن يعمل فى الطب .

ان عشرة فى المائة تقريبا من الـ ٢٧٧ر٥٧٥ طبيبا فى الولايات المتحدة .. هم يهود وبالرغم من أن هذه النسبة تبلغ ثلاثة أضعاف النسبة المئوية لليهود الآخرين فى اجمالى عدد السكان .. فان الرقم فى حد ذاته لا يقول شيئا كثيرا . انه لا يصف آلافا من اليهود الاخرين المتسابقين نحو الطب .. والذين فشلوا فى أن يكونوا أطباء . انه لا يشير أيضا الى معاداة السامية التى كانت موجودة تاريخيا فى المدارس الطبية الامريكية . انه لا يكشف عن طبيعة المقاومة اليهودية لدخول ميدان قرر زعماؤه مقدما أنهم يريدون فيه أقل عدد ممكن من اليهود .

لقد كشف عدد مختلف من التحريات والبحوث بعد الحرب العالمية الثانية .. عن وجود نظام الحصص ، الذى كانت تطبقه العديد من كليات الطب فى أمريكا . ان أحد المبادىء المشتركة التى كانت الكليات تحتفظ به .. هو قبول يهود بمعدل يتساوى مع نسبتهم الى تعداد السكان .. اى مجرد ثلاثة فى المائة . وباستخدام هذا المؤشر فان المسئولين فى كليات الطب كانوا قادرين على تجاهل النسبة الأعلى لليهود المتقدمين .. وهو شىء ما زال قائما .

والمعلومات المتاحة حاليا تدل على اضمحلال نظام الحصص هذا .. أحيانا طواعية .. وأحيانا ــ كما حدث فى ولاية نيويورك ــ تحت سيف قانون خاص لمحاربة التمييز العنصرى . لقد تحسن

الموقف بالنسبة لليهود الذين يريدون أن يصبحوا أطباء .. ولكن فى داخل الدائرة الطبية نفسها .. فان اليهودى ما زال يجد مكانه محصورا حتى الآن .

ان بعض المستشفيات الأمريكية تنكر على اليهـود امتيازات الأطباء . بعضها الاخر يعطى لليهود الأطباء حقوقهم بغير سلطاتهم . وفيما عدا الحال بالمستشفيات اليهودية .. فان الأدلة قائمة بقوة على أن اليهود يتعرضون علنا الى حرب قوية .. بهدف منعهم من الوصول الى المناصب الرئيسية بالمستشفيات .

وبينما نجد أن الطبيب اليهودى يهتم بمرضاه ويرعاهم .. فان زملاءه المسيحيين يفضـلون الاهتمام بالقضايا الكبرى الخاصـة بالسياسة الطبية فى الولايات المتحدة .. ابتداء من محاربة أنصار الاجراءات الاشتراكية فى الطب .. الى ما هو أكثر وما هو أقل . ان الطبيب اليهودى يعمل فى ميدان مرغوب فيه ــ وهو الطبيب، ولكنه يشعر ــ فى داخله ــ انه غير مرغوب فيه هو شخصيا .

* * *

أما لو انتقلنا الى مهنة أخرى ، وهى المحاماة .. فان الحال هنا مختلف . فطبقا لاحصائية موثوق بها .. فان حوالى ١٧٪ من عدد المحامين فى الولايات المتحدة .. هم يهود .. ان الرقم يبلغ ستة أمثال نسبة اليهود فى عدد السكان الاجمالى تقريبا ، وهو من ثم لم يشكل ظاهرة خاصة ومتميزة .. وفى الصفحات الصفراء من دليل تليفونات « مانهاتن » .. فان عدد اليهود الذين تعدوا حاجز الشهرة يبدو مؤثرا بوضوح . ان ما لا يقل عن ثمانين محاميا .. يوجد اسم « كوهين » فى القابهم .. ابتـداء من « آرون » الى « وليم » . وأيضا فى دليل تليفونات نيويورك لسنة ١٩٦٧ .. نجد ١٩ محاميا آخرين يحملون اسم « كوهين » .

ليس فى هذه الظاهرة سر أو غموض. ان اليهود يختارون القانون بسهولة مدفوعين فى ذلك بالتقاليد اليهودية .. وفى محاولة من جانبهم لاستثناء أنفسهم من المنع الأمريكى الذى لم يكن دائما ولا ناجحا فى مهنة المحاماة .. بمثل استمراره ونجاحه فى المهن الأخرى . ان الاطباء المسيحيين كانوا قادرين فى وقت ما على منع اليهود من المدارس الطبية . والبيوت الهندسية المسيحية رفضت تعيين اليهود بشكل لافت كما لو كان اتفاقا جماعيا .. بحيث انه كان مألوفا فى العشرينات والثلاثينات أن نجد مهندسا كهربائيا يهوديا يبيع الخردوات .. ولكن ، فى الأوقات الطيبة والصعبة ، لم تكن هناك فترة عجز فيها اليهود الأمريكيون عن الالتحاق بمدارس وكليات القانون . لقد تعرضوا للمنع من بعضها ، ولكن ليس من جميعها . أكثر من ذلك ، فان المحامين اليهود المتازين كانوا قادرين دائما على التمتع بمستوى معيشة مرتفع . ان عددا محدودا من مكاتب المحاماة ما زال يقوم بتطبيق حظر واقعى على تعيين اليهود . ولكن ، حتى هذا العدد المحدود يتناقص بسرعة .

***

وبالرغم مما يشاع عن العكس ، فان اليهود هم أناس علمانيون مثل معظم الأمريكيين .. ان الدراسات المختلفة تبين أنهم أقل تدينا من البروتستانت وأقل تورطا من الكاثوليك . ان اليهود يحضرون الاجتماعات الدينية بمعدل أقل من كلتا المجموعتين ، وجزء كبير منهم يعبر حتى عن عدم ايمانه بالله . ان حافز البقاء اليهودى يركز على هذه الدنيا وليس على العالم الآخر ..

ومع أن المثقفين هم الأكثر ظهورا بين اليهود الأمريكيين فان

الأغلبية الكبرى من اليهود لا يمكن تسميتهم متعلمين . ان أكثر من نصف أربــاب الأسر اليهودية فى أمريكا يقضــون حيـــاتهم فى « التجارة » . . بل انه من الممكن أن نجد مثقفين يهودا يعملون أيضا بالتجارة . ولكن ، بصفة عامة ومتميزة ، فان رجل الأعمال اليهودى ليس مثقفا ولا هو طالب علم . انه يؤمن بالعلم ويحترم المثقفين ويقدم لهم اعجابه وأمواله . ولكن هذا الاحترام خارجى . ان رجل الأعمـــال اليهودى الأمريكى يكرس نفســـه تماما — مثل زميله المسيحى — للاهتمامات التجارية .

وفى قصــــة كتبها الروائى الراحل « ادوارد لويس والانت » اسمها « الرهوناتى » فان بطل القصة اليهودى يتخذ من الاقراض بالربا مهنة فى حى «هارلم» . انه يتعرض لسؤال عن السر فى أن اليهود يأتون الى مهنة التجارة بهذه السهولة . لماذا يكون اليهودى دائما تاجرا بالسليقة ؟

ويرد بطل القصة قائلا : « انك تبدأ بآلاف من السنين خلفك ليس لك فيها شىء سوى أسطورة ضخمة . ليست لك أرض تزرع الطعام فيها ولا أرض تصطاد منها . . ولا وقت لديك تقضيه فى مكان واحد بحيث تصبح لك جغرافيا ، ويصبح لديك جيش أو تراث وطنى . ان لديك فقط عقلا صغيرا فى رأسك . وتلك الأسطورة النامية لكى تدعمك وتقنعك بأن فيك شيئا فريدا ومتميزا . . حتى فى فقرك . ولكن هذا العقل الصغير هو المفتاح الحقيقى . . فبهذا العقل أنت تحصل على قطعة صغيرة من الملابس . أنها من الصوف أو الحرير أو القطن . لا يهم . انك تأخذ هذه القطعة وتقطعها الى اثنتين . . ثم تبيعهما معا بسعر أعلى مما دفعته فى القطعة الواحدة . وحينئذ بهذه الطريقة والنقود فانك تشترى قطعة ملابس أكبر وربما تستطيع أن تقطعها فى هذه المرة الى ثلاثة أجزاء . . ثم تبيعها بسعر أعلى .

عند هذه النقطة ليس عليك أبدا أن تستسلم لأغراء شراء قطعة اضافية من الخبز ، أو شيء كمالى مثل لعبة للأطفال . ان عليك أن تخرج فورا وتشترى قطعة ملابس أكبر ، أو قطعتين أكبر .. وتكرر العملية . وهكذا .. فانك تستمر وتستمر .. الى الدرجة التى لا يصبح أمامك عندهـا اى اغراء بأن تحفر فى الأرض وتزرع الطعام . أنك تكرر هذه العملية مرة ومرة ومرة لمدة ما يقرب من عشرين قرنا . وحينئذ .. ها أنت .. لقد أصبحت تاجرا يهوديا بالسليقة .

ان اليهود الأمريكيين يبيعون الغسالات ويصنعون مرشحات القوة الكهربائية . انهم يصممون ثياب الفلاحين ، ويستوردون الخمر ويوزعون كرات الجولف . انهم يقسمون الأراضى الجاهزة للبيع ويبنون الفنادق . انهم ينتجون الزجاج المنقوش ويوفرون الأضواء الفاخرة للمسرحيات الكوميدية . انهم ينظمون البنوك ويبيعون بوالص التأمين ويقرضون النقود ويملكون كل أنواع المتاجر على وجه الأرض . وفى أمريكا حيث التجارة هى المملكة .. وحيث البطل النهائى ليس شاعرا ولا محاربا .. ولكن البطل هو رجل لطيف سعيد بدأ كل شيء بلا شيء .. ثم عن طريق وسائل غير محدودة أصبح يملك مليون دولار .. فان النتائج التى حققها رجال الأعمال اليهود تصبح لهـا اعتبارها . ونتيجة لذلك .. فربما يكون فى أمريكا الآن مليونيرات يهود أكثر من الفقراء .

ولكن النجاح اليهودى فى مجال التجارة فيه ما يثير السخرية أيضا . اننا نحن — اليهود الأمريكيين — لا نشترك مع الأمريكيين بصفة عامة فى عبادة النجاح المهنى فى التجارة . ان مهارات اليهودفى البيع والشراء تحقق لهم قليلا من المتعة . أن عددا من أكثر رجال الأعمال اليهود ثراء لا يرى التجارة أكثر من مجرد منصة يبدأ منها

اطفــالهم تقدمهم فى المهن والفنون المختلفة . ان اليهود قد اثبتوا مقدرتهم التجارية عبر آلاف السنين فى ظل ظروف جائرة . وليس من المفاجىء انهم حققوا نجاحا كبيرا كرجال أعمـــال فى ظل الحرية الأمريكية . ولكن العداء للسامية جعل وسائل اليهود الاحتكارية والبراجماتية تستدير ضدهم . بل وتسرق منهم أيضا الشـــعور بالفخر ، وتقدير النفس .

والنقطة الثانية المثيرة للسخرية هى أن النجاح اليهودى التجارى فى الولايات المتحدة قد تحقق ضد رغبة ومقاومة رجال الصناعة الأمريكية انفسهم . ان احد الباحثين اليهود فى شيكاغو يقول : يهود فى الصـــناعات الضخمة . اننى قمت بدراسة الوضــــع فى الشركات الكبرى ، واعرف . انهم لن يسمحوا لنا بالعمل .

ان الموقف ليس كاسحا ولا ثابتا كما يبدو من كلمات يهودى شيكاغو .. ولكنه أيضا ليس خاطئا تماما . فبقدر ما تســمح به المعلومات المتاحة .. لا يوجد فى المستويات الادارية العليـــا لشركات « بل تليفون » و « ســـتاندارد أويل » و « شركة صلب الولايات المتحدة » و « شركة تأمين متروبوليتان » .. وغيرها . ولا يوجد حتى الآن يهودى قريب من القمة فى الشركات المـــائة الكبرى الأخرى بالولايات المتحدة .

لا يوجد حتى الآن أيضـــا يهودى واحد مطلقا فى منصب مدير عام أو نائب رئيس .. لأى واحدة من شركات صناعة السيارات . ومن وجهة نظر التقاليد اليهودية ، فان مثل هذا الغيـــاب المستمر لليهود يصبح شيئا ملحوظا . ان عـــددا من العوامل يســـاهم فى وجود مثل هذا الغياب حاليا .. ولكن ليس هناك شك فى أن السبب الذى خلق هذا الوضع اصلا هو العداء للسامية .

ان « اللجنة اليهودية الأمريكية » تقترح علنا اسـما لما تمارسه هذه الشركات بشكل غير علني.. ان المتحدث باسم اللجنة يقول « أن الطريقة التى تسير بها الأمور متماثلة . ففى الصـناعات العتيدة الحصينة ـ حيث لم يوجد يهود مطلقا طوال الثلاثين سنة السابقة ـ فان هناك الآن عددا قليلا من اليهود . ان ظروفهم صعبة للغاية . أنهم محصورون فى المستويات الادنى من الوظائف. انهم لا يشتركون أبدا فى صنع السياسة العامة (للشركة) انك تستطيع أن تسمى هذا تحسنا .. ولكننا لسنا سعداء به تماما .. ثم .. هناك النوع الآخر من الصناعات التى تعتمد على الابتكار.. وحيث تكون الأفكار الجديدة والمنتجات المتطورة مهمة . فى هذه الصناعات تجد أن الوضع هو أكثر عدالة بشكل ما ، ان اليهود هنا لديهم فرصة أحســن كثيرا . ان السبب فى ذلك هــو انهم يحتاجون الى عقولهم هنا . هل هذا شىء جديد ؟ بالطبع لا . بل انه فى بعض الأحيان نجد نوعا من الازدواج فى الشركات . فبينما يوجد يهود كثيرون فى أقسام البحوث والتنمية والتطوير .. فانك لا تجد يهود أبدا فى أقسام المبيعات .. أو فى الادارة .

ومن جانب الشركات ، فاننا نسمع تفسيرات واعذارا مختلفة ، ولكننا لا نسمع أنكارا .. وقد حدث فى الأيام التالية للحرب العالمية الأولى أن قال مسئول رسمى فى شركة تليفونات نيويورك « أن السبب فى عدم وجود عاملات تليفونات يهوديات (بالشركة) .. هو ان العمل يتطلب مد اليد الى كل أجزاء جهاز السويتش. ولكن الفتيات اليهوديات اذرعهن قصيرة . اما الآن ، فيقول مسئول كبير فى التليفونات : (نحن نصر على أن يتعلم مسئولونا الكبار العمل من القاع الى أعلى) . والحقيقة ان اليهود لا يريدون أن يكونوا عمال تليفونات » .

ان الكلمات تختلف ، ولكن العقلية لم تتغير .

والواقع أن المديرين المسيحيين فى الشركات الكبرى يعيشـــون طبقا لمفهوم فى الحياة لا يسمح بوجود يهود . أن معظم المديرين يعيشون فى مجتمعات كلها مسيحيون ويلعبون الجولف فى نواد كلها مسيحيون . وفيما عدا العلاقات العشوائية فى المطاعم أو فى الطائرات فانهم يوجدون فى اطار لا يتضمن يهودا .. وبعـــد ذلك فانهم يقولون لبعضهم فى غموض : « إلى الجحيم بهم .. أن اليهود سوف يفسدون الأشياء » . وأحيانا تكون العاطفة أقوى من ذلك، فكما يقول نائب رئيس المبيعات فى احدى شركات البترول بعـــد أن شرب كأسا فى شرفة نادى الجولف : « شيئان لا نريدهما فى شركتنا : المجرمون واليهود » .

ومع مرور السنين . أصبحت المشكلة أكثر تعقيدا . أن شركة « فورد » للسيارات فقدت ثقـــة الجالية اليهودية الأمريكيـــة فى العشرينات من هـــذا القـــرن جينما أشرف مؤسســـها « هنرى فورد الأول » على التوزيع الأمريكى الضخم لبروتوكولات حكمـــاء صهيون وهى شىء زورته روسيا القيصرية مدعية انها بذلك تكتشف مؤامرة يهودية للسيطرة على العالم .

ومنذ موت هذا الرجل العجوز ، فان شركته اهتمت بتصحيح وسائلها ، ان مجلس ادارة المعـــامل العالمية لشركة « فورد » لا يضم حتى الآن يهوديا واحدا .. ولكن الشركة قامت بتحـــدى مقاطعة عربية شاملة .. عندما أقامت مشروع تجميع فى اسرائيل ومؤخرا قامت الشركة ، كجزء من بحثها المستمر عن المواهب ، بارسال عدد من كشافى المواهب الى كل من جامعتى « يشيفا » و « برانديس » اليهوديتين .. بهدف البحث عن الشباب اليهودى الموهوب لتعيينهم فى جهازها التنفيذى . ان عمليـــة الاستكشاف هذه فشلت ، ولم يحصل الكشافون على أحد .

وبصفة عامة ، فان نجاح اليهود كرجال أعمال ، وهو نجـاح ضخم ، سوف يستمر فى النمو . وهذا الموقف اليهودى المتكافىء فى وسط رجال الأعمال الأمريكيين سوف يستمر .. حتى لو كان زعماء الصناعة الأمريكية راغبين حقا فى تغيير عدائهم للسامية .. وهو الشىء الذى لا دليل عليه حتى الآن .

ومن ناحية اليهود الأمريكيين ، فان رد فعل معظم رجال الأعمال منهم فى مواجهة العداء للسامية ، هو اعطاء الهبات والمنح . وليس من المديح أن نقول أنه حينما يشعر رجل أعمال يهودى بأنه مهدد .. فانه لا يمد يـده الى بندقية ، ولا يذهب الى ناد .. ولكنه يمد يده الى دفتر شيكات . ان التهديدات ضد اليهود هى شىء متوطن فى زمننا . والنشاط اليهـودى الانسـانى هو الآن مؤسسة يصل ناتجها السنوى الاجمالى الى ٧٢٥ مليون دولار .

ان الكثافة التى تم بها رد فعل معظم اليهود الأمريكيين لحرب الشرق الأوسط فى سنة ١٩٦٧ ، أدهشت أناسا كثيرين بما فى ذلك كثيرون من اليهود أنفسهم . فمع بدء اشتباك اسرائيل ضد قوات مصر وسوريا والأردن .. عاد الى يهود أمريكا رعب قديم ... لقد آمن يهود أمريكا بأن مذبحة جديدة للأبرياء هى على وشك أن تقع . انهم تبرعوا لاسرائيل فورا بـــ ١٧٥ مليون دولار تم جمعها . فى مدة قياسية .. هى ستة أسابيع فقط .

وفى تفسير هذه السرعة فى رد الفعل .. توجد تقاليد ومفـاهيم للحياة اليهودية تمتد خلفا فى الزمن وتتعدى حدود الولايات المتحدة.

فطوال قرون عديدة ، احتاج يهود أوربا الى ان يكون لهـم نظامهم الخاص فى جمع الصدقات والتبرعات . لا حكومة ولا طبقة،

ولا امير فى أوربا المسيحية .. كان يمكن الاعتماد عليه فى الدفاع عن اليهود . فاذا اصيب اليهودى بكبر السـن واذا كان على اليتامى والأرامل اليهوديات أن يتمتعن بأى حماية على الاطلاق .. فان اليهود انفسـهم يجب أن يقدموها ما دام المريض اليهودى يحتاج الى علاج ، فلابد أن يصبح الطبيب اليهودى والمستشفى اليهودى ، شيئين ضروريتين . أنها التبرعات زائدة الضرورة . وقبل أن تصل الموجات الأولى من المهاجرين اليهود الى أمريكا .. كان اليهود الأوربيون قد أقاموا خدمات جماعية وطيدة لأنفسهم .

وفى الوقت الحاضر ، توجد فى الولايات المتحدة أكثر من ٦٤ مستشفى خاضعة للرعاية المالية اليهودية .. وهى تضم عشرين الف سرير .. وفى كل مدينة كبيرة بالولايات المتحدة .. لابد أن نجد مراكز تجمع للجالية اليهودية .

وبمرور الوقت أصبح النشاط اليهودى لجمع التبرعات ضخما للغاية . وفى سنة ١٩٤٨ — سنة قيام دولة اسرائيل — بلغت مساهمة اليهود فى هذا النشاط مائتى مليون و ٧٢١ الف دولار ، معظمها كان هبة لصهيون . وخلال السنوات الخمس السابقة لحرب الشرق الأوسط فى سنة ١٩٦٧ .. فان الحملات اليهودية لجمع الأموال والتبرعات كانت ماتزال قادرة على جمع ١٢٥ مليون دولار سنويا .

وبالرغم من أن هذا الرقم معناه أن مساهمة اليهودى الأمريكى هى فى المتوسط عشرين دولارا — بما فى ذلك الأطفال ، فان الدليل قوى على أن أقل من نصف اليهود البالغين فى أمريكا لا يساهمون بأى شىء على الاطلاق . ان معظم الأموال تأتى بمبالغ كبيرة ، وفى بعض حالات رجال الأعمال اليهود فان التبرع اذا وصل الى مائة دولار .. لا يكون مرضيا .

ان المنظمات اليهودية لجمع الأموال فى الولايات المتحدة تتبع خطوطا أوضح من تلك المنظمات الأخرى لنشاط الجالية اليهودية فى أمريكا . ففى معظم المدن الأمريكيـــة .. يتم جمع التبـــرعات بواسطة الاتحادات. ان اليهودى الشرد يساهم مرة واحدة لصندوق رئيسى وعن طريق هذا الصندوق .. يتم تقسيم المبلغ الاجمالى الى حصص . ان أجزاء من كل دولار تذهب الى تمويل توطين اليهود المراكشين فى اسرائيل ، جزءا آخر يذهب الى المستشفى اليهودى المحلى ، جزءا ثالثا الى المنظمة اليهودية الثقافية ، جزءا رابعا الى المدارس اليهودية الدينية . وفى النهاية فان ستين فى المائة تقريبا يذهب الى ما وراء البحار . أى اسرائيل .

اما فى مدينة نيويورك التى تعتبر أكبر مصدر لجمع التبرعات فان « النداء اليهودى المتحد » يخصص ايراده أســـاسا لما وراء البحار بينما الاتحاد الانسانى اليهودى يخصص ايراده أســـاسا لأغراض محلية . ان الاثنين يجمعان أموالهما منفصلين . أما فى المدن الأخرى فيتم التبرع بشكل موحد عن طريق الاتحادات .

ان هذه الاتحادات تعمل تحت اشراف خبراء يهود محترفين . وهى تقوم بجمع التبرعات مرة واحدة سنويا فى أكثر من ثمانمائة مدينة أمريكية . ان المجموعات المحلية تنضم الى مجلس قومى للاتحاد الصهيونى اليهودى والنشاط الاجتماعى ، ولكنها تتمتـــع باستقلال فى طابعها المحلى وتمارس نشاطها طبقا لخطوط يتم وضعها على أساس قومى .

والنجاح الذى يتحقق فى كل مدينة يختلف تبعا للمجهود الذى يتم بذله فى جمع الأموال .. لطبيعة الجالية اليهودية فى كل مدينة. ان « كيفلاند » مثلا .. هى مدينة ذات احياء قذرة كبيرة يسكنها السود .. ومع ذلك فانها تمثل منطقة جيدة » لجمـــع الأموال

اليهودية . ان الجالية اليهودية فى « كليفلاند » وافرادها يسكنون الضواحى ومعظمهم يصل متوسط تبرع الفرد فيها الى ٧٥ دولارا . مدينة « ديترويت » هى أيضا « منطقة جيدة » .. بينما « لوس أنجلوس » ليست كذلك .

ان لوس انجلوس تضم حوالى نصف مليون يهودى .. ومع ذلك لا يساهمون بأكثر مما يساهم به يهود « كليفلاند » .. الذين لا يزيدون عن مائة الف . ان المتخصصين يشيرون الى الطبيعة المنتشرة والمتشتتة للوس انجلوس .. والى احساسها الشمولى بالزوال .. كتفسير جزئى . ولكن ، مع التسليم بهذه الأشياء فان المتخصصين مازالوا يعبرون عن حيرتهم من هذا التناقض .

وهنا يقول أحد اليهود المتخصصين فى هذا النشاط : « اننا بصفة عامة لا نستطيع أن نتمسك بقدر معين من الصلابة بالنسبة لمتطلبات البرنامج الناجح لجمع التبرعات » . أننا نعرف مثلا أن الجالية يجب أن تضم اناسا أثرياء . نحن لا نستطيع أن ننجح كثيرا فى جمع الأموال بين الفقراء . ثم ، نحن نحقق نتائج أفضل بين الجاليات التى تأسست جيدا كما هو الحال فى « كليفلاند » .. حيث استقرت كل أسرة وأصبح التبرع تقليدا قائما . فى مثل هذه الأماكن فانك تجد الناس يتمتعون بوعى يهودى قوى ووعى جماعى قوى ايضا . اخيرا ، كما نستطيع أن نخمن ، يجب أن يكون الجهاز أكفأ ما يمكن » .

وفى مدينة كبيرة نموذجية ، هى شيكاغو ، نجد أن المنظمين لهذا النشاط يرسلون لجانا للتنبيه تعمل كالدوريات .. خلال كل شارع فى الحياة اليهودية . ان مجموعات جمع الأموال يتم تعيينها بالنسبة لكل ناد يهودى فى شيكاغو . فى نفس الوقت تختص لجان أخرى برجال الأعمال . لجان أخرى يشكلها « النداء اليهودى المتحد

فى شيكاغو » تتخصص فى مهنة المحاسبة والكحول والمجالات الأخرى .. وفى المجموعة الأخيرة هناك ٦٨ لجنة تحصل على كل دولار ممكن من مجتمع رجال الأعمال .

ويقول أحد المسئولين عن هذا العمل : « ان الهدف الشامل لنا هو أن نجعل من المستحيل على أى شخص ألا يتبرع . اننا نخاطب فى كل شخص ما نراه مناسبا : الخوف .. أو الغرور .. أو التعاطف مثلا . اننا نريد نتائج . ولهذا فان الغرور هو فى العـادة احسن الدوافع » .

وفى هذا الصدد هناك تكتيك شعبى يتم اسـتخدامه فى معظم المدن الأمريكية الكبرى هو طبع ونشر ما يسمى بـ «كتاب الحياة» .. الذى يتم توزيعه على نطاق واسع بين أفراد الجالية اليهودية. ان الكتاب يضم فى البداية صفحات قليلة من الكلمات والصـور المناسبة .. وبعدها يصبح قائمة من الأسماء . أن كل شخص ساهم على الأقل بقدر معين من النقود ، ربما خمسة دولارات ، يتم طبع اسمه بلون خاص . وبمفهوم المخالفة ، فان أى شخص يرفض التبرع يصبح معروفا .

ان أحد أعضاء لجان جمع التبرعات يقول : ان « كتاب الحياة » هو واحد من أكثر الوسائل فعالية لكسر الجمود . ليس هذا فقط ، بل أنه يجعل كل شخص يعطى شيئا قليلا يجعله يعطى اكثر .. وبالنسبة لأوساط رجال الأعمال .. فان كل شخص يريد من الجميع ان يتصوروا أنه أكثر نجاحا . ان التبرع هو شكل من أشكال التفاخر ايضا .

ان اناسا قليلين يبررون كل وسيلة يتبعها المسئولون عن جمع الأموال اليهودية . وفى مقابل ذلك فان أنصـار هذه الوسـائل يشيرون الى الهدف . انهم يتحدثون عن « مستشفى جبل سيناء »

فى نيويورك ، عن « مستشفى ميشيل ريز » فى شيكاغو .. انهم يتحدثون عن اليتـــامى الذين وجدوا مأوى ، عن الأرامل الذين وجدوا عملا . انهم .. يتحدثون عن اسرائيل .

ان النقطة هنا ليست هى أن النشاط اليهودى يســـجل نقطة مرتفعة فقط ، ولكن النقطة هى أن اليهود ، وبالتحديد رجال الأعمال اليهود ، هم فريدون بين مجموعات المهاجرين الحديثين . وأيا كانت الأسباب .. فانهم يتولون تدبير أمورهم بأنفسهم .

* * *

ومن الناحية الأخرى نجد أن عددا كبيرا من أنصار اليمين فى أمريكا يدعون أن لديهم معرفة اكبر باليهودى كرجل أعمال .

انهم يسألون : كيف يمكن أن يكون سلوك رجل الأعمال اليهودى أخلاقيا ، بينما هو لا يعرف المسيح ؟ ان اليهودى عدوانى بطبعه والمسيحى الطيب لا يمكن أن يكون كذلك ان اليهودى الذى لديه مسيح يعرفه ، يفتقر الى الشعور الأخلاقى .

وفى نفس الوقت فان أحد النظريين المشهورين كتب يقول : « دعونا ننظر الى اليهودى الحقيقى فى زماننا هذا .

ــ ما هو أساس اليهودى فى عالمنا ؟

ــ الضرورة المادية .

ــ ما الذى يعبده اليهودى فى هذا العالم ؟

ــ الربا .

ــ من هو الهه ؟

ــ النقود » .

أن مؤلف هذه الكلمات لم يكن هتلر الكاثوليكي المسيحي . ولكنه كان هنريخ كارل ماركس مؤسس الشيوعية ، الذي ولد أصلا كيهودي . ففي مقال له بعنوان « المسألة اليهودية » كتب ماركس قائلا : « ان اليهودي حرر نفسه — ليس فقط بأن حصل لنفسه على السلطة المالية ولكن بفضل حقيقة أن النقود قد أصبحت سلطة عالمية .. والروح اليهودية العملية قد أصبحت هي الروح العملية للدول المسيحية » .

وبالرغم من أن هذه المقتطفات يمكن اعتبارها مضيئة لعمليات ماركس العقلية ، فان أهميتها توجد في مكان آخر . انها شكلت حلفا متناقضا بين ماركس واليمين المتطرف . وحتى في الولايات المتحدة ، التي يصعب أن تكون ارضا خصبة لليسار ، فان اليهود اقاموا صحفا راديكالية ، وأدلوا بأحاديث راديكالية ، وشكلوا اتحادات راديكالية ورشحوا أنفسهم كراديكاليين .. تحت شعار ماركس المعادي للمادية . أن مثل هذه النشاطات كانت تزعج الرجل اليميني الأمريكي . وبمجرد أن ينتهي من هجومه على رجل الأعمال اليهودي .. فانه يستدير الى الراديكالي اليهودي .

وفي أمريكا لا يوجد يسار يهودي منتعش . ولكي نكون متأكدين، فان هناك يساريين يهودا ، ولكن لا يوجد يسار يهودي . ان هناك عاملين على الأقل ساعدا في ذلك بالأضافة الى عامل ثالث — العداء السامي بين السود . ويقول أحد الزنوج وهو يشتغل كرجل أعمال ناجح في حي هارلم : « ان اليهودي يكون مذنبا بالحياة داخل اكذوبة في أمريكا . أنه يحاول أن يصبح جزءا من الأغلبية البيضاء . ان اليهودي يعرف أن المسيحية غير ناجحة ولكنه لا يمكن أن يقول ذلك بصوت عال . انه يخبر الرجل الاسود بأن عليه أن يصلي — أن اليهودي يعرف أن هذا لن يغير من حال الرجل الأسود مطلقا — هل يعتقد أن اليهودي الذي يقول ذلك .. هو

نفسه يصلى ؟ انه يعمل كالجحيم . ان اليهودى يأتى الى حى يسكنه السود . ويبيع الغسالة بـ ٢٩٩دولارا . ان نفس الغسالة تباع بـ ١٦٩ دولارا في الحى اليهودى . ولكن اليهودى يأتى الى الرجل الأسود ويقول له : ادفع عشرة دولارات فقط وأخبرنى بوظيفتك .. وخذ الغسالة . والآن ، يوقع الرجل الأسود على ورقة ، بينما اليهودى الذى يملك المحل يأخذ هذه الورقة ويبيعها الى شركة ائتمان ..هى بدورها يهودية . وبمجرد أن يعجز الدائن الأسود عن تسديد بعض الأقساط ، فان محاميا يهوديا يحصل فورا على أمر قانونى باستدعائه، وبعدها يأتى محضر .وأن اليهود يأخذون الغسالة .. لكى يبيعوها من جديد ، بينما المواطن الحقير الأسود ، الذى ربما لا يملك فى جيبه أكثر من دولارين — يفر من سخط اسرته وتحكمه رغبة فى الجرى ، ويسيطر عليه شعور سيىء انه لا يجد ما يفعله سوى أن يجرى الى محل خمور ، ويضع الدولارين الآخرين فى جيبه .. فى الخمر . ان الرجل الذى يبيع له الخمر هو فى النهاية يهودى آخر » .

وبالرغم من أن فى هذا الحديث عناصر من الحقيقة .. فانه مشوه . أن من الصحيح أن بعض الكماليات تباع فى أحياء السود بأسعار أعلى ولكن من الصحيح أيضا وجود معدل أعلى من الجرائم ، واجراءات أقل ضد الحريق ، واحتمال أكبر للشغب . وهذا كله يرفع تكاليف بقاء المحل التجارى . أن من الصحيح أن الرجل الأسود قد حصل على أقل خدمات ممكنة —وبطريقة مخجلة— من رجال الأعمال الأمريكيين وليس اليهود .. وفى النهاية فان من الصحيح أن بعض اليهود يستغلون بعض السود .. ولكن من الصعب مع ذلك أن نجعل الصورة تأخذ لونا أكثر سوادا من ذلك .

* * *

ان العداء للسامية يجب أن يكون هو أول الأخطار التى يواجهها اليهود ، وهو كذلك فعلا منذ قدومهم لأمريكا . ان أكثر من مليون ونصف مليون يهودى من أوربا الشرقية وصـــلوا الى الولايات المتحدة في الفترة بين سنتى ١٨٨١ و ١٩١٠ . انهم خرجوا من روسيا حينما سيطر عليها العداء للسامية . ووقتها كان أحدى الخطط الروسية التى وضعت لحل « المشكلة اليهودية » تقضى باتخاذ ثلاث خطوات . . حيث بمقتضاها لابد من تهجير ثلث اليهود .. وتحويل الثلث الآخر الي المسيحية ، ثم قتل الثلث الأخير .

ان الموقف فى روسيا القيصرية وقتها دفع بمئات الالوف من اليهود ناحية اليسار . وطبقا لاقوال الحاخام برنارد بلوم فـــان « الاشتراكية كانت بالنسبة ليهود الامبراطورية الروسية .. بمثل ما كانت حركة الاصلاح الدينى اليهودى . ان كلتا الايديولوجيتين مكنتا اليهود من أن يهربا من العصور الوسطى » .

وبالنسبة لأمريكا . . فالواقع أنه برغم ان العداء للسامية هو شىء مضاد للسياسات المقررة وفلسفة حكومة الولايات المتحدة.. الا أن العداء للسامية لا يمكن أن يسمى بأنه ظاهرة غير أمريكية.

أن العداء للسامية كان واحدا من الصادرات الاولى القادمة من أوربا .. والتى وصلت الى الدنيا الجديدة سابقة على معظم المغامرين اليهود . ومن المؤكد أن اليهود لم يبدأوا الاستقرار فى ما سمى بعد ذلك « الولايات المتحدة » .. حتى منتصف القرن السابع عشر ... ولو استثنينا الهنود والرقيق .. فان من المقرر ان أربعة ملايين فقط كانوا يعيشون فى المستعمرات التى كانت قائمة وقت نشوب الثورة الأمريكية .

ولقد كان « هيم سالومون » ـ الذى يحتمل أن يكون قد وصل

الى أمريكا فى سنة ١٧٧٢ — هو أول مهاجر يهودى من بولندا .. انه تولى العمل مع الحكومة الثورية باعتباره « سمسارا فى مكتب المالية » . مع ذلك فان تجربة «سالمون» الأمريكية لم تكن سعيدة تماما . انه فى النهاية لم يستطع أن يجمع لنفسه رأسمال كافيا ، وبعد وفاته رفض الكونجرس أكثر من مرة طلبات أسرته بتقرير معاش لها .. ومن المؤكد أن السبب فى ذلك كان هو العداء للسامية .

وحتى سنة ١٨٣٠ لم يكن هناك أكثر من ١٥ ألف يهودى فى الولايات المتحدة ، بينما كان عدد السكان يقترب من ١٧ مليونا . ان معظمهم كانوا يهودا شرقيين .. فهم كانوا يهودا قادمين من أصل أسبانى وبرتغالى — ولكن مع سنة ١٨٤٠ ومع خروج هجرة واسعة النطاق من الدويلات الالمانية ، فقد بدأت أول موجة هجرية يهودية كبيرة تصل الى أمريكا .

ان العداء للسامية . كما يواجهه معظم اليهود الأمريكيين اليوم لم يكن موجودا فى تلك السنوات ، ولا فى سنوات الحرب الأهلية. ان اغلاق النوادى فى وجهه اليهود .. واغلاق المناطق الاخرى من الحياة الاجتماعية ، ووجود الحواجز المرتفعة فى التجارة والتعليم ... كانت أشياء ماتزال محجوزة للمستقبل الأمريكى .

ان مؤسس ، أو على الأقل القديس الحامى — للعداء الأمريكى الحالى للسياسة هو « هنرى هيلتون » .. رجل الأعمال الذى عين فيما بعد مديرا عاما لفندق « جراند يونيون » فى نيويورك . وفى سنة ١٨٧٧ أصدر هيلتون تعليمات بعدم السماح لليهود بدخول هذا الفندق مستقبلا — اثر اكتشافه أن أحد الزبائن يهودى . لقد كانت تلك هى نقطة البداية فى حملة من القيود المعادية للسامية

فى أمريكا . انها حملة لم تتوقف لمدة سبعين سنة بعدها .. الى ما بعد الحرب العالمية الثانية .

وخلال تلك الفترة السابقة على الحرب الثانية ، اشترى «هنرى فورد » جريدة فى ١١ يناير سنة ١٩١٩ . وخلال سنة واحدة بدأت تلك الجريدة ــ التى كانت راكدة تماما ــ اقوى حملة من العداء للسامية فى تاريخ الولايات المتحدة . ففى شهر مايو سنة ١٩٢٠ ، نشرت الجريدة المقال الأول من سلسلة مقالات وصلت الى ٩١ مقالا ، وكلها بعنوان « اليهودى الدولى : مشكلة العالم » . أن محور ماورد بالمقالات كان ما يسمى بـ « بروتوكولات حكماء صهيون » .. وهى المقالة التى زورتها روسيا القيصرية مدعية انها تعتمد على تفاصيل اجتماع سرى لـ « زعماء اليهودية العالمية » .

وخلال الـ ٩١ اسبوعا التى نشرت فيها الجريدة هجماتها على السامية ، ارتفع توزيعها الى سبعمائة ألف نسخة .. وفى النهاية ، اى فى سنة ١٩٢٧ ، تنصل فورد من المقالات فى بيان عام . انه كتب يقول : « اننى متكدر بعمق من أن هذه الصحيفة كانت هى الوسيلة ... من أجل تفاقم النزاع القائم على أن اليهود مشتركون فى مؤامرة للسيطرة على رأس المال وصناعات العالم ... اننى أظن أن من واجبى كرجل شريف أن أقوم بتقويم واصلاح الاخطاء التى ارتكبت فى حق اليهود كأخوة ورفقاء » .

وفى نفس السنة انفقت شركة فورد ١٥٦ الف دولار كاعلانات فى الصحف اليهودية . وفى نفس السنة أيضا ، ترجمت مقالات الصحيفة واعيد طبعها بالألمانية . وقبلها بخمس سنوات لاحظ مراسل لجريدة النيويورك تايمز (اليهودية) .. بينما هو يجرى حديثا مع الزعيم النازى « ادولف هتلر » .. لاحظ صورة لفورد معلقة على احد جدران المكتب .

ويجب أن يلاحظ هنا أنه خلال فترة ازدهار هتلر ، بل وطوال فترة حكمه ، فان الولايات المتحدة لم تعلن ولا مرة عن خلافها معه بالنسبة لقضية العداء للسامية . ان الولايات المتحدة لم تقم حتى بقطع العلاقات الدبلوماسية ... أو حتى تخفيض التبادل التجارى. ان الرئيس « فرانكلين روزفلت » نفسه كان صامتا وأخرس .

* * *

والآن ، بعد أن احترقت المعابد فى برلين ووارسو وفيينا .. فقد أصبحنا نحن اليهود الأمريكيين فجأة .. أهم جالية فى العالم .

ان اليهود الروس صامتون . ويهود اسرائيل يصارعون من أجل البقاء . وبهذا فان علينا نحن — يهود أمريكا — تقع مسئولية نهائية من أجل البقاء . فاذا لم ننجح نحن فى البقاء كيهود .. فمن اذن ؟

العالم العربي أمام القارئ الغربي

◇ ترودي باكر وراشيل جونز

● ليس هذا الكتاب فى السياسة ..

هذا الكتاب فى الرحلات . عنوانه : « يوميات حول العالم » . مؤلفتاه هما مضيفتان جويتان أمريكيتان اسمهما « ترودى باكر » و « راشيل جونز » . موضوعه هو مغامرات هاتين المضيفتين فى أكثر من خمس عشرة مدينة وبلدا حول العالم . توزيعه : تعدى الثلاثة ملايين نسخة . مكان صدوره : الولايات المتحدة الأمريكية .

هذه هى البيانات المبدئية عن الكتاب .

بعد ذلك نقرأه . نقرأ عن لندن وباريس وبارلين ومونت كارلو وكوبنهاجن وموسكو .. وباقى البـلاد التى يتناولها الكتـاب فى فصوله . وطوال صفحات الكتاب ، لا تخطر على بال القارىء الاجنبى سوى ملاحظة واحدة : أنه كتاب خفيف ومسل ومقبول . فى حدود هذا الأطار الشعبى من توزيعه .

مع ذلك فان الكتاب يؤدى فى ثنايا صـفحاته مهمة جانبية — هى فى صميم السياسة .

ان أحد فصول الكتاب عنوانه : «أنا لايهمنى ماذا تقول الأغنية ، أخرجى من خيمتى » . بعدها يبدأ الكتاب فى سرد مغامرة يفترض أن احدى المضيفات الجويات الأمريكيات قامت بها اضطراريا فى مكان ما من العالم العربى — مكان يقع فى الصحراء ما بين سوريا والملكة العربية السعودية . وأبطالها الرئيسيون أربعة : زعيم قبيله عربى ، وابنه .. ثم المضيفة الجوية الأمريكية ، وطيار بريطانى اسمه « سترلنج » .

وكما تناولت الأفلام الغربية كثيرا المغامرات المزعومة للرجل الأبيض فى أدغال افريقيا .. فان هذا الفصـــل يقدم لنا مغامرة الطيار البريطانى ومضيفته الأمريكية فى الصحراء الغربية . أننا أمام عرب همجيين وبربريين ومتوحشين من ناحية .فى صراع ضد مغامرين غربيين متحضرين وشجعان وطرازانات من ناحيةأخرى . نحن أمام فتاة غربية جميلة وعذراء .. شـــاء لها سوء الحظ أن تقع ضحية اختطاف قامت به قبيلة عربية .. بحيث لم يعد هناك مفر سوى أن يقوم رجل أبيض قادم من الغرب بأنقاذ هذه الفتاة المسكينة من براثن هؤلاء المتوحشين العرب . أنه يقوم بمهمته هذه وحده ـــ بعد أن يتخلى الجميع عن مساعدته ـــ فى مواجهة قبيلة بأكملها . وحده ، بغير شريك معه سوى مسدس .. وبندقية .

هذا هو الموقف الأساسى فى القصة كلها .

ان زعيم القبيلة العربى له ابنان ، أحدهما جاهل وهمجى مثله . والآخر تلقى قســـطا من التعليم ، ولكنه سابى للغاية .. ومهزوم دائما ، ولا يحلم بغير سيارة فورد مكيفة الهواء . وفى البداية يقدم لنا هذا الكتاب زعيم القبيلة باعتباره أميا لا يعرف حتى معنى كلمة « اختطاف » باللغة العربية . وبعدها بقليل نفاجأ به وقد أصبح ـــ بقدرة قادر ـــ يتحدث بالانجليزية الى المضيفة الأمريكية .. مكررا لها بشكل متعمد تعبير « أنه لشىء مكتوب » .. ايحاء من الكتاب بأنه مكتوب فى القرآن طبعا .

ان القصة كلها تتضح فيها « الفبركة » من أول دقيقة .. ويكفى أن تقرأ الأسماء التى ادعاها المؤلف لأبطاله العرب . أسماء مثل « ابن ناستوش » أو « ياشيد » أو « شالوم » . هل حدث مطلقا ان سمى عربى مسلم ابنه باسم « شالوم » ؟

اننى أتصور الآن قارئا عربيا يضحك ملء شدقيه .. استخفافا بتلك الصور الكاركاتيرية ولكننى أتصور أيضا قارئا أمريكيا ضحك هو الاخر من قراءة الكتاب كله .. ولكن على أساس أن ما قرأه فى الكتاب كان واقعة محددة .. بأكثر مما هو صورة كاريكاتيرية . ان القارىء الأمريكى بمعلوماته السطحية تماما عن العالم العربى ، وباهتماماته الخفيفة فى القراءة ، وبولعه الشديد بقصص المغامرات والبطولة الفردية ، وبايمانه التاريخى بأنه انتزع قارة بأكملها من أيدى الهنود الحمر .. قد اشترى من هذا الكتاب أكثر من ثلاثة ملايين نسخة .

ثلاثة ملايين نسخة ، وثلاثة ملايين قارىء أمريكى على الأقل .. خرجوا بعد هذا الفصل بانطباع رئيسى واحد : ان العرب هم الهنود الحمر الجدد فى منطقة الشرق الأوسط . انهم همجيون مقززون لا يصلح للتعامل معهم سوى المسدس . ان « هؤلاء العرب يمكن أن يكونوا متوحشين تماما حينما يتعلق الأمر بأمرأة غربية جميلة » على حد تعبير هذا الكتاب . أن شيئا لم يردعهم عن اختطاف هذه الفتاة ومحاولة اغتصابها بالقوة .. سوى رجل أبيض قادم من الغرب .. حاملا فى يديه مسدسا وبندقية .

الى هنا والكتاب لم يقل شيئا على الاطلاق عن العرب واسرائيل .. لا شىء .. لا شىء .. لاشىء .

ولكن القارىء الأمريكى — نفس القارىء الذى قرأ هذا الكتاب — عندما يتصفح جريدته فى اليوم التالى .. ويقرأ فيها خبرا عن قيام اسرائيل بغارة ضد الفدائيين الفلسطينيين مثلا ، أو ضد هذه الدولة العربية أو تلك .. فانه يكون ممهدا مقدما لتقبل هذا الخبر فى اطار فهمه السابق لصورة العرب فى الشرق الأوسط : همجيون ،

بربريون ، متأخرون ، يستحقون التأديب بين وقت وآخر . يعنى هنود حمر ..

وتلك هى المهمة السياسية التى يحققها هذا الكتاب .

ان أحدا لم يلتفت هنا فى العالم العربى لهذا الكتاب عندما صدر فى مدينة نيويورك .. ولا الكتب الأخرى المماثلة . وربما لأننا هنا لانتابع بما فيه الكفاية النشاط الصهيونى داخل دور النشر الأمريكية . دور نشر مثل « راندوم هاوس » و « سيمون آند شوستر » و « بانتوم كامباني » التى أصدرت من هذا الكتاب خمس طبعات متتالية .

لم يلتفت أحد هنا لمثل هذا الكتاب ، ربما لأننا نكتفى فقط بالأنتباه الى التحركات الأعلامية الصهيونية .. الحادة والصارخة والمباشرة . ولكن الأعلام الناجح ـــ فى الجزء الاكبر منه ـــ ليس حادا ولا صارخا ولا مباشرا . الإعلام الذى يريد أن يؤثر بعمق ، ويعمل على أساس تخطيط طويل الأجل .. يرتب نفسه من اجل تحقيق هدف أساسى هو : تشويه خصمه سياسيا وثقافيا وحضاريا .

.. وهذا هو بالضبط ما يمارسه الأعلام الاسرائيلى والصهيونى ضدنا فى أوربا وأمريكا . انها الحرب الاخرى التى تمارسها اسرائيل ضدنا ، بعيدا عن ميدان القتال الساخن .. وعن الأعلام المباشر الذى رأيناه حتى الآن . أنها حرب أخرى تجرى بين صفحات الكتب العديدة المتوالية .. مثل هذا الكتاب الذى اخترته كمثال ونموذج ، اننى فضلت أن أترك الكتاب كله .. لكى أقدم منه للقارىء العربى هذا الفصل الخاص .. بالتفصيل وكما ورد فى الكتاب تماما .

.. وليس هذا كتابا فى السياسة .. !

صناعة الطيران المدنى هى ، مثل كل الصناعات الأخرى ، تلد شكلها الخاص من الخرافة والاشاعة . هذه الخرافات .. بمجرد أن تبدأ ، تنمو فى الشكل والمضمون .. الى أن يصعب فى النهاية استخراج الوقائع الحقيقية منهـا .

أن احدى هذه الأسـاطير فى عمل المضيفات يدور حول « جين ميدلتون » . انها عملت فى شركتنا للطيران قبل عملنا نحن بسنوات قليلة . فى الحقيقة .. انها عملت فى خمس شركات مختلفة للطيران . وكما تبدأ هذه القصة .. فان « جين » اختارت للمرة السادسة ان تعمل فى شركة أخرى للطيران .. وفى هذه المرة كانت الشركة هى مجرد شركة طيران عربيـة صغيرة تعمل فى الأماكن النـائية والمناطق البعيدة من العالم العربى .

ان جين كانت فتاة طروبا ، مشحونة بالمرح والحماقة .. وقد اصبحت قصة تجربتها التى لا تنسى ، والتى وقعت لها أثناء عملها فى الشركة العربية ، قصـة تروى فى أنحاء العـالم كله . ان من الواضح هنا أن الموقف الأساسى فى القصة قد حدث فعلا . ولقد حاولنا ان نلم معا شمل المفـاهيم المختلفة التى تتم بهـا رواية التجربة .. لكى نضم القصة فى هذا الكتاب .

* * *

نظر « ياشيد ناستوش » الى أعلى من فوق الجمـل الذى يمتطيه .. بعد أن سمع فوق رأسه طائرة من طراز « د. س — ٦ » .

انه همهم لنفسه قائلا : هذا طير كبير .

اجابه « شالوم ناستوش » : لا أيها الغبى .. هذه طائرة !

ان الأخوين العربيين راقبا الطائرة وهى تختفى فى الضـباب الأصفر الذى أثارته عاصفة رملية هبت فجأة .

فى داخل الطائرة ، كان الطيـــار ومســـاعده فى صراع من اجل الاحتفاظ بتوازن الطائرة . ان الطائرة « د. س ــ ٦ » قديمة ، وذات رصيد كبير فى ساعات الطيران .. ومن ثم فانها بدأت تميل بحدة نحو اليسار .. برغم مجهودات طاقم الطائرة . لقد كانت هذه الطائرة واحـــدة من أربع طائرات مماثلة تمتلكهـــا الشركة العربية الجوية الصغيرة .. وكانت الطائرة فى رحلتها العادية بين دمشق بسوريا والرياض بالعربية السعودية .

ان الطيار ــ وهو بريطانى اكسبته الشمس نوعا من السمرة أقرب الى اللون الأفريقي ــ كان يجاهد بأقصى ما يستطيع للسيطرة على المحرك .. بينما مساعده ــ وهو عربى تم تدريبه فى انجلترا ــ قفز من مقعده .. راكعا على أرض كابينة القيادة .. متجها بوجهه نحو الشرق .

ان الكابتن « سترلنج » .. بينما يكافح من أجل ادارة الطائرة نحو اليمين .. شتم مســـاعده صائحا : أيهـــا الغبى .. انهض واجلس على كرسيك وساعدنى فى السيطرة على هـــذه الطائرة الملعونة .

وهكذا نهض مساعد الطيـــار عائدا الى مقعده .. بينما هو ما يزال مستمرا فى التمتمة بصلواته .

فى مؤخرة الطائرة أحس الركاب ــ الذين كان عددهم سبعة .. وكلهم من العرب ــ بالمشكلة .. وامسكوا فى قوة بمساند مقاعدهم .. أما المضيفة الوحيدة بالطائرة .. فقد ترنحت فى خطواتها ، بينما هى تفتح باب كابينة القيادة .

ان الكابتن « سترلنج » صرخ فيها قائلا : اننا نفقد السيطرة

على الطائرة ... اخبرى كل الركاب بأن يستعدوا لهبوط اضطرارى ..

أجابت المضيفة قائلة : « نعم ، يا سيدى » .. ثم أغلقت خلفها باب الكابينة ، وعادت الى مكان الركاب . هذه المضيفة كانت هى « جين ميدلتون » . انها لعنت الطائرة .. وأحاطت نفسها بحزام مقعدها . وبعد أن احكمت ربط الحزام ، صاحت فى الركاب: «اربطوا احزمة المقاعد..واخلعوا نظاراتكم .. وضعوا وسادة على أحجركم .. وتماسكوا . اننا سوف نصطدم بالأرض ».

لقد انطلقت من الركاب تأوهات مختلفة مرتفعة .. ولكن «جين» تجاهلتها . وبينما هى تراقب الصحراء التى تسرع لمقابلتهم .. فانها همهمت قائلة لنفسها : كان يجب أن اترك هذا العمل .. واقبل وظيفة بائعة .

ان الكابتن « سترلنج » أبطل محركات الطائرة مع اقترابه من أرض الصحراء .. لمدة بدت لا نهائية ، ثم ترك الطائرة تستقر فوق رمال الصحراء .. ولكن ليس بعمق يسمح باصابة مقدمة الطائرة . وأخيرا ، توقفت الطائرة بالتدريج قبل مسافة قصيرة من تل رملى ضخم .

قال الكابتن « سترلنج » لمساعده : ما رأيك فى هذا الهبوط الاضطرارى ؟

ولكن مساعد الطيار كان مهتزا .. بحيث أنه لم يرد . ان كل ما فعله هو انه جلس هناك ، وظل يهمهم بصلوات نحو الشرق .. كانت تستلزم منه أن يدير رأسه بعيداً تماما .

ان « سترلنج » هز كتفيه فى حركة ازدراء .. وفك حزام مقعده .. وذهب الى كابينة الركاب .. فوجدهم قلقين للغاية .

أما « جين ميدلتون » فكانت ما تزال جالسة فى مقعدهــا .. بتعبير مثير فوق وجهها الجميل . انها سألت الكابتن « سترلنج » كيف استطعت أن تتفادى هذا التل الرملى ؟

رد هو عليها : حسنا يا عزيزتى .. لم يكن أمامى من اختيار فى هذا الشأن ..

فكت « جين » حزام مقعدها ، ونهضت واقفة ، وفتحت باب الطائرة ، ونظرت فى الصحراء الواسعة الممتــدة أمام عينيهــا بلا نهاية . ان الحرارة اندفعت الى الداخل من باب الطائرة فى لفحة ساخنة . ان درجة الحرارة لا يمكن أن تكون أقل من مائة وعشرين فهرنهيت .

ان « جين » أغلقت الباب .. وهمهمت للــكابتن بأن يعيــد تشغيل جهاز تكييف الهواء داخل الطائرة .

لقد رد عليها « سترلنج » : لا استطيع أن أفعل هذا . أننى لا أريد أن أســتهلك البطاريات .. انك تعرفين أن البطاريات قديمة مثل هذه الطائرة الملعونة ..

قال أحد الركاب العرب للكابتن : كم من الوقت ســوف نظل هنا .. يا كابتن ؟

رد « سترلنج » : لا استطيع أن أحدد لك .. أيها الشاب العجوز . اننى حاولت الاتصال عن طريق الراديو بأقرب محطة ضخ للبترول .. وأخبرتهم بأننا سوف نهبط اضطراريا .. اننى أفترض أنهم سوف يرتبون مسألة ارسال واحــدة من طائراتهم خلال وقت قصير .. أو ــ على الأقل ــ دعنا نأمل ذلك .

ان الطائرة سرعان ما ارتفعت حرارتها .. وسرعان ما أصبحت مقصورة الركاب لا تطاق . لقد فتحت « جين » باب الطائرة وسط دهشة الجميع .. وسرعان ما تجمعوا كلهم فى ظل الطائرة من الخارج ، وانتظروا فى صمت .. وعيونهم تتجول فوق رمال الصحراء من بعيد .. بحثا عن علامة انقاذ .

لقد بدأ الليل يحل .. بينما عيون الجميع متركزة على السماء .. ولو حدث أن نظروا عبر الصحراء .. فى الجانب الآخر من الطائرة .. فانهم كانوا سيرون قافلة من البدو يقودها « ياشيد » و « شالوم » .

كانت القافلة تضم أحد عشر عربيا .. ودستة من الجمال .

ان « ياشيد » صاح مندهشا عندما رأى الطائرة : انظر .. هذا هو الطير الكبير قد هبط على الأرض .

صاح فيه « شالوم » قائلا : لقد أخبرتك أن هذا ليس بطائر كبير .. هذه طائرة .. وهى تحمل أناسا ..

ان « شالوم » .. منذ انتهت دراسته التى استغرقت سنتين فى بيروت .. كان من المستحيل الحياة معه . انه كان يتباهى بتعليمه الجديد فى كل مناسبة .. مما كان يثير عليه سخط رفاقه من البدو . ولكن « شالوم » لم يكن يكترث بمشاعرهم . انه يريد فقط أن يترك حياة البدو ويحصل على وظيفة فى مكتب مكيف الهواء بالمدينة .. ولكن تقاليد قبيلته كانت تملى عليه أن يعود ويشارك معرفته التى حصل عليها فى الجامعة مع أعضاء قبيلته .

انه فى هذه اللحظة كان يصيح فى الجمل الذى يمتطيه ، متمتما لنفسه : اننى قضيت سنتين فى دراسة العقل الالكترونى .. وبعد ذلك يكون قدرى هو الحياة مع أمثال هؤلاء الناس الذين يعتقدون أن الطائرات هى طيور كبيرة !

بعدها لكز « شالوم » الجمل بقدمه ، مفكرا فى السيارة ذات الهواء المكيف ماركة « فورد » .. التى اعتاد أن يركبها .. حينما كان فى بيروت .

ان القافلة وصلت الى الجناح الآخر من الطائرة قبل أن يلاحظها أحد . لقد كان الكابتن « سترلنج » هو أول من لاحظ هؤلاء العرب وجمالهم ، أنه صاح قائلا : أنظر .. هؤلاء البرابرة المتوحشون قد وصلوا .. فليسمعنى كل منكم .. أننا آدميون مثلكم .. تعالوا الينا هنا .. داخل هذا الطير الكبير ..

لقد قال « سترلنج » هذه الكلمات ، مشيرا بيده نحو الطائرة .. بينما « ياشيد » ينظر الى « شالوم » متهكما .

قال « شالوم » : اننى أتحدث بالانجليزية ..

رد « سترلنج » : حسنا .. حسنا .. هذا فأل طيب . أنا الكابتن « كلارنس سترلنج » طيار . اننى صديقك . بل أننى — حتى — عملت معكم طيارا فى الجزائر .. ضد أولئك الفرنسيين القذرين ..

تقدم « شالوم » من الكابتن « سترلنج » مبتسما .. ثم سأله : ماذا فعلت بك السماء ؟

رد الكابتن : ماذا فعلت بى السماء ؟ أين تعلمت هذا التعبير الأمريكى ؟

رد « شالوم » : فى بيروت . فى الجامعة . اننى درست على يد مدرس أمريكى ..

ان « سترلنج » و « شالوم » تبادلا حديثا وديا ومنتعشا . لقد أعطى « سترلنج » سيجارة لشالوم .. بينما خبط « شالوم »

العربى بيده على ظهر الكابتن مازحا . وهكذا سار الحديث بين الاثنين .. بينما الجميع ينظرون اليهما . الجميع ، ما عدا « ياشيد ناستوش » .. الذى جمع العرب الآخرين حوله ودخل فى حديث ودى فى درجة مماثلة . ان محور اهتمامهم كان « جين ميدلتون » .. التى كانت جالسة بجوار مساعد الطيار .

وبينما الجميع تتركز عيونهم على « سترلنج » و « شـــالوم » .. فان أحدا لم يلاحظ أن « ياشيد » يقود البدو الآخرين متجها نحو « جين » . انهم انقضوا عليهـــا .. بلا انذار .. وأمسكوا بها .. وجروا نحو الجمال .

لقد صاح فيهم « سترلنج » : اسمعوا .. أتركوا هذه الفتـــاة وشأنهـــا ..

أما « شـــالوم » .. فقد تمتم ببضع كلمات باللغة العربية . ولكن كلا الاثنين لم ينجح فى ايقاف العرب . انهم طرحوا « جين » أرضا ، وشكلوا دائرة من حولها . لقد رفع كل رجل منهم سكينا طويلا مقوسا فى يده ، ثم وقف صلبا .. بتصميم حاد يرتسم على وجوههم .

ان « سترلنج » سأل « شالوم » : ما هذا الذى يجرى ؟

أن « شالوم » لم يرد . وبدلا من ذلك ، فانه ســـار متجهـــا نحو « ياشيد » . انه سأله نفس السؤال باللغة العربية . ولكن « ياشيد » أجـــاب بأنه سوف يأخذ « جين » لكى يسلمها الى أبيهم زعيم القبيلة : « ابن ناستوش » . بعدها قال « ياشيد » لشالوم : ان هذه سوف تكون الجائزة الكبرى لأبينـــا .. اننى سوف أصبح بعدها الابن الاثير لديه .. أما أنت الذى كنت حتى الآن مفضلا عنده بسبب تعليمك .. فانك لن تصبح كذلك بعـــد الآن ..

ان « شالوم » تجادل مع أخيه .. ولكن بلا جدوى . فى الواقع .. فان « ياشيد » أدار سكينه ، موجها نصلها نحو أخيه المتعلم .. وأمره بأن يمتطي الجمل أمامه . أما « جين » .. فكانت ما تزال منبطحة على الرمال .. بنظرة خائفة ترتسم على وجهها الجميل الشاحب . لقد قام اثنان من البدو بشدها من قدميها .. ورفعوها فوق أحد الجمال .. ثم بدأ الجميع يختفون فى ظلام الليل .

ـ أيها اللصوص المتوحشون .. تعالوا هنا ..

هكذا صاح فيهم الكابتن « سترلنج » .. ولكن رياح الصحراء العاصفة أعادت اليه صدى كلماته .

أخيرا ، قال « سترلنج » متمتما : حسنا ، ما الذى سيفعله هؤلاء المتوحشون بها ؟

رد عليه أحد الركاب العرب : ان الأمر سوف يختلف . فلو أن زعيم القبيلة ابتهج بها .. فانها سوف تصبح واحدة من حريمه وتظل تخدمه جنسيا طوال البقية الباقية من عمرها . أما اذا لم يبتهج بها .. فانه سوف يحكم عليها بالموت ..

قال سترلنج : اننى أعتقد أنه سوف يقتلها .. الا تعتقد انت ذلك ؟

رد عليه المسافر : من الصعب التنبؤ بعقلية زعيم قبيلة .. أيها الكابتن سترلنج . انه شيء مكتوب .. أن رياح الصحراء تثير الرغبات الجنسية فى محاربى الصحراء . أن المضيفة الجميلة الشاحبة سوف يتم استدعاؤها كثيرا لتحقيق المتعة . ان السؤال هو ما اذا كانت هى قادرة على اعطاء كثير من المتعة . هل هى كذلك .. يا كابتن سترلنج ؟

رد الكابتن : فى الحقيقة انا لا أعرف . اننى لم أفكر فيها بهذا الشكل من قبل مطلقا .. اذا كنت تفهم ما أعنيه . اننى لاطفتها قليلا .. وسبحنا معا مرة .. ولكن ، لماذا أنا بحق السماء أتكلم بهذا الشكل ؟

قال المسافر ، ان عقل الرجل يتباطأ خلف لسانه .. أيها الكابتن . هذا شيء مكتوب .

ــ نعم . حسنا . ان من الأفضل أن نضع عقولنا الآن معا .. فى سبيل القيام بانقاذ « جين » المسكينة من أيدى هؤلاء البرابرة القذرين ..

ان المسافر العربى أبدى عدم سروره من لهجة الكابتن ، وانصرف عنه الى رفاقه الآخرين من المسافرين .

أما قافلة البدو ، فقد استمرت تقطع رحلتها أثناء الليل . ان « جين » .. فى مكانها فوق الجمل .. تصورت أخيرا أن جسمها سوف ينشطر الى اثنين . أما « شالوم » فقد عامله أخوه كسجين .

أخيرا قال « شالوم » : حينما أخبر أبى بهذا .. فانه سوف يقطع لسانك .

ولكن أخاه أدار بصره بعيدا عنه .. ولم يرد .

أما « جين » فكانت تصيح : « النجدة .. ! » . ولكن صيحتها كانت بحكم العادة ، بأكثر مما كانت بحكم الاقتناع . انها كانت تستغيث كل ربع ميل .. مما كان يجعل البدو من حولها يضحكون .

ومع بداية شروق الشمس .. كانت قافلة البدو قد وصلت الى تل رملى كبير .. وهبطت الى معسكر القبيلة . وحينما ادارت بصرها فى المعسكر .. فانها رأت امامها دائرة من الخيام .. تتصدرها خيمة واحدة كبيرة فى اقصى النهاية . ان النيران موقدة فى وسط الدائرة ، والعرب نائمون قرب النيران .

ان « ياشيد » أعطى اشارة بوصولهم .. فنهض العرب حول النيران وجروا مرحبين بهم . بعدها امسك « ياشيد » بحبل الجمل الذى تمتطيه « جين » .. وقادها باعتزاز فى جولة تفتيشية عبر المعسكر . ان الآخرين كانوا يركضون فى الخلف .. مثرثرين بكلمات تدور حول الفتاة الشاحبة .. وحول انتصار « ياشيد » الواضح .

ولقد ظل الجو سارا .. الى أن انفتحت الخيمة الكبرى .. وخرج منها « ابن ناستوش » .. الزعيم الكبير للقبيلة .

انه صاح ببضع كلمات ، بالعربية ، فصمت الجميع على الفور .. بما فيهم « ياشيد » . بعدها صفق « ابن ناستوش » بيديه .. فتفرق الجميع .. تاركين « ياشيد » و « شالوم » و « جين » فى الدائرة .

قفز « شالوم » من فوق جمله ، قائلا لأبيه : ان أخى ارتكب عملا فادحا يا أبى ..

احتج « ياشيد » قائلا : لا ، يا أبى .. اننى أتيت لك بعذراء جميلة من الصحراء . لقد هبط من السماء طائر كبير ، وأتى بها الينا . اننى أحضرتها لك أيها الأب الجليل وزعيم قبيلتنا المتواضع .

أصيبت « جين » بالرعب . ان زعيم القبيلة كان انسانا بشع المنظر ، ان وزنه يبلغ ثلاثمائة رطل . وجهه متجعد وضخم .. ينبت فى وسطه شارب ضخم . ولكن الذى كان أكثر بشاعة هو منظر فمه .. الذى كان يقع أسفل الجانب الأيسر من وجهه .. بطريقة تصل الى حدود فكيه . وكانت هناك سكاكين تتدلى من حزامه ، عددها ثلاثة ، فى أشكال مقوسة وايد محلاة .

لقد سأل زعيم القبيلة ابنه « ياشيد » : طائر كبير أتى بفتاة شاحبة ؟

قال « شالوم » : انه لم يكن طيرا يا أبى .. انها طائرة ، من طراز « د. س — ٦ » .. يقودها طيار بريطانى اسمه سترلنج ..

رد الأب : نعم . ان « ياشيد » محروم من نعمة التعليم الذى حصلت عليه أنت يا ولدى . ان الطيور لا تأتى بسيدات شاحبات الى الصحراء ..

لقد جرحت كلمات الأب مشاعر « ياشيد » .. بينما أحس « شالوم » بتفوقه فى هذه اللحظة .. مما جعله يستأنف الحديث الى أبيه ..

قال « شالوم » : يا أبى .. ان « ياشيد » ارتكب عملا سيئا . لقد قام باختطاف هذه الفتاة .. ان الصحراء سرعان ما ستحشد برجال يبحثون عنها ، انهم سوف يأتون ويحاربوننا يا أبى ..

تساءل الأب : اختطاف ؟ ما معنى هذه الكلمة يا ولدى ؟

— معناها شىء سيىء يا أبى .. معناها جناية كبرى .

قال الأب : نعم . أنت أخطأت يا ولدى « ياشــيد » ، أننى كررت إلك رغباتي كثيرا ، ولكنك لا تسمع الى .. أننى أشعر بأن هناك كثيرا من .. من .

قال « شالوم » : فجـوة .. يا أبى .. انهــا تسمى فجــوة الأجيــال ..

- استمر الأب قائلا : بصرف النظر عما تسمى . أننى يا «ياشيد» عانيت بسببك كثيرا .. ومع ذلك فلابد أن أكون فخورا بميولك المحاربة . أما أنت يا « شالوم » .. فان التعليم أفقدك الكثير . لقد أفقدك شجاعة وجرأة أسلافنا .

ان « ابن ناستوش » تفحص « جين » فوق الجمل بعينيه . أن « اليونيفورم » الذى ترتديه كان متراجعا الى أعلى .. كاشــفا عن جزء من صدرها . ان زعيم القبيلة سمح لعينيه السوداوين بأن تتجولا عبر جسدها . بعد ذلك نظر الى « شــالوم » .. ثم نظر الى « ياشيد » .. ثم أعاد النظر الى « جين » .

أخيرا أصدر زعيم القبيلة أوامره .. قائلا : ادخلوا الفتــاة الشاحبة الى الخيمة .. اننى سوف أبت فى هذه المسألة فيما بعد .. عقب العشاء .

وبينما بدأ « ياشيد » يشد « جين » الى أسفل الجمل .. كانت هى تركل بقدميها وتصرخ بصوتها ، ولكنه حملها على كتفيه الى داخل خيمة أبيه زعيم القبيــلة . وحينما سمح « ياشيد » ليــديه بالتجول عبر ساقها .. لكمته « جين » فى فمه . ان المحارب العربى الشاب أسقطها على الأرض . وكان على وشك أن يلكمها .. عندما أمره أبوه بأن يترك الخيمة .. فغادرها على الفور .

لقد قال الأب لابنه شالوم : خذ الفتاة الشاحبة الى حريم بيتى الإخريات .. واخبرهن بأن يجعلنها مستعدة للعشاء .

ان « جين » صرخت بصوت أعلى من ذى قبل : لن أسمح لأحد بأن يأكلنى ..

وبينما ضحك الأب ، فان « شالوم » اخذها بذراعيه .. وقادها عبر ستارة داخلية ، وبمجرد أن اصبحا فى الجانب الآخر ، هزها بعنف هامسا لها : اننى صديقك .. وسوف أقوم بحمايتك ..

قالت « جين » : لا تشغل بالك بحمايتى .. فقط ، أخرجنى من هنـــــا .

رد شالوم : صبرًا .

سألته « جين » : الى أين تأخذنى ؟

ــ الى حريم أبى . ان زوجاته هناك سوف يجعلنك تستحمين وتتجملين من أجل العشاء . ان أبى يتناول عشاءه بمفـــرده معك . تلك هى عادته مع عضوات الحريم الجديدات .

ــ اننى لن أكون حريما لأى انسان . اسمع هذا .. أنا لست قديسة .. ولكننى ايضا لست حريما . الى جانب ذلك ، فاننى أعتقد أن رجلكم العجوز هذا .. هو خنزير وخرتيت .

ــ اسكتى أيتها الضيفة . ان كل ما عليــك هو الســـكوت .. والثقـــة فى .

ان « شالوم » أخذ « جين » الى حجرة فى الخيمة .. كان فيها دستة من الفتيات العربيات .. متبلدات فوق وسائد حريرية . انهن قفزن الى أعلى بمجرد دخول « شالوم » .. ثم التففن حوله . لقد

كان واضحا « لجين » ان كل واحدة من هؤلاء الفتيات تتمنى أن يكون « شالوم » محبوبها . انها راقبت ذلك بعصبية .. بينما هن يجذبن ثوبه ، ويداعبن وجهه ، ويمررن بأصابعهن فى خصلات شعره . ولكن « شالوم » وضع حدا لكل هذا ، وأمرهن بأن يجعلن « جين » مستعدة لعشاء خاص هذا المساء . ان رد الفعل كان سريعا وعنيفا .لقد اعتقدت الفتيات أن «جين» هى اختيار«شالوم» .. ونزعان ما اسـود لونهن وامتلأت عيونهن بالكراهية نحو « جين » . لقد بدأت « جين » تسأل « شالوم » عما اذا كان من الضرورى أن يفسر لهن ما يجرى .. ولكنه غادر الحجرة بسرعة.. تاركا « جين » وسط فتيات الحريم .

ان الفتيـات استجبن لها بترديد أصوات القطط .. وبشـدها بفظاظة الى حوض حمـام كبير من الصفيح ، يقع الى جوار أحـد جدران الخيمـة لقد ذهبت اثنتان من الفتيات لاحضار الميـاه .. بينما بدأت اثنتان أخريان بخلع ملابسها بطريقة تشنجية .

ان «جين» صاحت فيهما : «انكن تمزقن ملابسى» .ولكن واحدة منهما لا تسمعها .وخلال لحظات كانت الفتاتان قد حررتا «جين» من الملابس .. وأحست « جين » أنهـا أصبحت تشعر فجأة بالبرد الشديد .. رغم أن درجة حرارة الخيمة تبلغ المائة . انها نظـرت حولها تبحث عن شىء — أى شىء — لكى تغطى به جسدها .. ولكن ، لم يكن هناك شىء . ان كل ما استطاعت أن تفعله ، هو أنها وقفت هناك .. بذراعيها مشبوكتين فوق صـدرها البارز .. واحدى فخذيها أمام الأخرى .. شاعرة بالتقلص .. بينما الفتيات يسرن حولها ويتفحصن جسمها العارى .

انها حاولت أن تستنتج من أصواتهن ما اذا كانت هى محـل استحسانهن أم لا .. وفى النهـاية خمنت أنهـا ليست موضـع

استحسانهن ، لقد وخزتها احدى الفتيات في بطنها .. بينما لطمتها فتاة أخرى فى مؤخرتها .. فى نفس الوقت الذى شدت فيـه فتاة ثالثة ذراعيها الى أسفل ووخزت صدرها بأصبعها . ان كل هـذا شحن « جين » بالحنق والغيظ .. مما جعلها تندفع خارجة من الحوض .. وهى تلوح بقبضتها نحو أقرب الفتيات . انهن تباعدن عنها بسرعة .. محتميات بالوسائد ضـد هذه الأنثى الشـاحبة الشرسـة .

بعد قليل توقفت « جين » عن تهديدها ، ونظـرت حولهـا ، ثم سارت الى حوض الاستحمام الذى أصبح الآن مليئا بالمياه الساخنة أنها قالت : « الى الجحيم بكن جميعا » ..ثم استقرت داخل الحوض مسترخية مع دفء المياه . لقد تقدمت منها احدى فتيات الحريم وقدمت لها الصابون . ان « جين » ابتسمت .. وأشـارت الى كتفيها بما معناه أنها تريد من الفتاة أن تغسل لها ظهرها .. ثم أغلقت عينيهـا .

لقد بدأت الفتيـات العربيات يغسلن ظهر « جين » بالصابون.. وببطء . ان أحداهن لم تلاحظ السكين التى اخترقت جدار الخيمة بسرعة بجوار الحمام . لقد مزقت السكين جدار الخيمة ببطء .. صانعة فيه فتحة بطول ثلاث بوصـات . وسرعان ما حملقت من الفتحة عين سوداء .. هى عين « ياشيد » .. الذى كان يغـذى عينيه بمنظر « جين » فى الحمام .. مما جعل قلبه يسرع فى دقاته . انه تنفس بعمق ، وبشكل كان مسموعا لجين ، لقـد فتحت هى عينيها .. ونظرت حولها .. ورأت ما يحدث ، ممـا جعلها تمـد يدها فى الحوض من أسفل وتملأها بالميـاه .. ثم قذفت بالمياه فى الفتحة مرة واحدة . ان وجه « ياشيد » تبلل بالميـاه .. ممـا جعله يبصق ، ويتمتم ببضع لعنات ، بينما هو يجرى بعيدا .

وعندما وقفت « جين » في حوض الاستحمام ، جاءت اليها احدى الفتيات بقطعة قماش كبيرة .. لفتها « جين » حولها ، وابتسمت ، ثم ذهبت مع الفتاة الى ركن آخر في الحجرة .. حيث تنتظرها فتاتان اخريان لتمشيط شعرها . ان « جين » تعجبت من نفسها عندما جلست فوق الوسائد الحريرية ، وسمحت للفتيات العربيات باللغط حولها . في الواقع .. ان « جين » كانت قد بدأت تستمتع بهذه المرحلة من الأسر .. ولكنها كانت تعلم أن هناك المزيد سوف يأتي ..

* * *

وصلت طائرة خط الأنابيب التفتيشية من طراز « كيسنا ١٥٠ » الى الموقع الذى هبطت فيه الـ «د. س — ٦ » اضطراريا في حوالي الساعة الثامنة صباحا . ان الطائرة قامت بطلعات عديدة فوق المنطقة ، وأسقطت الامدادات ، ثم قام طيارها بأخبار الكابتن « سترلنج » بالراديو بأن طائرة اخرى سوف تصل سريعا،وبعدها قفلت الطائرة عائدة الى المكان الذى أتت منه . وفي الساعة التاسعة .. وصلت الطائرة الثانية .. وكانت طائرة خفيفة ولكن من حجم أكبر ، ومجهزة للهبوط على رمال الصحراء .

لقد استمع طيارها — وهو طيار شاب — الى الكابتن «سترلنج» يروى قصة اختطاف « جين » .

وفي النهاية قال له « سترلنج » : أنت تعرف يا رفيقي أن هؤلاء العرب يمكن أن يكونوا متوحشين تماما ، حينما يتعلق الأمر بامرأة غريبة جميلة . أنني أعتقد أن علينا أن نبذل أقصى سرعة في سبيل انقاذ الفتاة المسكينة ، قبل أن يفعل بها هذا الزعيم المتوحش شيئا .. فقط عليك أن تتبعني ..

حك طيار شركة البترول أنفه بأصابعه ، ثم قال : لا تنزعج من هذا الرجل « ابن ناستوش » .. انه عاجز جنسيا . ولكن الكلمة خرجت من فمـــه وهى تشبه فى نطقها كلمة « رجل مهم جـــدا » بالانجليزية .. مما أصاب سترلنج بالحيرة والارتباك .

قال سترلنج : حسنا ، طبعا هو رجل مهم جدا .. فأى زعيم قبيلة مهم جدا ..

ــ أنا لم أقل أنه مهم جدا .. أنا قلت أنه عاجز جنسيا ..

ــ لا شك أنك تمزح ..

ــ طبعا لا . انه رجل عجوز سمين .. ركله أخوته بعيدا عن القصر . انهم أعطوه أموالا ورجالا مبذرين لينفقوها ، ثم أرسلوه بعيدا الى الصحراء . انه لن يفعل شيئا لضيفتك .. الا اذا أصبح مجنونا بها وخائبا فيها .. فيقتلها . لقد فعل ذلك من قبل . انت لا تستطيع أن تلومه . أليس كذلك ؟ بعد كل شىء ، ضع نفسك فى مكانه : كلهن يحطن بك ..وانت لا تستطيع أن تفعل شيئا . مع ذلك ، يا رفيقى، فاننى سوف أكون مستعدا لأن أقتل أى انسان..

تلوى سترلنج من الألم ، بينما هو يتأمل مصير « جـــين » . انه شعر بالأسف لأنه لم يكن فى علاقته معها أكثر قربا . لو أنه كان يعرف أنها بارعة فى الحب .. فانه كان سيشعر بأنها أكثر أمنا .

أخيرا وجه « سترلنج » سؤاله الى طيار شركة البترول : كم من الوقت تحتاجه لكى تأتى لنا فى طائرتك بمدد من الرجال ؟

ــ لمـــاذا ؟

ــ لانقاذ « جين » طبعا ..

ــ لا اعرف . ان اقرب رجال هنا هم رجال خط الأنابيب . اننى لا أعتقد أنهم سيهتمون بالدخول فى مطاردة من أجل فتاة .. ثم انهم

جميعا عرب يا رفيقى . انهم يستطيعون ان يكونوا حزمة حقراء .. حينما تقوم بتعكير مزاجهم .

ــ انا لا اشك فى هــذا ، ولكن لابد من عمــل شىء للمسكينة « جين » . اليست امامك حقا طريقة لاحضار رجالك هنا ؟

ــ لا ..

ــ حسنا .. هذا يترك الموضوع كله فى يدى . دعنى أرى . افرض انك طرت بى الى هناك .. الى معسكرهم .. وانت وانا نندفع لانقاذها ..

ــ لا ، اشكرك . انا لم يبق لى فى هذا العمل اللعين اكثر من سنة .. وانا لست مستعدا لتضييعها .

ــ هذا شعور سافل . حسنا . ماذا عن فكرة أن تطير بى ، مع مساعدى ، الى هناك .. ثم تلقى بنا فى معسكرهم ؟

ــ نعم ، أستطيع أن افعل هذا . ولكن ، ماذا عن هؤلاء الركاب؟

ــ هل تستطيع أن ترسل طائرة أخرى الى هنا ؟

ــ نعم . متى تود أن تصبح هناك ؟

ــ الآن ، وفورا .. يا رفيقى . ان كل دقيقة نفقدها يمكن أن تعنى كارثة بالنسبة لـ « جين » المسكينة .

ان طيار شركة البترول اتصــل بقاعدته عن طريق الراديو .. لكى يجد أن الطائرة الكبيرة الاخرى قد اصيبت باعطال فنية . لهذا قرر الكابتن « سترلنج » ان المسافرين يجب اجلاؤهم فى هذه الطائرة الموجودة فعلا .. قبل أن يحاول هو انقــاذ « جين » . ان الأمر

تطلب قيام الطائرة برحلتين لاجلاء الركاب . وعندما عاد الطيار أخيرا لكي يأخذ « سترلنج » .. كانت الساعة قد أصبحت الرابعة عصرا . لقد اكتشف « سترلنج » ان مساعدة الطيار قد تراجع بشدة عن مساعدته في محاولة الانقاذ .. مدعيا بأن المسألة بالنسبة له تتركز في ان اشتراكه في حرب ضد بني قومه سوف يصيبه بعقاب شديد من الله .

قال « سترلنج » معلقا : انك جبان .. وقذر ..

لقد ترك الكابتن باقي الركاب يصعدون في الرحلة الثانية . بينما مساعد الطيار يتمتم ببضع كلمات عربية يقولها لنفسه وهو ينظر من نافذة الطائرة . ان «سترلنج» انتظر بمفرده ، الى أن عاد طيار شركة البترول أخيرا بالطائرة خاوية .

قال طيار شركة البترول للكابتن « سترلنج » : تذكر الآن .. انني سوف أسقطك بعيدا عن المعسكر بمسافة كافية . تذكر ذلك .

ــ حسنا يارفيقي .. انني أرى أفكارك بوضوح ..

لقد استغرق الأمر أكثر من ساعة قبل أن يصلا الى المعسكر البدوي . ان الطيار تعرف على المكان أولا .. ثم دار بالطائرة هابطا في شكل دائرة .. واستقر أخيرا على أرض الصحراء .. محتجبا بطائرته خلف تل رملي مرتفع يفصله بمسافة كافية عن المعسكر .

لقد أشعل « سترلنج » سيجارة .. وجلس في هدوء . ان وجهه أصبح الآن يتصبب عرقا .

قال «سترلنج» لطيار شركة البترول : ان الجو هنا شديد الحرارة يارفيقي .. أليس كذلك ؟ هذه الصحراء اللافحة يمكن أن ترهق الانسان عرقا حتى الموت ..

هز طيار شركة البترول رأسه .

قال سترلنج : هذه السيجارة الساخنة لا تساعد في أى شيء ..

ـ حسنا ، خذ واحدة من سجائرى . انها مشبعة بالمنتول .

ـ هذا شيء ظريف منك .

تناول « سترلنج » السيجارة من طيار شركة البترول .. وفى نفس الوقت مد يده وشد مفتاح الاشتعال من اللوح المعدنى أمامه.

صاح فيه طيار شركة البترول : ماذا تفعل بحق الجحيم ؟

ـ اننى فقط اضمن لنفسى طريقا للعودة فى هذه الطائرة خروجا من هذه الصحراء التى تشبه الجحيم .

بهذه الكلمات .. أخرج « سترلنج » مسدسا من حزامه ، ووجهه نحو طيار شركة البترول ، ثم قال له : الآن سوف أذهب أنا لأنزع شيئا من محرك الطائرة .. لمجرد أن اضمن انك لن تحاول تشغيل الطائرة بغير المفتاح . بعد ذلك سوف أذهب الى المعسكر وانقذ « جين » . اننى سوف أعود معها يا رفيقى العزيز .. وأنت سوف تطير بنا فى أمان بطائرتك . هل هذا واضح .

ـ أنا لا أملك أى اختيار .

ـ هذا تفكير طيب . وبالمناسبة ، هل معك بندقية ؟

ـ نعم . خلف المقعد .

ان طيار شركة البترول أدرك انه لم يكن يجب أن يقول ذلك .. ولكن « سترلنج » مد يده خلف المقعد وأخذ البندقية .

اخيرا قال « ســـترلنج » للطيار : هل اســـتطيع أن أقنعك بأن تشـــترك معى فى هذه المهمة ؟ فى هذه الحالة ســـوف أتمكن من استخدام ذراع ثانية .. وبندقية ..

ــ مستحيل . أنا لن أذهب بالقرب من معسكر المتوحشين هذا ..

ــ حسنا . ان على أن أحمل كلا السلاحين ، سلاح واحد فى كل يد .. وسوف أتصرف بأحسن ما أستطيع . انتى سوف أعود فى وقت ما بعد الظلام . أعتقد انك ستكون هنا ..

ــ نعم ، سوف أكون هنا . أن عليك فقط أن تتأكد من وجود مسافة كافية بينك وبين تلك الخيام .

ــ معك الحق .

لقد فتح « سترلنج » غطاء محرك الطائرة .. ونزع منه شيئا ما .. وضعه فى جيب جاكتته الداكنة اللون .. ثم سار فى اتجاه التل الرملى الضخم . بعد حوالى خمسين ياردة استدار صائحا فى اتجاه طيار شركة البترول قائلا : هل أنت متأكد انك لن تشترك معى ؟

ــ نعم .. متأكد جدا ..

ــ أتمنى ألا تقول هذا . ان هذه المهمة تجعلنى أرتجف .

بعدها اتجه « سترلنج » الى قمة التل الرملى . ثم انبطح الى أسفل ، واتجه بنظره الى معسكر البدو . كان الليل قد بدأ يحل .. والنيران قد اشتعلت فى مكانها المعتاد وســـط دائرة الخيام . ان « سترلنج » نظر خلفه ورأى طيار شركة البترول جالسا على قمة الطائرة .. مما جعله يهمس لنفسه معلقا على موقف طيار شركة البترول : لم يعد هناك شرف فى هذه الدنيا .

لقد انتظر « سترلنج » إلى أن أصبح الظلام كاملا . انه استطاع ان يخمن أن الخيمة الكبيرة ربما تكون هى خيمة رئيس القبيلة .. ولابد انها المكان الذى توجد فيه « جين » أسيرة . لقد نظر فى ساعته فوجودها تشير الى الثانية والربع مساء .. ومن ثم فانه قرر أن يظل فى مكانه حتى التاسعة .

وبينما الكابتن « كلارنس سترلنج » يرقد على الرمال فوق التل.. كانت « جين ميدلتون » قد تم اصطحابها الى البهو الرئيسى لخيمة زعيم القبيلة . ان فتيات الحريم جعلنها ترتدى أفخر الثياب الحريرية .. وغطين النصف الأسفل من وجهها بحجاب منساب الى أسفل .. ووضعن الخواتم الذهبية والفضية فى ثمان من أصابعها .. بالاضافة الى خلخال كبير يحلى قدمها اليمنى . وبعد أن أغرقن « جين » فى العطور .. بدت هى فى النهاية أشبه بأميرات الحريم .

قال لها « ابن ناستوش » من عرشــه الذى يتكون من مائتى وسادة : أهلا بك أيتها الفتاة الشاحبة القادمة من السماء .

ان «جين» وجدت أمامها اثنين من الأفريقيين ، ضخمى الجسم ، يحملان مروحة من سعف النخيل ، وينبعث منها الهواء الرطب على الحاكم .. بينما تقوم فتاة عربية بتدليك قدميه . لقد صــفق هو بيديه ــ فانصرفت الفتاة من الغــرفة . بعدها أمر زعيم القبيلة « جين » بالجلوس .. واضعا لها بعض الوسائد الى جانبه . ان « جين » تقدمت ، ورتبت الوسائد بيديها .. ثم جلست عليها .

عاد « ابن ناستوش » يصفق بيديه من جديد .. فخرجت اثنتان من فتيات الحريم من خلال ستارة .. وبدأتا ترقصان على ايقاع موسيقى تنبعث من مكان ما خلف ستارة أخرى . ان الفتاتين تقومان فى رقصــهما بالدوران والالتفاف أمام زعيم القبيلة وأســيرته ..

وايديهما فوق رأسيهما و « صاجات » نحاسية صغيرة تدق فى أيديهما على ايقاع الموسيقى المتنافرة .

لقد كان هذا كله شيئا ممتعا بالنسبة لـ « جين » . انها زارت مرة كباريه « زارا » الليلى فى « بوسطون » .. ولكن اصالة راقصتى الحريم تفوق كثيرا راقصات البطن فى الكباريه الليلى . انها — حتى — وجدت نفسها تصفق بيديها للموسيقى . ولقد بدا السرور على زعيم القبيلة .. كانعكاس لسرور « جين » .. وبدأ يصفق هو الآخر .

وعندما انتهى الرقص ، أمر « ابن ناستوش » بتقديم العشاء .. وبدأت « جين » تراقب هذه العملية باهتمام .. بينما العبيد يحضرون الأطباق المليئة بالطعام . ان « جين » نظرت الى ما بدا أنه الطبق الأول ، وهو أقرب الى الشوربة .. ولكنها رأت فى الطبق عينين تحملقان فيها . عينين مستديرتين وبيضاويتين تماما .. مما جعلها تهمهم متسائلة : ما هذا ؟

رد عليها زعيم القبيلة : انها شوربة الشاة . لا تأكلى عين الشاة الا بعد أن تستمتعى بالحساء ..

لقد أصيبت « جين » بالغثيان .. ودفعت بالقدح بعيدا ، قائلة فى احتجاج : أنا لا أستطيع أن آكل عين أحد .

قال « ابن ناستوش » : هذا غريب جدا . انه شىء مكتوب أن عين الشاة تأتى بالوحى الداخلى لمن يأكل العين . مع ذلك لا يهم .. فربما تفضلين الخصى .

— اننى أريد مجرد هامبيرجر ..

— ما هذا الهامبيرجر ؟

ـــ لا عليك .. انه شيء مكتوب أن الهامبيرجر يناسب أكثر معدة المضيفة ! .

لقد تم احضار المزيد من الطعام .. وتذوقت « جــين » معظم الأصناف ، ولكنها لم تأكل كثيرا . وحينما انتهى العشاء ، خرج كل شخص من الحجــرة . تاركين « جــين » و « ابن ناستوش » بمفردهما . ان الزعيم تجشأ عدة مرات .. ماسحا الدهن فى لحيته بظهر يده . ومركزا عينيه السوداوين على « جين » .

أخيرا قال لها : لقد حان الوقت الآن ــ باعتبارك أحدث زوجاتيــ لكى تؤدى واجباتك لابن ناستوش . اخلعى ملابسك ، من فضلك .

قالت « جين » : اننى أريد ان أتحدث اليك فى هذا الموضوع . اننى أحب الأكل معك ، ولقد كان عرض الرقص عظيما .. ولكننى فى الواقع لا أحس بأن مزاجى الآن هو مزاج حب . هل تفهم ؟ .

أجاب الرئيس بالزمجرة . وعندما صفق بيديه .. ظهرت فتاتان من الحريم ، وجاءت الى قدمى « جين » . ان « ابن ناستوش » غمغم بأمر ما .. فبدأت الفتاتان فورا فى خلع ملابس « جين » .. وعندما عارضت هى .. صفق الرئيس بيديه مرة أخرى .. فعاد الرجلان الافريقيان الى الظهور .. وأمسكا بذراعى « جين » .. بينما الفتاتان تقومان بخلع ملابسهما . أن « ابن ناستوش » همهم فى صوت خفيض بغناء عربى قديم .. بينما هذه العملية تجــرى أمامه بسرعة .

بدأ الكابتن « سترلنج » التقــدم نحو المعســكر فى الســاعة التاسعة . ان انتظاره فوق قمة التل الرملى أدى الى أصابته بمـــا يقرب من خمسمائة لدغة برغوث . ان لهفته كانت لا تحتمل ..

ومع ذلك فضل أن يتباطأ . وبعد لدغة جديدة قذرة .. همهم قائلا لنفسه : « هؤلاء الأوغاد » ! .

انه استدار حول مقدمة الخيمة الكبرى .. وتوقف بدقائق قليلة لكى يتأكد من انه لا أحد فى المنطقة .. ثم بدأ يزحف فى حرص نحو مؤخرة الخيمة . وعندما وصل اليها .. أخرج سكينا صغيرا من جيبه .. وبدأ يشق ثقبا صغيرا فى الخيمة . انه حملق فى الداخل من خلال الثقب .. ولكنه لم ير سوى شخصين عربيين ينظفـان الأطبـاق .

استدار « سترلنج » زاحفا الى جانب آخر من الخيمة . وأصابته الدهشة من وجود ثقب جاهز فى جدار الخيمة . وعندما حملق من خلال هذا الثقب رأى فتيات الحريم يستحممن . ان « سترلنج » لم يحدث له مطلقا فى اى رحلة من رحلاته أن رأى مثل هذا العدد من النساء العاريات فى مكان واحد . انه ظل يحملق .. بينما اثنتـان من الفتيات دخلتا الى حوض الاستحمام أمامه مباشرة .. وبدأت كل منهما فى غسل الأخرى بالصابون . ولكنه ، حينئذ تذكر «جين» .. المسكينة « جين » .. فتحرك بعيدا الى جانب آخر من الخيمة .

وبينما حملق « سترلنج » للمرة الأخيرة .. التقطت عيناه مشهد رجل آخر رابض فى الظلام .. بعينين ثابتتين على الخيمـة . انه تقدم من هذا الرجل متسائلا بينه وبين نفسه عن السر فى وجود هذا المتشرد . لقد جاء « سترلنج » من خلف الرجل ووجه ضربة عنيفة بمؤخرة المسدس الى رقبة الرجل . لقد تكوم الرجل على الفور منحنيا الى اليمين .. ثم سقط منهـارا على الرمال بلا صوت .. وعندما نظر « سترلنج » الى أسفل .. تعرف على وجهه كواحد من الأخوين البدويين اللذين اختطفا « جـين » . لقد كان هـذا الرجل هو « ياشيد » .

خلال لحظات عاد « سترلنج » يحملق من الثقب داخل خيمة « ابن ناستوش » . وهناك لمح « جين » عارية .. يشدها اثنان من العمالقة السود . ان « ابن ناستوش » خلع ملابسه مستعرضا نفسه أمامها .

لقد شدد « سترلنج » من قبضته على المسدس والبندقية فى يديه .. بينما الرئيس صفق بيديه .. فترك المحاربان الأفريقيان ذراعى « جين » .. واختفيا من مجال رؤية « سترلنج » .

نظر الرئيس الى أسفل .. وقد بدأ عليه الانزعاج عندما نظر الى اسفل بطنه الضخم ولكن تفرسته انتهى بالتدريج الى ابتسامة ، ثم ضحكة . انه صفق بيديه مثل طفل .. وبدأ يرقص داخل الخيمة مثل فيل فى حصة باليه ..

انه توقف عن الرقص أمام جين ، صائحا : اننى رجل مرة أخرى

انك أنت وجسمك الجميل الشاحب القادم من السماء قدجعلتما منى رجلا مرة أخرى،اننى أقرر من الآن والى الأبد أنك سوف تكونين دائما الزوجة رقم واحد لـ « ابن ناستوش » اننى أقرر الآن أن على جميع أفراد قبيلتى أن يركعوا أمامك . اننى أقرر أن ثروتى ايضا هى ثروتك التى تشتركين معى فيها . اننى أقرر هذه الأشياء .. وهى التى ستصبح أمرا نافذا من الآن فصاعدا .

ثم تقدم الرئيس من « جين » .. باسطا ذراعيه فى علامة حب .

ان « سترلنج » مزق الخيمة حتى الأرض ، وقفز منها الى الداخل صائحا : أيها المتوحش الفاسق غير المتحضر .

صاحت جين : كلارنس .. !

رد عليها سترلنج : جين !

لقد اهتز جسم « ابن ناستوش » من الغضب والغيظ .. وصاح فورا على حراسه .

قال « سترلنج » : تعالى يا جين .. اخطفى ملابسك وتعالى معى ..

لقد اختطفت جين ثوبها الحريرى الذى كانت ترتديه فى وقت مبكر من هذه الليلة ..

وأمسكت بيد « سترلنج » .. وذهبت معه عبر المكان الذى دخل منه . وبينما الاثنان يخرجان .. كان « ياشيد » قد نهض من الأرض ان « سترلنج » لكمه فى انفه .. مما جعله ينبطح على الأرض فوق الرمـــال .

قال « سترلنج » بسرعة : تعالى يا جين .. ليست لدينا لحظة نضيعها .

انها سألته : ألا أستطيع أن أرتدى ملابسى أولا ؟

ـــ لا ، بالطبع لا . ولكن .. نعم ،معك الحق .. أرتدى ملابسك .

خلال لحظات كانت « جين » . قد ارتدت ملابسها .. وأسرع الاثنان الى الجرى هاربين .. بينما يطاردهما عشرون من البدو .

ان « سترلنج » و « جين » اتجها الى التل الرملى .. زاحفين أحيانا .. وغائصين فى الرمل أحيانا .. وعندما نظرا خلفهما .. شاهدا البدو قادمين بسرعة نحو التل .. بسيوف طويلة جعلها ضوء القمر لامعة فى أيديهم ..

ان « سترلنج » استحثها قائلا : اسرعى يا « جين » .. ثم بدأ الاثنان يهبطان الجانب الآخر من التل الرملى . انهما وجدا طيار

شركة البترول نائما على جناح الطائرة .. ولكن « سترلنج » اتجه الى محرك الطائرة .. معيدا اليه الجزء المنزوع منه .. وصائحا فى رفيقه : استيقظ أيها الغبى !

توسلت « جين » الى « سترلنج » أن يسرع .. مما جعله يقفز الى جانبها داخل الطائرة ، مسلما مفاتيح الطائرة الى الطيار . ان الحياة بدأت تدب فى صوت الطائرة .. وبدأت الطائرة تتحرك فوق الرمال .. مستجمعة سرعتها .. بادئة فى التحليق الى أعلى وسط السيوف حولها .. بينما البدو يصيحون ويشتمون ويلعنون .

ان « سترلنج » أشعل سيجارة قائلا : مهمة صعبة . أليس كذلك؟

ردت « جين » : نعم .. طبعا .

— اننى متأكد أنك لم تأخذى وجود هؤلاء المتوحشين فى اعتبارك عندما وقعت عقد العمل كمضيفة .

— لا طبعا .. يا كلارنس .

— جين ؟

— نعم ؟

— هل هو انتهكك بأى شكل ؟

— الرئيس ؟

— نعم .

— لا . فى الواقع ، أنا أشعر بنوع من الأسف بالنسبة له .

— لا تتحدثى بهذه الطريقة .. انه متوحش وبربرى .

— أعرف .. أعرف .. ولكننى مسرورة لاننى ساعدته بشكل ما .

ـ هل ستستمرين في العمل كمضيفة ، يا جين ؟

ـ لا . لا أعتقد ذلك . أن لدى عرضا بعمل آخر في نيويورك .. وأعتقد أننى سوف أحصـــل عليه بمجرد عودتى .. وربما أقابل انسانا أتزوجه .

ـ جين ؟

ـ نعم ؟

ـ هل تأخذينى فى اعتبارك ؟

ـ كمـــاذا ؟

ـ كزوج .

ـ لا أستطيع يا كلارنس . أننى لا أستطيع مطلقا تحمل فكرة أنك تطير هنا فى الصحراء .. مع وجود كل هذه الأخطار ..

ـ أننى لن أطير بعد الآن يا جين . فى الواقع ، ان لدى أخا يعمل فى لندن .. وهو يلح علىمنذوقت طويل لكى أعمل معه . بهـــذا أعتقد أننا سوف ننجح معا ..

ـ أننى أعشق المحاولة يا كلارنس ..

ـ عظيم .. عظيم ..

بعدها بسنة .. قامت قافلة من البدو بمهاجمة معسكر « ابن ناستوش » .. وذبحت الجميع .. بما فى ذلك الزعيم وزوجاته .

ان القصة تم تناقلها عبر الصـــحراء .. بحيث أنه عنـــدما تم العثور على جثمان القتلى .. تبين أن « ابن ناستوش » عثر على جثمانه متشبثا بزى ممزق مهلهل متسخ لمضيفة جوية .
ولقد سئل ابنـــه « شـالوم » .. الذى كان الوحيد بين أفراد

القبيلة الذى نجا من الموت بسبب اشتغاله مع شركة « آى. بى. ام » فى بيروت .. لكى يفسر المسألة .

انه رد قائلا : « انه شىء مكتوب .. فلقد حدث مرة أن جاء من السماء طير كبير فضى اللون .. وترك فى الصحراء سيدة جميلة شاحبة . انها كانت ترتدى زى السماء .. وادت لأبى خدمة جليلة .. بالطبع هذه كلها اسطورة صحراوية .. وكلنا نعرف أن مثل هذه الأشياء لا تحدث . ولكن أبى كان عاشقا للأساطير . فى الواقع .. انه كان عاشقا بكل معنى . عفوا .. لو سمحتم .. فلابد أن اعود الى عملى » .

الباب الثانى

من يونيو إلى أكتوبر
ماذا جرى .. ولماذا جرى .. ؟

◇ بقلم : محمود عوض

*

كانت هى الحرب الأولى .. !

ان التاريخ يقول لنا ان حرب أكتوبر كانت هى الحرب الرابعة بين العرب واسرائيل . ولكن اعادة قراءة التاريخ تقول لنا انها الحرب الأولى .. أو — على الأقل — هى المرة الأولى التى ندخل فيها الحــرب بعقلية المحاربين ، وسـياسة المحاربين ، وجدية المحاربين . ان كل ما حدث بعد ذلك كان نتيجة فرعية لتلك الصفة الرئيسية التى حكمت تصرفاتنا كلها قبيل وأثناء حرب أكتوبر . صفة : الجدية .

انها الحرب التى هددت شهر العسل بين أمريكا والاتحــاد السوفيتى .. بالتحول الى مواجهة مباشرة ، عندما أعلنت أمريكا حالة الطوارىء فى كل قواعدها العسكرية حول العالم .

وهى الحرب التى جعلت أوربا تنشق عن أمريكا .. وجعلت وزير الخارجية الأمريكى يقول علنا أن سلوك الحلفاء الأوروبيين « .. يثير الاشمئزاز » .

وهى الحرب التى جعلت أمريكا مهددة بشتاء طويل مظلم .. وأوربا ترتعش من البرد .. واليابان تصاب بالتهاب رئوى .

وهى الحرب التى جعلت افريقيا تدير ظهرها فجأة لاسرائيل .. دولة بعد أخرى .. فى تتابع منتظم كدقات الساعة .

وهى الحرب التى غيرت نظريات عسكرية مستقرة .. وألغت أهمية أسلحة عسكرية ثابتة .. وهزت عقائد عسكرية راسخة .

وهى الحرب التى أرغمت اسرائيل على أن تريق ماء وجهها .. وتستغيث بأمريكا طالبة اسعافات عسكرية سريعة تصل مباشرة الى ميدان القتـــال ..

وهى الحرب التى جعلت وزير خارجية اسرائيل ينعى فى الأمم المتحـــدة اصابة اسرائيل بـ « خسائر مرعبة » .. ووزير الدفاع الاسرائيلى يتحدث فى الكنيست عن « أخطاء فادحة فى التقدير » .. ورئيسة الوزراء الاسرائيلية تتحدث عن وجود « خطأ مميت » .. ورئيس اسرائيل يعلن فى الراديو : « ان اسرائيل كانت تعيش فيما بين سنتى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ فى نشوة لم تكن الظروف تبررها .. بل كانت تعيش فى عالم خيالى لا صلة له بالواقع » .

وهى الحرب التى كلفت اسرائيل ثلاثة آلاف مليون دولار .. وقتلى بلغوا فى اليوم الثالث للقتال ضعف ضحايا أمريكا فى حرب فيتنام .. وبلغت فى الحرب كلها ثلاثة أضعاف ضحايا أمريكا فى الحرب العالمية الأولى .

وهى الحرب التى أرغمت العالم على اعادة طرح الأســئلة التى كان قد حدد لها اجابات ثابتة منذ وقت طويل مضى . اجابات بدت كالأقوال المأثورة من فرط التسليم بها وانعدام الجدل حولها .

من تلك الأقوال المأثورة مثـــلا : أن العــرب هم أناس غير محاربين . ان أقوالهم يجب ألا تؤخـــذ بجـــدية .. وعقولهـــم تحشوها أمجاد الماضى .. وأحلامهم يحققونها فى أبيات الشعر .. وقياداتهم مصابة بجنون العظمة .. وكفاءتهم تحددها تجربة حرب الأيام الستة .

ومن تلك الأقوال المأثورة ايضا اسطورة السوبرمان الاسرائيلى : ضابط المخابرات الذى يستطيع أن يشم بأنفه اية خطـــة عربية

بعد وضعها بدقائق .. والطيار الذى لم يخسر أبدا معركة مع العرب .. وجندى المشاة الذى يستطيع أن يستولى على مدينة عربية كاملة ، بمجرد أن يتلقى أمرا بذلك .

ومن تلك الأقوال المأثورة أيضا : أن الجيش الاسرائيلى لا يقهر . انها أسطورة استقرت وتدعمت الى الدرجة التى جعلت محطات التليفزيون الأوربية تذيع قبل حرب أكتوبر بأسابيع قليلة تصريحات للجنرال المتقاعد « اريك شارون » القائد السابق للجبهة الجنوبية فى سيناء يقول فيه : «ان جيش اسرائيل هو قوة عسكرية عظمى .. أن كل الجيوش الأوربية هى أضعف كثيرا لو قورنت بجيشنا . اننا نستطيع أن نستولى على المنطقة من الخرطوم الى بغداد فى أسبوع واحد » .

بعدها بأسابيع قليلة ، بعد حرب أكتوبر ، كان رئيس أركان حرب الجيش الاسرائيلى يعلن : ان المفاجأة الكبرى فى هذه الحرب كانت هى الجندى المصرى .

وفيما بين هاتين الأسطورتين — الأسطورة التى نشأت كذبا .. والحقيقة التى أصبحت أسطورة — يكمن المفتاح الرئيسى لفهم حرب أكتوبر كلها .

* * *

فعلى الجانب الاسرائيلى ، كان بروز الجيش كقوة مهيبة مسيطرة .. هو الأسمنت الروحى الذى حقق للمجتمع الاسرائيلى تماسكه ، واعطاه قوته الأساسية .. طوال ربع القرن الأخير . ان النمو الدرامى فى دور هذا الجيش وتحوله الى أسطورة حول العالم .. لم يكن ممكنا الا بعد حرب الأيام الستة المشهورة . بعدها فقط

أصبح هناك أساس تنطلق منه الأسطورة .. وقاعدة تنمو منها الحكايات بعد الحكايات .. لكى تذاع وتنشر حول العالم .

مع ذلك ، فان النقطة المثيرة هنا .. هى تأثير هذا الجيش داخل المجتمع الاسرائيلى نفسه .

فقبل حرب أكتوبر بتسعة أشهر فقط — عرضت فى اسرائيل مسرحية استعراضية بعنوان : « المسيح .. كما يراه أصدقاؤه ». لم يكن فى المسرحية مسيح .. ولا أصدقاء للمسيح .. فاسم المسيح لم يرد الا فى العنوان .. مع ذلك فأن الرقيب الحكومى الاسرائيلى أوقف عرض المسرحية بعد أسبوع واحد فقط ، وقرر فرض الحظر الدائم على عرضها .

وعلى الفور عارض مؤلف المسرحية — الكاتب المسرحى الاسرائيلى « عاموس كينان » — فى هذا القرار . انه أعلن ان « .. الهدف الحقيقى لهذه المسرحية الاستعراضية هو شرح الحياة فى اسرائيل الحديثة ، وخصوصا النزعة العسكرية الشاملة والمسيطرة فى المجتمع الاسرائيلى .. وهذا هو السبب الحقيقى الذى تم من أجله منع عرض المسرحية .. لقد أصبح الجيش الاسرائيلى بديلا عن المثل اليهودية — ولم يعد اليهود يقسمون بمثقفيهم .. ولكن بجيشهم وجنودهم » .

وفعلا .. كانت أسطورة الجيش الذى لا يقهر .. قد بدأت تتحول الى حقيقة ثابتة داخل المجتمع الاسرائيلى .. بحيث أصبح الجيش الاسرائيلى نموذجا للانجاز الحاسم والكفاءة الخارقة . وهكذا نجد أن أحد مشاهد تلك المسرحية يفسر هذا المفهوم ، حيث تقول ربة بيت فى المسرحية : « اننى لاحظت أمس أن خادمتى لا تنظف المائدة جيدا .. لهذا استدعيت الجيش . لقد أصبح

الجيش هو الذى يحتفظ فى منزلى بالنظام والكفاءة . انه لشىء مبهج حقا أن ترى كيف يقوم الجيش بانجاز كل شىء . وعندما تبينت أن زوجى هو أيضا غير كفء .. فاننى استدعيت الجيش .... الآن أصبحت المعابد هى الأخرى أكثر كفاءة .. والبحر الميت أكثر كفاءة .. وحتى السعادة أصبحت أكثر كفاءة . ولكن ما يسرنى الآن أكثر من أى شىء حقا .. هو أن الجيش قد أصبح هو الله فى النهاية . الآن أصبح الله أكثر كفاءة » !

ان ما قالته ربة البيت فى تلك المسرحية الاسرائيلية ، لم يكن سوى تعبير عن الشعور السائد فى المجتمع الاسرائيلى نحو الجيش ، والايمان المطلق بكفاءته . وعندما منعت تلك المسرحية ، فلقد كان السبب هو أن المؤلف قد صاغ تلك المشاعر فى قالب حاد ومثير للسخرية من الجيش نفسه .. وهذا هو الأمر الذى لم يجد المؤلف أحدا يسمح له به .

ان مؤلف المسرحية عارض قرار المنع أمام أعلى سلطة قضائية فى اسرائيل .. وخسر طبعا . وفى ذلك الوقت لم يكن القرار مفاجئا لأحد ممن يراقبون سير الأحداث فى اسرائيل من الداخل . لأن اسرائيل أصبحت ترى نفسها باعتبارها « اسبارطة » الجديدة فى الشرق الأوسط .. والجيش فيها أصبح فوق النقد أو السخرية .. والايمان بالجيش أصبح فوق الشك أو المراجعة . وعبادة التفوق العسكرى أصبحت أهم من الدين فى اسرائيل ، و .. فى بعض الأحيان .. هى الدين نفسه .

ربما من أجل هذا ابتكر « دافيد اليعازر » رئيس أركان حرب الجيش الاسرائيلى تقليدا جديدا بدأ يطبقه فى سلاح المدرعات بالجيش الاسرائيلى قبل حرب اكتوبر بفترة وجيزة : ان على كل ضابط دبابات اسرائيلى أن يبدأ عمله بالذهاب الى صحراء النقب ،

والصعود الى القلعة القديمة فى أعلى الجبل الذى جرت فيه آخر حرب بين اليهود والرومان منذ ١٩٠٠ سنة . وهناك ، فى حفل يجرى ليلا على ضوء المشاعل ، يتلو الضابط الجديد قسما بالاخلاص للدولة اليهودية والجيش اليهودى .. الذى لا يقهر .

مرة أخرى ، ربما كان هذا الشعور بمناعة الجيش المطلقة ، والتفوق الاسرائيلى المطلق ، هو الذى دفع « دافيد اليعازر » نفسه الى أن يخرج للصحفيين فى مساء اليوم الأول لحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، ويعلن لهم ــ بتأكد رجل اعتاد على الانتصارات السريعة ــ قائلا : « أيها الرفاق .. لقد بدأنا الآن فى مهمة تدمير الجيش المصرى » !

وعندما مرت الليلة الأولى ، والثانية ، والعاشرة .. دون ان تتم مهمة « تدمير الجيش المصرى » .. بدأ رئيس أركان حرب الجيش الاسرائيلى يتلقى تقارير مختلفة عما توقع . تقارير من طائراته التى واجهت الفشل بعد الفشل ، فى كل محاولة منها للاقتراب من رءوس الجسور المصرية على قناة السويس . انها تقارير مختلفة .. وحقائق مختلفة .. وحرب مختلفة .

لقد شرح « دافيد اليعازر » نفسه ما حدث بعد ذلك بقوله : « ان لكل حرب مفاجآتها . وهناك أشياء لابد أن نتعلمها وأن نصحح معلوماتنا فيها . ان أكبر هذه المفاجآت هو أن الجنود المصريين ــ وكذلك السوريين ــ قد أظهروا قدرا من الكفاءة والتضحية بالنفس وتوافر الدافع .. يفوق بكثير ما أظهروه فى الحروب السابقة ».

هذا ما قاله رئيس الأركان الاسرائيلى بعد أن انتهت الحرب . ولكن فى تلك الأيام المبكرة فى الحرب كانت هناك ثقة اسرائيلية مطلقة فى أن الهجوم كله سوف تتم تصفيته خلال ساعات . وفجأة .. انتهى الحديث فى اسرائيل عن حرب قصيرة .. ونهاية

سريعة .. وانتصار حاسم لقد خرج الجنرال « آهارون ياريف » القائد السابق للمخابرات الاسرائيلية .. والذى حل محل « البعازر » المفرط الثقة بنفسه كمتحدث رسمى — خرج ليقول حذرا : « على شعب اسرائيل الا يتوقع انتصارات سهلة أو رشيقة .. انها حرب مختلفة هذه المرة » .

نعم .. كانت حربا مختلفة .

فى هذه المرة تحارب اسرائيل للمرة الرابعة .. ويحارب العرب للمرة الأولى .

فى هذه المرة — هذه الحرب — كان أى شىء أقل من الانتصار الساحق هو .. بالنسبة لاسرائيل .. هزيمة .

وأى شىء اقل من الهزيمة الكاملة هو .. بالنسبة للعرب .. انتصار .

ان العرب لم يهزموا . انهم حاربوا ، وفوق ذلك انتصروا .. لأن الصراع فى ميدان القتال لم يكن فقط صراعا بين سلاح وسلاح أو بين جندى وجندى .. وانما كان الصراع أساسا صراعا بين ارادة وارادة .

لقد كانت تلك أول مرة تتعرض فيها نظرية الأمن الاسرائيلى لخطر جاد وعميق وهادر . أول مرة يتم فيها اختبار المفهوم الاسرائيلى من « العمق الاستراتيجى » . لقد أصيب الاسرائيليون بالفزع عندما وجدوا أن ثقتهم فى المناطق المحتلة كمساحة واسعة من الأراضى تمنع العرب من الهجوم .. كانت خاطئة من البداية . لقد رأوا جيشهم الذى يتباهون به .. يتعرض للمفاجأة ويسقط جنوده قتلى بالمئات ، ويفرون أيضا بالمئات .. فى الأيام المبكرة من الحرب . لقد صعقوا من حجم الهجوم ودقته .. من الدرع الذى

حققه العرب لأنفسهم بالخبرة والسلاح .. من عدد القتلى المخيف الذى سببه الجندى المصرى فى سيناء ، والسورى فى الجولان . لقد رأوا لأول مرة قوة سلاح البترول العربى .. وشاهدوا أصدقاءهم المعتادين فى أوربا وأفريقيا يديرون لهم ظهورهم . لقد أحسوا لأول مرة بالمدى الذى تعتمد عليه اسرائيل على الولايات المتحدة .. وربما تصوروا — ليوم أو يومين — كيف كان حالهم سيصبح .. لو لم يسرع الأمريكيون لنجدتهم بالسلاح والعتاد والخبرة .

ومن رماد الحرب ، اضطر الاسرائيليون الى قراءة تصريحات المتحدث الرسمى لوزارة الخارجية الاسرائيلية ، عندما قال : « لقد انقلب كل شيء .. ان هذه الحرب جعلتنا نكتشف أن دنيانا الواضحة الصغيرة كانت مصنوعة من قشر البيض » . بعدها خرج الماجور جنرال « شامويل جونين » يقول لهم : هذه هى المرة الأولى فى تاريخ حروب اسرائيل .. التى يكون فيها معظم القتلى الذين سقطوا من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٢١ سنة . اننا لم ندرك بعد المعنى الكامل لذلك » .

وأخيرا ، اضطر الاسرائيليون الى سماع الحقيقة الأساسية التى قيلت لهم بمائة شكل مخفف ، آخرها ما عبر عنه الدكتور « آمنون روبنشتاين » عميد كلية الحقوق فى جامعة تل أبيب — والذى كان هو نفسه معبأ فى الاحتياطى أثناء حرب أكتوبر — عندما قال : « ليس هناك شك مطلقا فى اننا كاسرائيليين — قد تعرضنا لصدمة عظمى . لقد خضنا الحرب وسراويلنا مدلاة .. وأعتقد أن هذا الشعور سوف يظل يلازمنا لزمن طويل طويل .. الشعور بهذه الصورة المكسورة للاسرائيلى المتفوق .. وهذه الصورة المهشمة للاسرائيلى الذى لا يقهر » .

* * *

وبصفة عامة فان « .. هناك اغراء فى أن يطلق المرء على الحرب القائمة ــ حرب أكتوبر ــ اسم : الحرب المرآة . ذلك انك اذا أمسكت بمرآة لحرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ ، فان الصورة المعكوسة سوف تكون من نواح كثيرة هى نفس الصورة التى يراها المرء بعينيه فى مسرح الحرب القائمة » .

ان تلك الكلمات ، التى نشرها الكاتب الانجليزى « جافن يونج » فى الأسبوع الثانى لحرب أكتوبر .. كانت هى أفضل تعبير ممكن عن طبيعة الحرب .

ففى سنة ١٩٦٧ قال العرب أن الذى يهزمهم فى ميدان القتال هو أمريكا وليست اسرائيل . وفى هذه المرة قالت جولدا مائير ان الذى هزم اسرائيل هو الاتحاد السوفيتى وليس العرب .

فى سنة ١٩٦٧ كان الاسرائيليون يعرضون فى التليفزيون الأسرى المصريين بأيديهم مرفوعة وأحذيتهم مخلوعة ووجوههم بائسة ، وفى هذه المرة ــ هذه الحرب ــ كان الدور علينا نحن لكى نرى فى التليفزيون طوابير الأسرى الاسرائيليين .. بأيديهم مرفوعة وأحذيتهم مخلوعة ووجوههم بائسة .

فى سنة ١٩٦٧ قال الاسرائيليون انهم وجدوا فى الجولان أن ضباط المدفعية السورية قد لاذوا بالفرار .. تاركين جنودهم مقيدين بالأغلال الى مدافعهم .. وفى هذه المرة كان راديو دمشق هو الذى يعلن نبأ العثور على جثة طيار اسرائيلى مقيد الى مقعده بالأغلال ، فى حطام طائرته الفانتوم .. التى اسقطتها المدفعية السورية ، وذلك « .. حتى لا يستطيع استخدام المظلة » .

باختصار ، باختصار ، باختصار .. هى الحرب المرآة .. فعلا .

ما الذى جعلها كذلك ؟

ماذا جرى ؟ ما الذى حدث ؟ أين التغيير ؟ ما هى الحقـــائق الأساسية التى تغيرت .. ســـواء فى الجانب الاسرائيلى أو فى الجانب العربى ؟

أن أشياء خطيرة لابد أن تكون قد تغيرت فى كلا الجـــانبين .. بحيث أصبح المنتصر مهزوما .. والمهزوم منتصرا ، خلال ست سنوات .. هى فى عمر الأمم ليست زمنا على الأطلاق .

ماذا جرى ؟ ولماذا جرى ؟

هل يمكن أن يكون السبب فيما جرى هو أن الجنـــدى العربى كان جبانا فى ســـنة ١٩٦٧ .. ثم أصـــبح شـــجاعا فجأة بعدها بست سنوات ؟ بالطبع لا .. فالانســـان لا تتغير طبيعته من الأسود للأبيض فجأة فى ست سنوات .

هل يمكن أن يكون السلاح الذى حاربنا به فى ســـنة ١٩٦٧ متخلفا وبدائيـــا ، ثم أصـــبح فجـــأة متقـــدما ومعقدا بعـــدها بست ســـنوات ؟

مرة أخرى نجـــد الاجابة قاطعـــة . بل انه على العكس .. ربما كانت المقارنة بين المستوى الذى كان عليه الميزان العســـكرى فى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ .. فى صالحنا أثناء الحرب الأولى عنه أثنـــاء الحرب الثانية . والأكثر من ذلك .. انه حيث خضنا حربا دفاعية فى سنة ١٩٦٧ بسلاح هجومى .. فان ما حـــدث فى سنة ١٩٧٣ كان هو العكس تماما : معركة هجومية بسلاح دفاعى . وربما كانت حرب أكتوبر هى من الاستثناءات النادرة فى التاريخ .. التى يقـــوم فيها جيش بعبور أصعب حاجز مائى .. فى حماية شبكة صواريخ .. وهى بطبيعتها شبكة دفاعية .

اذن .. هل يمكن أن يكون السبب فيما جرى هو اننـــا كنا فى سنة ١٩٦٧ نحارب اسرائيل وأمريكا .. فأصبحنا فى سنة ١٩٧٣ نحارب اسرائيل بلا أمريكا ؟ أبدا . هنا أيضا نجد ان العكس هو الاقرب الى الصحة . ففى هذه المرة اضطرت أمريكا الى نجــدة اسرائيل بجسر جوى يمدها فورا بأحــدث الأســلحة التى تهبط الى ميدان القتال مباشرة .. وهو الأمر الذى لم يحدث سنة ١٩٦٧ .

هل يمكن أن يكون السبب هو اننا كنا فى سنة ١٩٦٧ شعوبا متخلفة .. فأصبحنا فجأة شعوبا عصرية بعدها بست ســنوات ؟ مستحيل ، فالتخلف والعصرية شيئان لا تحققهمـــا الشــعوب فى ست ســنوات .

اذن : ماذا جرى ؟ ولماذا جرى ؟

ان السؤال ما زال قائما .. والاجابات المحتملة ما زالت متعددة. ولكن ، مهما تعددت الاجابات ، فاننى أرى ان الفــارق الأساسى بين كارثة كبرى حلت بنا فى حرب ١٩٦٧ .. وبين حرب مشرفة خضناها فى سنة ١٩٧٣ .. هو فارق بين ارادة .. وارادة .

ان حرب يونيو سنة ١٩٦٧ ، كانت تصــويرا دراميــا لارادة انهزامية حكمتنا قبل أن نذهب الى ميدان القتـــال . ارادة تريد أن تسجل انتصاراتها فى الأغانى وعلى صفحات الصحف وشاشـــات التليفزيون .

وفى مقابل ذلك .. فان حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، كانت هى الأخرى تصــويرا دراميــا لقيادة شـــغلت نفســها من البــداية بتصحيح كارثة كبرى حلت بنـــا . قيادة لم تكن الحرب بالنسبة لها معركة وهمية يكسبها الأعلى صوتا .. وانما كانت الحرب عندها

شيئا جادا وخطيرا ، وامتحانا يكسبه الأكبر كفاءة والأطول نفسا والأكثر صمتا .

لقد تعرضت السياسة المصرية فى السنتين السابقتين لحرب سنة ١٩٧٣ لحملة تشكيك داخليا وخارجيا .. على نطاق لم يحدث من قبل مطلقا . حملة تراوح مداها بين اتهام هذه القيادة بالتراخى والتردد وعدم الحسم .. الى اتهامها بعدم الوطنية .. بل وببيع القضية فى بعض الأحيان . ومع ذلك ، فان هذه القيادة لم ترد على تلك الاتهامات بتوجيه اتهامات مماثلة لخصومها فى الخارج أو الداخل . لقد تحملت وتحملت .. بعقل مفتوح وصدر واسع وحكمة ضرورية .. لأنها تفهم أن المخالفين لها فى الرأى ليسوا بالضرورة أعداء لها .. وانما هم أيضا مواطنون من حقهم التفكير لبلدهم والانشغال بنكسته والاجتهاد فى تحليل مستقبله والاختلاف أحيانا معه .. وانه فى ساعة الجد سوف يكون الجميع جنودا مخلصين يفتدون تراب بلدهم بأرواحهم .

وشىء آخر : فى سنة ١٩٦٧ كانت اسرائيل تواجه أمامها مجرد قبيلة فى أحسن الأحوال .. أو شلة من أبناء الدفعة الواحدة فى أسوأ الأحوال . وفى سنة ١٩٧٣ ، واجهت اسرائيل أمة بأكملها . لقد كانت هذه الأمة موجودة هى نفسها فى سنة ١٩٦٧ .. ومع ذلك فان الذى استخرج منها ارادتها الحقيقية وطاقاتها الكاملة .. هو قيادة سنة ١٩٧٣ .

وشىء ثالث : ان القيادة التى اتخذت قرار الحرب فى هذه المرة .. وضعت يدها على مصر الحقيقية .. وليست مصر المزيفة . مصر التى تقود العالم العربى .. والشعب العربى .. بحكم المصلحة .. وبحكم الاقتناع . مصر التى لا تواجه القرن

العشرين بمنطق القرن العاشر .. وانما مصر التى قدمت استقالتها من القرن العاشر منذ وقت طويل مضى .. ودخلت القرن العشرين متخضرة ومحاربة . مصر التى تصحح أخطاءها بالرصاص والدم .. وليست مصر التى تريد أن تدارى على عوراتها بالشعارات والدعاية .

انه الوجه الحقيقى لمصر .. ذلك الذى عرفته رمال سيناء فى تلك الأيام المضيئة من أكتوبر . الوجه الحقيقى الذى يتقدم فيه القائد صفوف جنوده .. بمزايا أقل ، واعباء أكبر .

انه الوجه الحقيقى ، الذى يعطى الأولوية للكفاءة قبل الولاء .. بعد أن عانت مصر طويلا من اعطاء الأولوية للولاء على حساب الكفاءة .

الوجه الحقيقى الذى لا تطمسه مراكز القوى ..

الوجه الحقيقى الذى لا يبحث عن الأمن .. وانما يريد الانتصار. وجه وسيلته الاقناع وسلاحه الثقة . ويريد لكل الآراء أن تتفتح وتتصارع . لا يدوس فوق القانون .. وانما يكون أول الخاضعين له . لا يدخل الحرب وخلفه رصيد مفتوح من الكبت .. وانما يدخلها بقلب مفتوح للمتمردين والمختلفين والمجتهدين . لا يرتدى أثواب المهرجين المسرحيين .. وانما يحمل سلاح المقاتل المؤمن . لا يبحث عن نفوذ .. وانما يريد اعادة الثقة بشعبه ولشعبه . لا يريد تدعيم الأمر الواقع .. وانما هدفه تصحيح الأمر الواقع . لا يريد أن يكون عظيما خصما من عظمة أمته ، وانما يريد أن تكون عظمة شعبه مضافة الى رصيده . لا يرى الحرب فرصة لكسب وهمى .. وانما يراها امتحانا لصلابة أمة .. لا يبدأ القتال بمجرد منشورات غنائية .. وانما يدخلها بقنابل ومدافع حقيقية . لا يصرخ بالحرب وهو يخشاها ..

وانما يخوضها وهو مستعد لها . لا يرى الحرب كمجرد نزوة تبدأ صباحا وتنتهى ظهرا .. وانما يراها استعدادا وعلما وتخصصا وتخطيطا ورصاصا ينطلق فى لحظة الامتحان . لا يطرح الحرب كمجرد شعار يضاف الى غيره من الشعارات .. وانما يراها كقدر يحدد مستقبل العالم العربى كله لسنوات طويلة قادمة .

وذلك هو الوجه الحقيقى لمصر .. وللأمة العربية .

ومن المفارقات هنا أن نقارن بين حالة اسرائيل وحالتنا قبل حرب سنة ١٩٦٧ ، ومرآتها المعكوسة فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

ان الذى يقرأ الصورة الاسرائيلية والصورة العربية عشية حرب ١٩٦٧ ، يخرج بنتيجة ظاهرية لا مفر منها : ان فى اسرائيل مجتمع منقسم على نفسه .. وحكومة مترددة .. وأحزاب متصارعة وقيادة تتحدث عن السلام كثيرا ، وعن الحرب نادرا .

ومع ذلك .. حققت اسرائيل انتصارها المدوى فى سنة ١٩٦٧ .

وفى مقابل ذلك كانت قراءة الصورة المصرية فى تلك الفترة توحى بأن كل شىء على ما يرام : شعب متحد .. وصحافة لا توحى بأى خلاف فى الرأى ... ووحدة وطنية لا مثيل لها .. وانضباط مطلق توحى به التحركات الجارية .. وحماس فائر تعبر عنه المنشورات الغنائية .. وأمن مطلق بفضل المخابرات التى لا تفوتها شاردة ولا واردة .. وخطط موضوعة وقرارات محسوبة بدقة تثير الانبهار .. وثقة مفرطة تسمح لنا بأن نصدر « فرمانات » نعاقب بها العالم كله لو لزم الأمر .

كانت تلك هى الصورة الظاهرية .

ومع ذلك فهم الذين انتصروا .. ونحن الذين هزمنا .

لقد حدث ذلك لأنه ـــ فى كلا الجانبين ـــ كانت هناك حقائق أخرى أساسية.لا تكتشفها النظرة السطحية للأشـــياء. انهم رتبـــوا أمورهم وحددوا علاقاتهم وضمنوا حساباتهم وراجعوا خططهم فى هدوء وصمت قبل الحرب بوقت طويل .

اما فى جانبنا نحن ، فقد كان هناك مجتمع خفى آخر ، غير المجتمع الظاهر . ففى المجتمع العلنى ، الذى يبدو على ورق الصـــحف ، كل شىء على ما يرام . وفى المجتمع الحقيقى .. الذى كنا نداري عليه من الأضواء ومن العلانية .. لم يكن أى شىء على ما يرام . أى شىء أساسى على الأقل . لا خطة ولا هدف ولا استراتيجيـــة ولا اجتهاد ولا وجهات نظر ولا تناطح بين وجهات النظر ولا تفكير فى احتمالات الموقف . لماذا التفكير ؟ لماذا تفكر أنت أو أفكر أنا أو يفكر زميلك فى الشقة المجاورة ؟ ان الذى يجرى هو معركة مصير .. والمواطن من حقه أن يفكر فى كل شىء .. الا معارك المصير ، ان الاختبار الأكبر لكل مواطن هـــو مدى قدرته على اثبـــات طاعته العمياء .. وكفاءته فى التصفيق بصـــوت أعلى ممـــا يسمعه فى الراديو ويقرؤه فى الصحف . ان حكمته تقـــاس بمدى أيمانه بأن السياسة والحرب هما شيئان فوق حـــدود ادراكه ، أو ادراك المؤسسات التى يفترض فيها أن تنوب عنه .

ولم يكن أحد يريد ذلك .. سوى اسرائيل . انها اسرائيل فقط ، هى التى لم تكن تعترض على ذلك . انها أوصلتنا الى الحالة التى كانت تريدها هى لنا .. بالضبط .

ان القائد الاسرائيلى « اريك شارون » كان هـــو الذى صرخ معترضا خلال الأسبوع الأول من حـــرب أكتـــوبر ســـنة ١٩٧٣ ، صائحا فى زملائه داخل القيادة الاسرائيلية : لقد جعلنا المصريون نرقص على نغماتهم .

نعم . هذا ما حدث فى سنة ١٩٧٣ . ولكن ، قبلها بست سنوات كان ما حدث هو العكس تماما . لقد كنا نحن الذين نرقص على نغماتهم .. حتى من قبل نشوب حرب يونيو نفسها بزمن طويل .

ان الجنرال النرويجى « أودبول » عمل فى منطقتنا سبع سنوات كرئيس لهيئة الرقابة الدولية على الهدنة فى منطقة الشرق الأوسط . وعندما أصدر مؤخرا كتابا بعنوان « أثنـــاء الخـــدمة فى الشرق الأوسط » .. فانه طرح فيه أمام القارىء الغربى ذكرياته عن تلك الفترة . وفى استعادته للأحداث التى أدت الى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ يقول الجنرال « أودبول » فى كتابه : « اننى شعرت من وقت لآخر بأن المخابرات الاسرائيلية تلعب على الخيوط العربية التى بين يديها .. كما لو كانت تلعب على بيانو أحسن ضبط أوتاره .. لكى تستخرج ما هى بحاجة اليه من نغمات وردود أفعـــال تخـــدم بها أهدافها السياسية والعسكرية البعيدة » .

ولقد كان هذا هو بالضبط ما حدث فى تلك الأيام الحاسمة التى أدت الى حرب يونيو سنة ١٩٦٧ . ان شيئا لم يفلح فى تنبيهنـــا الى الاستدارة القادمة فى الأحداث ، ولا فى جعلنا ننتبه الى الجدية التى تسعى بها اسرائيل الى تحقيق أطماعها التوسعية .

ان من المؤسف هنا أنه برغم مرور سنوات على نهاية تلك الحرب ــ التى أعطيناها اسما مطاطا هو « النكسة » ــ فان جزءا كبيرا من ألغازها لم يتم كشفه بعد ، وعددا كبيرا من علامات الاستفهام الكبرى المتعلقة بها لم يحصل على اجاباته الكاملة .

مثلا : لماذا صدرت قبل الحرب فجأة حركة تنقلات لبعض القيادات الكبيرة فى القوات الأمامية .. واضعة فى الجبهة من لا علاقة لهم بالحرب .. ولا بسيناء ؟

ومثلا : لماذا لم يكترث أحد بالهجوم البرى الذى شنته اسرائيل فى صباح الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ ، وقامت فيه اسرائيل باحتلال موقع متقدم داخل حدودنا . وذلك قبل أن يبدأ الهجوم الجوى المعروف بتسعين دقيقة كاملة ؟

ومثلا : لماذا تغيرت فجأة ، قبل الحرب بساعات قليلة ، شفرة الاتصال بين القيادة هنا والقيادة فى الأردن .. بحيث أن برقية التحذير التى أرسلها الشهيد عبد المنعم رياض من الأردن ، والخاصة بالهجوم الجوى الوشيك ، لم يتم حل رموزها ؟

ومثلا .. ومثلا .. ومثلا .. علامات استفهام ضخمة ومحيرة ، ما زالت حتى الآن بعيدة عن الفحص والتحليل والدراسة الموضوعية العلنية . وحتى اذا كان الأمر يتعلق بجراح لا نريد أن ننبشها ، أو بمرارة كنا نحس بها ، أو بحساسية مفرطة عانينا منها .. فان كل هذا قد انتهى فى صباح السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، ان حرب أكتوبر أزالت عقدة حرب الأيام الستة من عقولنا .. وغسلت مرارة السنوات الست من نفوسنا — ولكن ، للتاريخ وللعبرة .. فان الأمر أصبح يستدعى الآن أن نعيد فتح ملفات الحرب كاملة .. لكى نحدد بالضبط ماذا جرى .. ولماذا جرى .

ان مثل تلك الدراسة الدقيقة والمعلنة .. سوف تكون هى الدليل الحاسم على أن ما حدث فى سنة ١٩٦٧ كان جملة اعتراضية فى تاريخنا العسكرى .. واختلالا طارئا فى حياتنا العامة .. ودرسا لن يتكرر فى تفكيرنا السياسى . ان جزءا من تلك الدراسة لابد أن يمتد الى تحليل جذور ما حدث : متى بالضبط بدأ الخلل ؟ متى بدأت الحرية تتراجع لحساب الأمن ؟ متى بدأت تتضخم سلطة الجهاز التنفيذى على حساب حق الرأى العام فى الرقابة ؟ ومتى بدأت

تتضخم سلطة الجزء الخفى من الجهاز التنفيذى على حساب الجزء المعلن ؟ متى بدأ الانحراف وكيف انعدمت المراجعة ؟

كلها أسئلة لابد أن تكون جزءا من تلك الدراسة الناقصة .. حتى لو كان الذين سيخرجون بتلك الدراسة .. سوف يضطرون لكتابتها وهم يضغطون بأيديهم على أنوفهم .. هربا من الرائحة الكريهة التى أشاعتها النكسة فى المجتمع كله . نعم ، كان هذا هو ما حدث ، خصوصا بيننا ، نحن الجيل الجديد الذى كان على أنور السادات أن يقنعه بأن تصحيح كل ذلك ما زال أمرا ممكنا .

* * *

ان الحجم الحقيقى لحرب أكتوبر لا يمكن ادراكه منقطعا عن النقطة التى بدأ منها الاستعداد للحرب .. ولا بمجرد تحديد الوقائع التى تغيرت فى ميدان القتال . اننا اذا نظرنا الى الحرب ــ كما يجب أن نفعل ــ ليس فقط كصدام بالأسلحة .. ولكن أيضا على أساس النتائج السياسية التى أدت اليها المعارك .. و ــ الأهم من ذلك ــ على ضوء الخلفية التى صدر منها قرار الحرب نفسه .. فسوف ندرك كم كانت منخفضة ، تلك النقطة التى بدأ منها الاستعداد للحرب .

فمن الناحية الداخلية وجد أنور السادات نفسه أمام علاقات مستقرة فى القمة .. وانماط سلوكية فى المجتمع .. يصدق عليها بالضبط البيان الذى أذاعه أنور السادات نفسه فى صباح يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ : مراكز سلطة .. وأصحاب نفوذ .. وأنماط مرضية من الرشوة والفساد والتواكل والقدرية .. ومراكز قيادية حصل عليها أصحابها لمجرد أن صدفة عابرة قبل ثلاثين سنة

شاعت لهم أن يتخرجوا فى دفعة واحدة مع أحد آخـر . لقد وجد نفسه أمام مراكز قوى وعلاقات سياسية تدوس على الشريعـة وتهـدد الآدمية .. وشعارات فقدت منذ وقت طويل مضى كل جدية المضمون أو مدلول الألفاظ .

وكنا نحن ، شباب هذا المجتمع ، حائرين وممزقين ومتفسخين ومتشككين . ما الذى يفعله كل منا .. وقد قضى صباه والسنوات المبكرة من شبابه يتعلم أن القانون شىء مقدس ، والعمل شرف ، والاجتهاد واجب ، وحرية الرأى مكفولة ، وانتماؤنا للعصر قائم ، والعلم مطلوب ، والفرص متكافئة ، والطريق مفتوح ، والتقـدم مضمون . يتعلم أن العدل منتشر ، والثقة متوافرة ، والمستقبل مشرق والجدية شائعة والدولة يقظة ، والانتظار ضرورة ، والصـمت حكمة .. فالأعداء متربصون . يتعلم أن عليه فقط أن يشغل نفسه بكل ما هو فى متناول ادراكه .. وليترك ما بعد ذلك للضمائر اليقظة والعيون الساهرة فى القمة .. فهى وحدها التى تعرف كل شىء .

ثم .. مرة واحدة .. تفاجئنا كارثة كبرى نختار لها اسما مطاطا هو « النكسة » . مرة واحدة ينهار البقاء الكبير وتسقط الشعارات الرنانة ويبدو العجز المروع عن تحقيق الحد الأدنى من واجبـات الدولة العصرية .

ما الذى يمكن أن يفعله شاب اهتزت فى مخيلته فجـأة كل الصور المثالية للدولة . وذبلت فى أيديه فجأة كل الورود التى اعطيت له .. واختفت من داخله فجأة كل الثقة التى أخذت منـه على بياض .. وانهارت حوله فجأة اية جدية يأخذه العالم بها .. ورخصت أمامه فجأة حياته وحياة الآلاف من أبناء جيله .. بحيث أصبحت المقامرة بتلك الحياة شيئا سهلا وجائزا .

ما الذى يمكن أن يفعله هذا الشاب .. عندما يجد مشقة فى انتظار الأتوبيس على ناصية الشارع ذات صباح بارد ؟ هل يذهب الى عمله .. أم لا يذهب ؟ هل يفكر فى شراء سيارة .. بعد أن قضى سنوات من عمره .. مؤمنا بأن احتياجات المجتمع أكثر أهمية من احتياجات الفرد .. أم يترك لنفسه العنان فيلطخ سمعته .. وهى التى يستمدها من احترامه لنفسه ولمجتمعه ؟ انه فى الحالة الأولى سوف يكون غبيا .. وفى الحالة الثانية سوف يصبح مرتشيا .

واخيرا .. يفكر فى الهجرة .. أو فى شراء السيارة . انه يفكر .. لأنه أصبح متعبا .. ولأنه لم يعد متأكدا من أن نزاهته وأحلامه وثقته تساوى شيئا للآخرين من حوله .. ولأنه يرى غيره ، ممن هم أقل منه نبلا ، يفعلون نفس الشىء .. ولأنه يرى فوقه مغناطيسا يشد من حوله الى أعلى الذين لا رأى لهم ولا فكر فيهم من زملائه .. ولأنه لم يعد واثقا من أن الحقائق القديمة ما زالت محتفظة بأهميتها .. ناهيك عن جمهورها . وسواء ظل هذا الشاب هنا .. أو هاجر من بلده فانه فى الحالين مغترب .. وفى الحالين أصبح يبتعد عن احلام شبابه .. وفى الحالين أصبحت تفصله مسافة متزايدة عن القيم التى ادعى الجميع من قبل أنها أصيلة فى المجتمع . ان المصلحة العامة فقدت احترامها فى داخله .. وبدلا منها أصبح عليه أن يدفن نفسه فى مصلحته الخاصة هو ..

من هذه النقطة بالضبط بدأ أنور السادات يلم ما تبعثر .. ويلحم ما تناثر .. ويعيد للصف شبابه المتفسخ . بدأ وهو لا يملك غير قلب مفتوح وعقل مصمم وكلمات قليلة : تعالوا نبدأ من جديد .. تعالوا نصحح ما حدث .. ان المعركة حتمية ، والانتصار ممكن ،

وحكم القانون هو الضرورة .. والتعبئة الشاملة هى الوسيلة .. والثقة هى الأساس . تعالوا — بالقانون والحرية .. بالعلم والايمان — نزيل الغبار من على الوجه الحقيقى لمصر .

* * *

اقول ان أنور السادات بدأ معركته فى الداخل .. من هذه النقطة المنخفضة للغاية . ولكن الترمومتر فى الخارج كان أكثر انخفاضا .

لقد أصبحت الأمم المتحدة هى صندوق الشكاوى الذى نرسل اليه ملخصا لقضيتنا بين وقت وآخر .. وأصبح الأعداء أكثر شراسة .. والأصدقاء يرسلون الينا ، بين مناسبة وأخرى ، بطاقات التعزية فى وفاة الفقيد .. الذى هو شرف الأمة العربية وحلمها فى التقدم .

كانت اسرائيل مشغولة بخلق « حقائق على الأرض » .. وبرنامج حزب العمل الاسرائيلى الحاكم للانتخابات التالية تتصدره خطة للتوسع فى تنمية واستيطان الأراضى العربية المحتلة .. ورئيسة وزراء اسرائيل تصرح لمجلة تايم الأمريكية فى عنجهية لا مثيل لها : « نحن طبعا لسنا مستعدين بأى شكل للموافقة على أى شرط من شروط السادات المسبقة .. كأن نلتزم بالعودة الى حدود سنة ١٩٦٧ أو كأن نوافق على عبور جيشه لقناة السويس » .. وموشى دايان يعلن فى نيويورك : « اننى أعتقد أن من المستحيل على أى ملك عربى أن يملى على الأمريكيين سياستهم الخارجية لمجرد أنه يملك البترول » .

ان تلك التصريحات الاسرائيلية كانت تساندها بين وقت وآخر أعمال « جيمس بونديه » لتأديب الدول العربية أو المقاومة

الفلسطينية .. سواء بتهديد العمق المصرى .. أو باختطاف ضباط سوريين من لبنان .. أو بالاغارة على الفدائيين فى قلب بيروت .. أو بأسقاط طائرة مدنية ليبية بركابها .

ولكى يصبح الترمومتر أكثر انخفاضا ، والموقف أكثر تعقيدا ، فأن المتاعب لم تقتصر على الأعداء فقط .. وانما كان لابد فى نفس الوقت من حل مشاكل أساسية تنشأ مع الأصدقاء أيضا . لقد دخلت أمريكا والاتحاد السوفيتى عصرا من الوفاق .. وبدأتا تفرضان مظلة سياسية وعسكرية من التعايش فى كل مناطق الالتهاب .. ونقطة البداية فى ذلك هى الأمر الواقع والحقائق القائمه . ان وجود معتدى ومعتدى عليه أصبح شيئا غير هام الا فى اطار محاضرة قانونية او أخلاقية .. ولكنه ليس مهما على الأطلاق اذا كنا بصدد تبادل دولى فى المصالح ودائرة محكمة تم اغلاقها .

لقد أصبحت السياسة المصرية تواجه ضغطا عصبيا مستمرا ، يفرض عليها أن تحدد بالضبط ما هو مفهوم الأصدقاء لصداقتهم .

ان سوق السلاح أصبح مغلقا عن تفوق كاسح فى جانب العدو .. مقابل اضطراب متزايد تعانى منه الأمدادات العربية لحساب سياسة الوفاق .

ونحن نستطيع هنا أن نتصور .. نظريا .. ثلاثة فروض للامدادات العسكرية التى نحصل عليها .

الفرض الأول .. نتلقى فيه امدادات عسكرية تقل فى حجمها ونوعها عما تحصل عليه اسرائيل .. وهذا الفرض معناه بالضرورة أن الباب مفتوح أمام ايسرائيل للقيام بمغامرات جديدة وغزوات جديدة لأراضينا .

الفرض الثانى .. نتلقى فيه امدادات عسكرية تتعادل فى حجمها ونوعها مع ما تحصل عليه اسرائيل .. وهذا معناه الحكم بتجميد الوضع القائم فى الشرق الأوسط .. أى الحكم باستمرار الاحتلال الاسرائيلى لأراضينا الى مالا نهاية .

الفرض الثالث .. نتلقى فيه امدادات عسكرية تفوق فى حجمها ونوعها ما تحصل عليه اسرائيل .. وهذا يتضمن موقفا فعليا فى جانب الحق الحربى .

وفى كل الفروض الثلاثة السابقة التى تصورناها نظريا .. هناك صداقة ، وهناك امدادات عسكرية .. ولكن كل واحد من الفروض الثلاثة ينطوى على موقف سياسى مختلف .

ان عصر الوفاق أدى الى الحكم عمليا باستبعاد الفرض الثالث . وهكذا ، أصبح على السياسة العربية — وبالذات السياسة المصرية — أن تستخدم القليل الذى تحصل عليه .. فى تحقيق الكثير الذي تريده . عبء آخر اضيف الى أعباء صانع القرار السياسي .. وهو يتخذ قراره بالدخول فى حرب مع اسرائيل .

* * *

بهذه الخلفية العامة — وبتفاصيلها الأكثر مدعاة لليأس — يجب أن ننظر الى حرب أكتوبر ، والى الشجاعة المطلقة فى اتخاذ قرار البدء .

لقد عبر أنور السادات عن ذلك بصدق شديد عندما أعلن : « اقول لكم بصدق وأمانة .. اننى أفضل احترام العالم لنا ، ولو بغير عطف .. على عطف العالم علينا .. اذا كان بغير احترام » .

هكذا دخلنا الحرب باحساس مطلق بأنه صدام أرادة ضد أرادة .. قبل أن يكون سلاحا ضد سلاح .. أرادة تصحيح لمــا حدث .. ضد أرادة تدعيم لما حدث .. فى تلك الأيام الاســتثنائية من يونيو سنة ١٩٦٧ . دخلناها بفجوة واضحة فى الميزان العسكرى بيننا وبين اسرائيل . فجوة .. اعتمد صانع القرار السياسى فى سدها على عاملين أساسيين :

أولا : قدرة العقل العربى الشاب على الابتكار . فاذا كان للسلاح مهمة .. فسوف يجعلها الابتكار والأضافة والتعــديل مهمتين . هكذا وجدنا مثلا مهندسا مصريا شابا اســتطاع بقدرته على الابتكار أن يختصر مدة شــق الحاجز الرملى الاسرائيلى الى ساعتين بدلا من عشر . ووجدنا أن دول حلف الاطلنطى أخذت عن المصريين الطريقة الجديدة التى ابتكروها لبناء دشــم الطائرات ، ودول حلف وارسو تأخذ الأسلوب المصرى فى بناء قواعد الصواريخ — انه — المقاتل المصرى والمقاتل السورى — هو الذى أصبح يشكل بالنسبة لرئيس أركان حرب الجيش الاسرائيلى « المفاجأة الأولى فى هذه الحرب » . والمقاتل العربى هو الذى جعل موشى دايان يعلن : « ان حرب أكتوبر زلزال هز اسرائيل » . والمقاتل العربى هو الذى جعل الجنرال « جونين » القائد الاسرائيلى لجبهة سيناء يقول : « لقد كان المصريون يتقدمون موجات بعد موجات . كنا نطلق عليهم النار .. ويتقدمون . كنا نحيل ما حولهم جحيما .. ويتقدمون . كان لون القناة قانيا بالدم .. وهم يتقدمون » .

هذا المقاتل الذى فوجئت به اسرائيل أمامها فى ساحة القتال .. لم يكن شخصية سينمائية . ولا بطلا استخرجناه من الأغانى .. ولا هو « عينة » استوردناها من الخارج انه ابن هذه الأرض نفسها . .بل ابن هذا الجيل نفسه . انه كان موجودا دائما .. ولكنها الفرصة المتعادلة هى التى كانت تنقصه .

ثانيا : الوحدة العربية . لقد ترجمت هذه الوحدة نفسها فى سلاح رئيسى وباتر هو سلاح البترول . فلأول مرة يضطر العالم الى أن يأخذ العرب بجدية عندما يصدرون قرارا .. ويلتزمون به .. ولأول مرة تحس الدول الكبرى أن مصالحها الحقيقة موجودة فى الجانب العربى .. وليس الاسرائيلى . وعندما اضطرت تلك الدول الى اعادة التفكير والحساب .. والى السعى نحو الرياض والقاهرة والجزائر والكويت ودمشق مسترضية ومهدئة .. فانها كانت لغة المصالح التى أتت بها الينا فى هذه المرة .. مصالح تتركز فى سلعة رئيسية : البترول . ليس القرآن ، ولا التوراة ، ولا الانجيل . ليس المسجد الأقصى ، ولا اللاجئين . ليس القانون ، ولا الحق ، ولا الأمم المتحدة . انه : البترول — ذهب هذه الأرض هو الآخر كان موجودا دائما .. ولكنه حرم من فرصته كسلاح سياسى .

* * *

كانت تلك هى الحرب ، وكانت تلك هى خلفياتها وظروفها وأسلحتها .

ثم ماذا ؟؟

لقد ادت حرب أكتوبر الى تذكير العالم ببعض الحقائق الأساسية لطبيعة الصراع فى الشرق الأوسط .. ولكن الأهم من ذلك .. هو أن نتذكر نحن الجزء الآخر الذى يهمنا من تلك الحقائق .

ان حرب أكتوبر أشاعت فى مجتمعنا مشاعر كثيرة ، معظمها صحى .. وبعضها خطر . من المشاعر الخطرة مثلا الأحساس بالرضاء الشديد عن النفس .. وبراحة البال .. وان كل شىء قد أصبح على ما يرام . لا . ان الحرب قد أزالت الغبار من على

جانب واحد من الوجه الحقيقى لنـــا . ولكن الجوانب الأخـــرى ما زالت تتطلب منا الدخول فى تحديات أكبر حجما وأطول زمنا .

ان المواجهة العاجلة فى الصراع بيننا وبين اسرائيل هى المواجهة العسكرية . ولكن المواجهة الاخرى ، المستمرة والدائمة ، هى المواجهة الحضارية . فى أكتوبر كانت المواجهة بين جيش وجيش . فى المستقبل سوف تكون المواجهة بين جامعة وجامعة .. بين اقتصاد واقتصاد .. بين صناعة وصناعة .. بين بحث علمى وبحث علمى .. بين صحافة وصحافة .. بين مؤسسات ومؤسســـات .. بين أعلام وأعلام .. بين انتاج وانتاج .. بين كفاءة وكفاءة .. بين ادارة وادارة .

وكما تعرضنا فى المواجهة العسكرية لحصار سياسى وعسكرى استطعنا بحرب أكتوبر ان نفلت منه ونكسر دائرته .. كذلك نحن تعرضنا فى الصراع الحضارى لحصار انقدنا له فى أحيـــان كثيرة باختيارنا نحن . حصار لا يمكن أن نكسره فى هذه المرة فى غياب تصور شامل نحدده لبلدنا : ماذا نريد منه .. وماذا نحلم به له .

هذه المواجهة الحضارية هى التى ستحسم فى المدى الطويل كل المشكلة بيننا وبين اسرائيل ، فى صدام أوسع نطاقا وأشد عنفا .

و .. أنه صدام اقدار فى هذه المرة .

محتويات الكتاب

كتب أخرى للمؤلف :

ممنوع من التداول – الطبعة السادسة – دار الشروق

افكار اسرائيلية – الطبعة الثانية – تحت الطبع

سياحة غرامية – الطبعة الثانية – دار الشروق

مصرى بمليون دولار – الطبعة الثالثة – الأنجلو

أفكار ضد الرصاص – الطبعة الثانية – دار المعارف

شخصيات من هنا وهناك – الطبعة الأولى – دار المعارف

أرجوك لا تفهمنى بسرعة – (رواية) – تحت الطبع

مطابع الاهرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٤ / ٢٢١٠



عندما صدر لمحمود عوض كتابه المشهور « ممنوع من التداول » قالت عنه صحيفة « لوموند » الفرنسية إنه دليل على أن الجيل الشاب فى مصر يرفض أن يحارب إسرائيل من الذاكرة .. وقالت عنه صحف بيروت إنه « .. سوف يظل أخطر كتاب طوال السنوات الخمس القادمة على الأقل » .

والآن نقدم لك الجزء الثالث : « سرى جدا » . فى هذا الكتاب تقرأ تحليل العالم لحرب أكتوبر وأسبابها : من هم – فى العالم العربى كله – الستة الذين عرفوا بقرار الحرب قبل وقوعها ؟ لماذا أطلقت أمريكا قبل الحرب بتسعة أيام قمرا صناعيا فوق الشرق الأوسط لجمع المعلومات ؟ لماذا طلبت بريطانيا من سفيرها بالقاهرة أن يقابل الرئيس السادات فى الرابعة صباحا ؟ ما هى قصة « الثغرة » ؟ ماذا دار فى الاتصالات بين تل أبيب وواشنطن ولندن والرياض ودمشق والقاهرة وموسكو ؟ لماذا قررت مصر أن تجرى جميع المفاوضات مع السوفييت فى القاهرة وليس فى موسكو ؟ ولماذا تقرر – أصلا – إبعاد الخبراء السوفييت من مصر ؟

إنها أسرار تقرأها فى هذا الكتاب من مصادرها الأجنبية كاملة ، ولأول مرة . وفى النهاية تقرأ تحليلا مقارنا بقلم محمود عوض ، الذى قال عنه النقاد منذ سنتين إنه : « . . يمثل جيلا جديدا شابا من الكتاب الذين يؤمنون بأن تشخيص المرض بدقة وأمانة هو أول شرط لعلاجه » .

مطابع الاهرام التجارية